سلسلة الرحلة إلى العقلين

(٢٢)

وانقضت أوهام العمر

رواية بقلم

السيّد جمال محمّد صالح

التابع لمؤسسة الامام الهادي عليه السلام

مقدمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على خاتم

المرسلين محمد وآله الغر الميامين

من الثوابت المسلمة في عملية البناء الحضاري القويم ، استناد الأمة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصيلة ،الأمر الذي يمنحها الإرادة الصلبة والعزم الأكيد في التصدي لمختلف التحديات والتهديدات التي تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.

وإن أنصفنا المقام حقه بعد مزيد من الدقة والتأمل ،نلحظ أن المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة عليهم السلام بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا ، وكانت مرجعية سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني . مد ظله . هي السباقة دوماً في مضمار الذب عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة ، فخطت بذلك خطوات مؤثرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحول الله تعالى.

ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي أسس لأجل نصرة مذهب أهل البيت عليهم السلام وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيت عليهم السلام على مختلف الجهات ، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وأثار . حيث تحكى بوضوح عظمة نعمة الولاء التي من الله سبحانه وتعالى بها عليهم . إلى مطبوعات توزع في شتى أرجاء العالم.

وهذا المؤلف . رواية « وانقضت أوهام العمر » . الذي يصدر ضمن « سلسلة الرحلة إلى الثقلين » مصداق حي وأثر عملي بارز يؤكد صحة هذا المدعى.

على أن الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكل معتنقي المذهب الحق بشتى الطرق والأساليب ،مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين وتدوينها في « موسوعة من حياة المستبصرين » التي طبع منها ثلاثة مجلدات لحد الآن ، والباقي تحت الطبع وقيد المراجعة والتأليف ، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبل هذا القليل بوافر لطفه وعنايته.

محمد الحسون

مركز الأبحاث العقائدية

٢٢ ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ

site.aqaed.com / Mohammad
muhammad@aqaed.com

الإهداء

إلى البررة ..

من الذين ما كتب الله لهم

على كافة الخلائق من أجر ..

سوى المودة في القربى

أهدي هذا العمل!

خلاصة كلمة المؤلف

لقد سعيت سعيي لاقتضاب الموضوع بأكبر قدر ممكن .. ولا أريد التنويه إلا على أني قد خلصت إلى الاختصار في عرض المصادر ، وإلا فإن ما عرضته ، ما كان ليمثل إلا غيضاً من فيض ، ومن أراد المزيد ، فليراجع في مظانه وليطلب الكتب التي أسهبت في بحث مثل هذه المواضيع!

مع أني قد مضيت كل المضي من أجل أن لا أشعر القارئ أو أثير في نفسه أيما روح ملل أو كسل حين قراءة هذه الرواية العقائدية ، إلا أنه ربما اضطرتني الأمانة العلمية والمقتضيات الفكرية في غالب أحداث القصة إلى الإسهاب في هذا الجانب خدمة لأهداف الرواية النبيلة.

والله من وراء القصد ، والله خير ناصر ومؤيد

الفصل الأول

مخاض البدايات

لم أكن أفكر في يوم من الأيام ، أو أنه ما كان قد تبادر إلى ذهني ، ولا حتى في لحظة من اللحظات ، بأني سأجلج غمار مثل هذه المجادلات ، إلا أني وجدتني مسهباً في التفكير مسرفاً في الأوهام ، حتى صرت أشكك في كل ما يتناوبني من تقلبات جعلت تنتابني بين الحين والآخر ، إذ إن الوقت الضيق ما كان ليسمح لي بأيما نزعة في التفكير .. كذلك ، فإن الظروف ما كانت لتدعني أنهمك في تبني أي خطة ذهنية! ولا أعني أن الزمان كان ضيقاً علي ، بل إن الأفكار غدت تزدحم في رأسي الذي جعلت النوبات تتداوله ، نوبة بعد أخرى ليهتز عنق جسدي حتى يصير يستلقي مسترخياً عند صدري ..وكأن ليلاً ما يحيط به ،جعل من وزنه يزداد بأساً حتى كأنه قد انحدر في حضني لولا أن تسعفه راحة أكفي فيعمد خلالها إلى الإنحطاط فوق أرضها ..

. « لعلي أكون على خطأ ، إلا أني لم أتأكد بعد من ذلك ، فلو كنت هكذا ، وكما كنت أراني على مثل هذه الشاكلة من التقلب والاستهلاك ».

جعلت أحدث نفسي ،وأنا أعاني ألماً مكبوتاً في داخلي استغرق في أعماقي جل المسافات الطوال حتى جعل كأنه يزحف زحف الأفعى ليمتد ومن بعد ذلك متطاولاً يخب كما تخب الفرس الجموح ، أو كما يمكن أن يرفل أيما جواد أدهم في مشيته .. لأ نه صار يتقلص وينقبض بدقائقه الطوال ، حتى

إذا ما صار يزاول تطاوله وتعاليه، كيما ينحيني عن عزمي ، ويثنيني عن سؤلي إلا بجواب لا يحمل لون الدقة في الاستدلال .. فإنه وفي هذه المرة قد جعل يفجعني بمرارة ألوان نازفة من الحقيقة الراعفة والتي جعلت أحس بطعمها حقيراً للغاية ، لأنها كذلك. إنما مذاقها كان في تلك الساعة هو أشد كثيراً علي من أي وقت آخر .. فقال لي وهو يلملم براهين لا غبار عليها :

. « إنك ولو يجيئك رسول الله الآن وبنفسه ، ويعلن لك عن مفاد هذه الحقيقة التي تبحث عنها الآن أو التي بالأحرى تتقلب أنت في أوطار همهماتها وسبحات رشاقتها المميتة ، فإنك كذلك ستشعر بنفسك ، تفتقر وكأكثر ما تفتقر إلى الشجاعة في اتخاذ القرار ، والجرأة في احتمال وقع الموافقة والتأييد ، وأنت الذي لا أراك بحاجة إلى تلقين أيما أحد يمكن أن يشخص لملك لأجل هذا الغرض ذاته في أن محمداً ما كان بدعاً من الرسل ، وما كان هو إلا وحياً يوحى! إذ ما كان لينطق عن الهوى .. علمه شديد القوى ».

جعلت أعتاد على لون من الاضطراب ، تجلدت في مغالبته أو احتمال الالتهاب عند وقعات السنته الحادة ، بل شفرات مقصلته الفولاذية ، حتى بت أعاند كل أمر حولي وطفقت أناكد كل أفكاري ، وأعزم على الهرب دون التفكير في الزمان والمكان ، وأعزم على أن أطوي دون العودة إلى مثل هذه المواضيع! وكيف لها أن تتمرر من دون أن أعيرها أدنى اهتمام أو أقل إصاخة ، لأني كنت قد جعلت أنازعها الأمر كيما تخبرني عن الحقيقة دون سواها ،وذلك كلما فكرت في كل هذا والهرب من مصيري المحتوم فهل لي أن أصبح شيعياً في الغد؟ إن التفكير في مثل هذا قمين بأن يبعث بي أنا إلى لجة الجحيم وغمرات الحميم ، بل إنه كلما تخيلت نفسي وقد التقيت بأحد أنسبائي وأيما

شخص من أهلي وأقاربي وأنا أحمل بين طيات أضلعي هوية تجنح بي نحو لهب التشيع ، وتلمح للجانب الآخر أني قد انتحلت شخصية أخرى ، وتبنيت سمة ثانية حتى انتزعت جنسية تنازع في أفكارها آمال كل من يمكث في منزلنا من قبل. فما كان لينوس من فوق جبيني وعند اختلاج خصلات شعري المنفرجة عنده إلا قطرات من لون حياء ونثرات من أسف واجم ،على أني ما خرجت من تلك الغربة إلا بمثل هذه البضاعة التي يكون خليقاً بسكب قطرة منها في بحر من المياه الباردة أن تجعل منه سائلاً ملتهباً يغلي ويفور علواً وهزءاً حتى يتلاطم الموج فوق ظهره وتصطخب تياراته بعنف وأبهة منذرة بقدوم صفوف من أعلام العواصف وطلائع الأعاصير .. لكني عدت أنسى كل ما جعلت أفكر به أو ما صار يتناهب أحشائي بدلاً من أفكاري ، لأني كنت قد وطدت العزم على تلافي أيما انتكاسة يمكن أن تتوعدني بوادرها بسيل من أفانين لا تحمد مغباتها أبداً . وكيف؟ وهذا الذي صار يدمرني أكثر ومن ذي قبل ، لأني صرت أبحث عن حلول حتى إذا ما وجدت قرارات ملؤها العزم ، خانتني الأفئدة المحتشدة وراء أضلعي وجمد الدم في عروقي ، وهدأ نبض صدري .. وكأن فلذته التي تغور في بطونه قد جعلت تتمزق لتتلاشى أجزاؤها الدقيقة كلما نتأت وصارت تنجم خارج حدود جسدي ،لأني صر ت أذوي بأفكاري أكثر من السابق حتى عمدت إلى أن أرضها وأنضد في سقيفة رأسي كل الأعمدة التي كان قد شيدها السلف ومن قبل حتى أقام بناءاتها الأجداد ، وذلك بعد أن رأيتني أكرس كل همي للخروج من مأزق هذه الأفئدة التي احتبستها في داخل صدري ، وكأ نه ما كان يهمني منها سوى النهوض بماداتها. إنها أفئدة إخواني وأهلي وأقربائي تصارعني وتكبل قلبي عن النطق

بالشهادة ،وتصير تلفحه بشرارات حادة يلتمس عبرها سبيلاً تناضل في خداعه ، تثنيه عن عزم الاقرار والنفاذ إلى رحبته، كيما يلقي فيها كل أسواره الثقيلة التي قلدوه بها ومن قبل.

إنها الحقيقة الصارمة وبكل أجنحة قواتها وآليات أفواجها .. تتكلل بكل ما ينثر فوق رؤوسها من ألوان الأعلام ومباهج الأشرعة ، لأنها صارت تخترق قلبي وتصفق بجناحيها عند مصراعي بوابته ، حتى إذا ما غالبته وراودته عن نفسه .. أخذت بعضادتي بابه ، وهي تحاول أن تبقي عليه داخل غرس دعامتيه دون إفلات نقع أليمه الذي صار يقطر ويجتمع كحبات عرق تتفصد في جبين وضاء أخذه الحياء على حين غرة حتى طفق فوق شفتيه عبق ابتسامه تضوع بمسحة الخجل وعدم التورع عن القبول والرضى. بل تطمح بمقدار ما يسعها لتجب ما فاتها من زمان قضته في عصمة البغي ووطأة النكد المرير .. وتدارك كل ما اكتسبته في السابق من تطفيف بحق أهل الدين وعمدائه .. فأردت إلغاء كل أسورة الاعتزاز التي يجلنى بها الأهل من قبل لأني ابنهم وأخوهم وبضعتهم وفلذة من فلذات عمرهم الطاعن في عباب الأزمنة الغابرة والاتية فكيف انطوت جوانحي على مبدأ ربما ما استساغته أيامهم ولا لانت له طروب عيشهم ، لأني كنت قد قدمته على ما سواه حتى اجترأت دون أخذ رأيهم واستشارتهم على استبصار ما كان ليمثل لأيما أحد منهم ولا لنفسي أنا التي تلثغ وتحير في كل ماحولها أن تستجيب لصبغة في ذات أيما ليلة أو تحت ضجيج من شوق أثواب شعاعات بهية طلع بها النهار في يوم من الأيام .. إني لا أذكر أن أهلي من أولئك المتعصبين بل إني أخاف المخاطرة ،أجبن عن اتخاذ القرارات الجريئة. لا أجد حياضاً أترع بها بطني

وأبل ببرودتها جوفي ، إلا من بعد أن أدين بدينهم ،وأتنازل لهم عن كل ما له أن يجرح كبريائي دون كبريائهم وصرخة أمجادهم. هكذا علمت نفسي، كنت قد وجدتها مطواعة وطبقاً لمثل هذه النعمة الساحبة بين أعواد مشانق أعدها الآباء والأمهات لأولادهم ، فأما أن يمجسونهم ، أو يمسحونهم ، أو يهودونهم .. غير أني وعندما وجدت البشارة تنقذف في أعماقي ،شعرت أن تنيناً في داخلي يغامر في الاشراف على كل تاريخي ، والكشف عما تبقى من سلالته في أعماق دواخلي .. صرت أخاف نفسي لعل السعالي والغيلان تنقض علي ، فتهجم على طفولتي ، وتكتسح مساحاتها ، فتحيل أرضها الخصبة وغياضها الغناء إلى بقاع جرداء وطينة سبخة مدقعة بألوان الفقر ، مثقلة بأنواع الحلي الغرامية. لأني كنت قد آنست الشجاعة في نفسي كيما لا أتوانى في الانقضاض على كل تلك الوحوش الكاسرة والهياكل المفترسة التي رافقتني أشباحها طيلة أيام حياتي حتى رعيتها وسهرت على نموها وودعتها تكبر وبهدوء في دواخل أعماقي حتى إذا ما تناءت في أحجامها ، وتناهت في غيها ،جعلت تعلو بجبروتها وتطغى بلسعاتها حتى استاقتني مذعناً ،واقتادتني صاغراً دون أن أمنح لنفسي الحق في أيما تعبير له أن يثلج قريحتي ويمعن في سؤدد مجدي، كيما يطلع علي بنفحات قدسية ، تلثم أوراق عطاءاتي النافذة في أقاصي آفاق المستقبل ، ومن قبل أن تتفتح براعمها عن شمس تشرق أبداً ، وتطلع قبل أن يرتفع النهار ، ويبزغ أمل يوم جديد. فما كان منها إلا أن أنشأت تلهب ظهري بأسواط القهر والذعر دون الاعتماد على النفس ، تخوفني دائماً من مغبة اغتنام نور وافر منه وافتراص ألوان الخلسة، كيما أبيح لوجدي ما يمكن أن يعبر عن نوع اقتنائي للأفكار أو اختياري لضروب النوازع. بل إن

الطريق كانقد غدا لمن أنشأني وسهر على تربيتي واضحاً لاحباً . فليس ثمة من خير في انتهاج أيما طريق فرعية داخل هذه السبيل العامة إنما أن يحيد المرء عن اقتفاء آثار مثل هذه الجادة وتنكبه الطريق ليعسف عن حيادها ويميل إلى عذارها. فما كان له إلا أن يستل وبفعلته تلك نصلاً يحاول ومن خلاله أن يغمده في جرح إبائه حتى يصير ينكأه .. وهو الذي يراه ، ولما يندمل بعد وإلى الآن.

عانقت وجه الحرية ، تنشقت انسام البهجة ، تلفعت بلفحة أثلجت كبريائي، كان كل ذلك حينما ابتدرتني أنفاس رحيبة ، شعرت بها تلقي من عليها كل ملاءات العجز وشراشف الكهولة الغائرة في عمق كآبة الزمان وعنق سامة النهار .. لأني بدأت أشعر بأن علي أن أغتنم كل فرصة ،لأجل أن أبحر مسافراً في ظلال أدواح هذه المراتع والهضاب. اجتاز بكل الأودية والمفترقات ، لا أنقلب بعدها ، إلا حينما أعثر على نفسي التي أضعتها. وكم هي الحقيقة مرة جداً ، وللغاية حينما يطالني عقلي وتنبغ بين أوصاله نجمة نابتة ، تخبرني أن ما أضعته ، لم تضعه خارج حدود منزلك ، لأنك كنت قد ألقيته بين جنبات زواياه حتى انصرفت عن التفكير به. وذلك لأنك صرت لا تفكر أبداً بكل ما للعقل أن يسلم له ، ويصادر الفكر على بدهيته المشرفة دون نيل الأذي ، أو انفاق الجهر الذي ليس تحته أيما طائل سوى إرهاق عود الذهن الغض ..

إذن ، ما كنت أبحث عنه ، فكان يقبع في داخلي ، فقبل أن أبحث عن الحقيقة، كان علي أن أسأل نفسي .. فهل أنا أستأهل كل هذا الاعتزاز من رب العالمين إن مكنني في هذه البرهة وجعلني أهلاً لهذه الرفعة ، في أن أقرر ما

أشاء بفعل عقلي الحازم وما عليه فكري الثاقب دون التعصب لأهل أو جار ، أو عشيرة ، أو سكان مصر وحاضرة ، دون التفكير بأي ماض ، دون الاعتلال على الأخير بمستقبل يفد عليه صاغراً مذعناً .. لأن ثوب الحقيقة لابد أن يكتسح أنواء السماء دون حائل حتى يشرف على صدى القلوب ، فيتنازعها البقاء ، وكيف لها أن تحتم الارتقاء إلى حجم التطلع نحو حبك نسائج ألوانه وهي التي قد رسخت في الأرض ، وأقبلت بما يمكن أن تثني معه عزمه عن التعالي على أوراق ومواريث الأجداد ، ذلك حين يستطرق العقل ، فيستطرد الذهن في إبطال مفعولها دون أن يرى في ذلك أي خير سوى تنكب رقية الحقيقة التي تعوذه من شر كل الآفات .فليس يمنع أحدٌ من الموت إن هو ظل على دين آبائه ، وما كان ليجديه أيما سبق في اللحاق بركب الأفذاذ إن هو أقر بما أقره الأولون دون عناية واستنباط واستقراء ودراسة. فما كان الموت ليغادر صغيراً ولا كبيراً .. وما كان للسان المنية أن يمتنع عن تناهب أيما شيبة وشبيبة .وخلاصة الأمر إن الكل ماضون إلى سبيل هو عاجلاً أو آجلاً سوف يخضعون وفي خلاله إلى استجواب خاص، كل منهم على انفراد .. فكيف بي وأنا الوحيد الذي سيلبث هناك يتقوقع بين جدران أوهدة الظلمات ، وملائكة السؤال يشددون قبضاتهم على كتفي ، وقد عيل صبرهم على مكايدتي لهم ، يحاولون أن يلحقوني بأهل النجاة ترحماً بي ورقة بحالي وأنا ما كنت لأحير جواباً .. لأني ما كنت أبحث عن مثله في الحياة الدنيا ، ذلك أني اكتفيت بما وجدت عليه آبائي وإخواني. فكنت إذا غادرتهم لزمان ما ، ولأي مكان سافرت ، أو نأيت عنهم وقصيت برسمي وجسدي عن ألوان أبشارهم جعلت أشتاق إليهم ، وأنازع صديد الغربة ، وأكابد أوار كأبتها بعد أن يضطهدني صدأ

رطوبتها حتى إذا عدت إليهم جعلت أرتمي في أحضان أبي وأمي وإخواتي وأصارع دمعاً جعلت أغالبه من فرط الشوق إليهم ، وما صار يعتصرني من حبور وفرحة .. كأنها دموع فرح لا ينطق بها وجد لمعانها إلا إذا كان لها أن تنسفح من زوايا آماقي ، وتنحدر من جيوب نواظري السخية .. فلم يكن لي أن أنشق عن سلالتهم ،ولا أن أنأى عن منهجهم فعلاً ولا قولاً .. إلا أني وكلما فكرت في الموت ، وكيف له أن يكون بمستطاعه أن يجعلني في نأي عنهم ، لأصير لوحدي أقاسي آلام الغربة الحقيقية ،لأن الموت ما كان إلا حداً فاصلاً . أما السفر والافتراق فهو فرصة ، وتنتهي بنفاذ شروط أحكاماتها حتى إذا ما زالت ، عادت السحب ترتقي عنان السماء وتحمل براتعها المنسجمة غدقاً وصيباً ، وذلك عند اللقاء ومن جديد ..

كذلك، كنت أفكر في أهلي عند منازعة عقلي لأفكاري ، ومجاذبة الأخيرة للسان الصمت الذي جعل يتحرك دون رغبة منه في داخلي ، هكذا عنوة .. فكنت لا أستجيب لأي شفرة تحيل حياتي إلى فراق وبعاد عن أبي وأمي وبيتنا .. وهكذا ، وجدتني في ليلة وضحاها ،أنأى عنهم صاغراً ، وبالرغم مني ، لأجدني في يوم من الأيام أفكر في النأي عن معتقداتهم ، والعزم على انتحال صبغة هي غير ما انتحلته ضمائرهم ، واعتناق غير ما اعتنقته ذكرياتهم .. لأن هذه الأخيرة غدت طافحة بكل جميل ومر .. وكنت أعترف بأني أحمل بين أضلعي إنساناً ، ربما يضعف في بعض الأحيان إلى حد هو أعظم من أن يوصف ، غير أني شعرت وكلما صرت أقترب إلى نقطة الصفر وساعة الصفر في تصميمي على اتخاذ القرار والعزم على ترك المذهب السني ، واعتناقي للمذهب الشيعي، كنت أشعر بأني كنت أصير إلى ارتقاء سلم مجد ما

كان قد ارتقى مرقاها أي أحد من أهلي ومن قبلي أنا .. فإني ما كنت إلا السباق فيهم .. في حين ما أذكرأني كنت سباقاً بينهم ، وإلى أي من الأشياء في السابق ، فهل هذا خليق به أن ينفحني بمجد قلما فاز أو ظفر به أحد من قبل ، سوى يوسف بن يعقوب ، حينما من الله عليه ،وأخرجه من السجن وجعله حاكماً على أموال مصر ، نافذ القول ،آمراً على الساسة والناس .. حتى جاءه إخوته من البدو ..فصار الواقع مصداقاً لتفسير رؤياه التي قصها على أبيه ومن قبل حتى صرت أنا والغدير على موعد. ولقد كنت أناقش نفسي مناقشات ما كانت إلا حصيلة مطالعات متواصلة دقيقة .. وكأني أناظرها بما توصلت إليه ، مما وقع عليه ذهني وصحا عليه عقلي حتى صغت نفسي إلى حديثي ..

إذ جعلت أقول لها :

ـ « أذكري لي حديث الغدير؟ كيما أدقق فيه نظري وأتأكد من صحته ، وذلك حينما تكونين قد سردت علي حديثه من طريقنا .. أعني طريق أهل السنة ، كيما يطمئن قلبي ، ويهدأ بالي ، فأتدبر حالي وأتخذ أمري عن روية وعقل ، وأصير حيال واقع ليس هو من الخيال بشيء ».

فرجعت إلى أفكاري ، وأنا أشعر بالاندهاش يغلب على رسمي ودواخلي ، وذلك لوقع الحقائق التي جعلت معانيها تتراقص في ذهني ، تكبح كل تردد وانفعال ليس تحته أيما طائل ، فصارت تحدثني ..

وهي تقول :

. « أخرج الطبراني وغيره بسند مجمع على صحته .. ».

فقلت لها :

. « ومن صرح بصحته؟ ».

قالت :

. « صرح بصحته غير واحد من الأعلام ، حتى اعترف بذلك ابن حجر ، إذ أورده نقلاً عن الطبراني وغيره في أثناء الشبهة الحادية عشرة من الشبه التي ذكرها في الفصل الخامس من الباب الأول من الصواعق ، كما أن الطبراني كان قد أخرجه عن زيد بن أرقم حيث قال : خطب رسول الله ﷺ بغدير خم تحت شجرات ، فقال : أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب (وكأنه قد نعى إليهم نفسه الزكية تنبيها إلى أن الوقت قد استوجب تبليغ عهده ، واقتضى الاذان بتعيين خليفة من بعده ، وأ نه لا يسعه تأخير ذلك مخافة أن يدعى فيجيب قبل إحكام هذه المهمة التي لا بد له من إحكامها ، ولا غنى لأمته عن إتمامها) ، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون .. ».

قاطعتها قائلاً :

. « هنا الأمر يختلط بصحة التقدير الصعب؟ ».

." أجل وذلك لأن عهده إلى أخيه كان ثقيلاً على أهل التنافس والحسد والشحناء والنفاق ، فأراد الرسول ومن قبل أن ينادي بذلك ، أن يتقدم في الاعتذار إليهم ، تأليفاً لقلوبهم وإشفاقاً من معرة أقولاهم وأفعالهم ، فقال : وإني مسؤول ، ليعلموا أنه مأمور بذلك ومسؤول عنه ، فلا سبيل له إلى تركه. وقد أخرج الامام الواحدي في كتابه أسباب النزول بالاسناد إلى أبي سعيد الخدري ، قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك** ﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب ».

. « وبعد؟! ».

. « ولعله أشار بقوله ﷺ : وإنكم مسؤولون ، إلى ما أخرجه الديلمي وغيره

كما في الصواعق وغيرها ـ عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ عن ولاية علي ، وقال الإمام الواحدي : إنهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل البيت ، فيكون الغرض من قوله : وإنكم مسؤولون ، تهديد إلى الخلاف لوليه ووصيه ».

. « تابعي الرواية؟ ».

. « .. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت ، فجزاك الله خيراً ، فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وأن ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث بعد الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا : بلى نشهد بذلك ».

كنت صامتاً مصغياً ، بينما طلعت نفسي تعلق بالقول :

ـ « يا هذا ،أريد أن أقول لك شيئاً ... تدبر هذه الخطبة؟ فمن تدبرها! وأعطى التأمل فيها حقه ، فعلم أنها ترمي إلى أن ولاية علي من أصول الدين كما عليه الإمامية ، حيث سألهم أولاً فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً عبده ورسوله؟ إلى أن قال : وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، ثم عقب ذلك بذكر الولاية ليعلم أنها على حد تلك الأمور التي سألهم عنها فأقروا بها ، وهذا ظاهر لكل من عرف أساليب الكلام ومغازيه حتى صار يفهم مدلولاته ليدخل بعد ذلك في عداد أولي الأفهام ».

وكنت مشدوداً إلى ما تقول حتى وجدتها تتابع الرواية وهي تقول :

. « قال : اللهم اشهد ، ثم قال : يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم .. ».

قاطعتها وأنا أقول لها :

. « ماذا يعني ذلك؟ ».

. « أما قوله : وأنا مولى المؤمنين ، فهو قرينة لفظية ، تدل على أن المراد من المولى إنما هو الأولى ، فيكون المعنى : إن الله أولى بي من نفسي ، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ومن كنت أولى به من نفسه ، فعلي أولى به من نفسه .. (وجعلت تستدرك ما كانت تحدث به) فمن كنت مولاه فهذا مولاه ،يعني علياً ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. ثم قال : يا أيها الناس إني فرطكم ، وإنكم واردون علي الحوض ، حوض أعرض مما بين بصرى إلى صنعاء ، فيه عدد النجوم قدحان من فضة ، وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين، كيف تخلفوني فيهما ، الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل ، سبب طرفه بيد الله تعالى ، وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا ، وعترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير ، أنهما لن ينقضيا حتى يردا علي الحوض ».

. « هذا لفظ الحديث؟ ».

. « أجل! هذا لفظه عند الطبراني وابن جرير والحكيم الترمذي عن زيد بن أرقم ، وقد نقله ابن حجر عن الطبراني وغيره باللفظ الذي سمعته ، وأرسل صحته إرسال المسلمات ، فراجع صفحة ٢٥ من الصواعق ».

. « وهل أخرجه غير هؤلاء؟ ».

ـ « أخرج الحاكم في مناقب علي من مستدركه صفحة : ١٠٩ من جزئه الثالث ، عن زيد بن أرقم من طريقين صححهما على شرط الشيخين ، قال : لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ، ونزل غدير خم ، أمر بدوحات فقممن ، فقال: كأني دعيت .. وعترتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا

حتى يردا علي الحوض. ثم قال : إن الله عز وجل مولاي ، وأنا مولى كل مؤمن ، ثم أخذ بيد علي ، فقال : من كنت مولاه فهذا وليه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ... وذكر الحديث بطوله ، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص » [1].

» إن الشيعة متفقون على اعتبار التواتر فيما يحتجون به على الإمامة ، لأنها عندهم من أصول الدين ، فما الوجه في احتجاجهم بحديث الغدير مع عدم تواتره عند أهل السنة؟ وإن كان ثابتاً من طرقهم الصحيحة؟ ».

قالت :

. « إن تواتر حديث الغدير مما تقضي به النواميس التي فطر الله الطبيعة عليها ،شأن كل واقعة تاريخية عظيمة يقوم بها عظيم الأمة ، فيوقعها بمنظر وبمسمع من الالوف المجتمعة من أمته من أماكن شتى ليحملوا نبأها عنه إلى من ورائهم من الناس ، ولا سيما إذا كانت من بعده محل العناية من أسرته وأوليائه في كل خلف حتى بلغوا بنشرها وإذاعتها كل مبلغ ، فهل يمكن أن يكون نبؤها والحال هذه ، من أخبار الآحاد؟ كلا! بل لا بد أن ينتشر انتشار الصبح ، فينظم حاشيتي البر والبحر ..لأنك لن تجد لسنة الله تحويلاً ».

قلت لها :

. « ماذا تعنين؟ ».

قالت :

. « إن حديث الغدير كان محل العناية من الله عز وجل ، إذ أوحاه تبارك وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ،وأنزل فيه قرآناً يرتله المسلمون آناء الليل وأطراف النهار ،

---

(١) كما أخرجه الحاكم في مستدركه ٣ : ٥٣٣ ، والإمام أحمد في المسند ٤ : ٣٧٢ ، والنسائي في خصائصه : ٢١ ، ومسلم في صحيحه ٢ : ٣٢٥ وغيرها من المصادر.

يتلونه في خلواتهم وجلواتهم ، وفي أورادهم وصلواتهم ، وعلى أعواد منابرهم ، وعوالي منائرهم ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ ».

. « توقفي ..مهلاً ! هل هذه الآية هي مما نزلت بولاية علي يوم غدير خم؟

. « إنه مما لا شك في ذلك! فأخبار أهل السنة في ذلك وافرة ..و حسبك مما جاء في ذلك من طريق غيرهم ما أخرجه الإمام الواحدي في تفسير الآية من سورة المائدة صفحة : ١٥٠ من كتابه : (أسباب النزول) ، من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري ، قال : نزلت هذه الآية ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب » [1].

ـ « وهل ثمة من القرائن ما يشهد لهذا النزول وهذه الآية .. وبهذا المعنى من الولاية والحكومة لعلي بن أبي طالب؟ ».

. « مما يشهد له أن الصلاة كانت قبل نزولها قائمة ، والزكاة مفروضة ، والصوم كان مشروعاً ، والبيت كان محجوحاً . فضلاً عن أنالحلال كان بيناً ، والحرام بيناً ، والشريعة متسقة ، وأحكامها مستتبة. فأي شيء غير ولاية العهد يستوجب من الله هذا التأكيد ، ويقتضي الحض على إبلاغه بما يشبه الوعيد ، وأي أمر غير الخلافة يخشى النبي الفتنة بتبليغه ، ويحتاج إلى العصمة من أذى الناس بأدائه ».

---

(١) كما وأخرجه أبو نعيم في تفسيره بسندين ، والجويني في فرائده ، والثعلبي في تفسيره.

الفصل الثاني

أنا ونفسي ، وللحديث صلة

كنت ما أزال أحدث نفسي ، ولقد شغفت بهذا الحديث حتى طال وطره وتناءت دقائقه بساعاته ، فعدت أسائلها وفي القلب لوعة إلى بلوغ النهاية والخروج من هذه المحنة والأزمة اللتان خلتهما أشبه بالفتنة العمياء ، فقلت لها :

. « وآية الاكمال ، كيف كان لها أن تنزل؟ ».

ـ « فلما بلغ الرسول ﷺ يومئذ الرسالة بنصه على علي بالإمامة وعهده إليه بالخلافة ، أنزل الله عز وجل عليه : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾. وإذا كانت العناية من الله عز وجل ، على هذا الشكل ، فلا غرو أن يكون من عناية رسول الله ﷺ ما كان! ».

. « كيف؟ ».

. « فإنه لما دنا أجله ، ونعيت إليه نفسه ، أجمع وبأمر من الله تعالى على أن ينادي بولاية علي في الحج الأكبر على رؤوس الاشهاد. ولم يكتف بنص الدار يوم الانذار بمكة ، ولا بغيره من النصوص المتوالية. وقد سمعت بعضها ، فأذن في الناس قبل الموسم أنه حاج في هذا العام حجة الوداع ، فوافاه الناس من كل فج عميق ، وخرج من المدينة بنحو مائة ألف أو يزيدون .. ».

فقاطعتها وأنا أحاول أن أفلت من زمام هذا الطوق الذي جعل يشتد على

عنقي وهو لا ينفك يتعاقب شدة وإصراراً :

. «مثلاً ، كم كان عددهم؟ ».

قالت :

. « قال السيد أحمد زيني دحلان في باب حجة الوداع من كتابه السيرة النبوية : وخرج معه ﷺ(من المدينة) تسعون الفاً ، ويقال مائة ألف وأربعة وعشرون الفاً ، ويقال أكثر من ذلك (قال) وهذه عدة من خرج معه ، وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك ... إلى آخر كلامه. ومنه يعلم أن الذين قفلوا معه كانوا أكثر من مائة ألف ولكنهم شهدوا حديث الغدير .. فلما كان يوم الموقف بعرفات نادى في الناس : علي مني ، وأنا من علي ، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي .. ».

وعندها وجدت أن النصر قد حان أن أقبض على عروته وبيدي الثنتين هاتين ، ومن دون أن أتراجع ولا حتى قيد شعرة أو أنملة ، فقلت لها :

. «وإذن ، كان البخاري محقاً في روايته أنها نزلت يوم عرفة؟ ».

. « ما هي؟ ».

. « آية الاكمال! ».

. « لا! ليس الأمر كما تتصور قط! ولكن يمكنك أن تقول : إن الأمر كان قد اتسق للبخاري كيما يدفعها عن حقيقة تفسير أسباب نزولها الأصلية ، فجاءت مثل هذه الرواية دعماً لادعائه على ما يظن ، وما كان يعتقد أنها على العكس من ذلك تماماً ».

. « كيف لهذا أن يتم؟ ».

. « لأ نه لما قفل رسول الله بمن معه من تلك الألوف ، وبلغوا وادي خم ، هبط عليه الروح الأمين بآية التبليغ عن رب العالمين ، فحط ﷺ هناك رحله

حتى لحقه من تأخر عنه من الناس ، ورجع إليه من تقدمه منهم.

. « إذن فثمة ما نزل بحق علي في عرفة ، وثمة ما نزل بحقه كذلك بعده؟ ».

. « إنما ثمة ما كان قد أعلنه رسول الله بحقه في عرفات ، وثمة ما نزل بحقه فيما بعد ذلك عند الغدير! ذلك أنه لما اجتمع المسلمون هناك ، صلى بهم الرسول الفريضة ، ثم خطبهم عن الله عز وجل ، فصدع بالنص في ولاية علي ..وقد حمله عن رسول الله كل من كان معه يومئذ من تلك الجماهير ، ولقد كانت تربو على مائة ألف نسمة ، أتت وتوافدت من بلاد شتى ».

. « وهل استشهد علي بن أبي طالب نفسه بهذا الحديث؟ ».

. « نعم ، فلقد قام بذلك في أيام خلافته ، إذ جمع الناس في الرحبة ، فقال : أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال ، إلا قام فشهد بما سمع ، ولا يقم إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه ،فقام ثلاثون صحابياً ، فيهم اثنا عشر بدرياً ! فشهدوا أنه أخذه بيده ، فقال للناس : أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ : من كنت مولاه ، فهذا مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .. ».

. «أتريدين القول بأن ثلاثين صحابياً كانوا قد شهدوا بذلك؟ ».

. « أجل! مع أن الإسلام يقر شهادة اثنين ..فكيف لو كان الشهود ثلاثين شخصاً ..وأنت تعلم أن تواطؤ الثلاثين صحابياً على الكذب مما يمنعه العقل ، فحصول التواتر بمجرد شهادتهم إذن هو أمر قطعي لا ريب فيه أبداً . وقد حمل هذا الحديث عنهم كل من كان في الرحبة من تلك الجموع ، فبثوه بعد تفرقهم في البلاد ، فطار كل مطير ».

. « وهل كان يوم الرحبة في أيام خلافة علي بن أبي طالب؟ ».

. «بالتأكيد! إذ إنه مما لا يخفى على المتبصر في مثل هذه الشؤون أن يوم الرحبة إنما كان في خلافة أمير المؤمنين ».

عندها اندفعت وأنا أقول :

. « إن حمل الصحابة على الصحة يستوجب تأويل حديث الغدير متواتراً كان أو غير متواتر ، لأن لفظ المولى يستعمل في معان متعددة ورد به القرآن العظيم : فتارة يكون بمعنى الأولى، كقوله تعالى مخاطباً للكفار : ﴿**مأواكم النار هي مولاكم**﴾ ، أي أولى بكم ، وتارة بمعنى الناصر، كقوله عز اسمه : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ ، وبمعنى الوارث، كقوله سبحانه : ﴿ **ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ ، أي ورثة ، وبمعنى العصبة ، نحو قوله عز وجل : ﴿ **وإني خفت الموالي من ورائي** ﴾ ، وبمعنى الصديق، كقوله تعالى : ﴿**يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً** ﴾. وكذلك لفظ الولي يجيء بمعنى الأولى بالتصرف، كقولنا : فلان ولي القاصر ، وبمعنى الناصر والمحبوب. فلعل معنى الحديث من كنت ناصره ، أو صديقه ، أو حبيبه فإن علياً كذلك. وهذا المعنى يوافق كرامة السلف الصالح ، وإمامة الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين ».

قالت :

. « أنا أعلم بأن قلبك لا يطمئن بما ذكرته أنت نفسك ، بل لا يعتد به ، ونفسك لا يمكنها أن تركن إليه ، وإنك تقدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حكمته البالغة ، وعصمته الواجبة ونبوته الخاتمة ، وأ نه سيد الحكماء وخاتم الأنبياء ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحيٌ يوحى * علمه شديد القوى** ﴾ ».

. « أنا أعلم ما تريدين قوله ».

. « دعني أكمل حديثي .. فلو سألكم فلاسفة الأغيار عما كان منه يوم غدير خم فقال : لماذا منع تلك الألوف المؤلفة يومئذ عن المسير؟ حبسهم في تلك الرمضاء بهجير؟ وفيم اهتم بارجاع من تقدم منهم ،وإلحاق من تأخر؟ ولم أنزلهم جميعاً في ذلك العراء على غير كلأ ولا ماء ، ثم خطبهم عن الله عز وجل في ذلك المكان الذي منه يتفرقون .. ».

. «؟!».

. « .. ليبلغ الشاهد منهم الغائب ».

. « هذا واضح .. ولكن! ».

. « .. وما المقتضي لنعي نفسه إليهم في مستهل خطابه؟ إذ قال : يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني لمسؤول ، وإنكم مسؤولون ، وأي أمر يسأل النبي ﷺ عن تبليغه؟ وتسأل الأمة عن طاعتها فيه ».

. « إنه أراد أن يعمل بكل ما تمليه عليه .. ».

. « ولماذا سألهم ، فقال : ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وأن ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا : بلى نشهد بذلك ».

. « إنها أمور أولية .. بل تعد من البديهيات لدى الأنبياء .. ».

. « ولماذا أخذ حينئذ وعلى سبيل الفور بيد علي فرفعها إليه حتى بان بياض ابطيه؟ فقال : يا أيها الناس إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ».

. «؟!».

. « ولماذا فسر كلمته : وأنا مولى المؤمنين ، بقوله : وأنا أولى بهم من

أنفسهم؟ ولماذا قال بعد هذا التفسير : فمن كنت مولاه ، فهذا مولاه ، أو من كنت وليه ، فهذا وليه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله؟ ولم خصه بهذه الدعوات التي لا يليق لها إلا أئمة الحق ، وخلفاء الصدق؟ ولماذا أشهدهم ومن قبل ، فقال : ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا : بلى ، فقال : من كنت مولاه ، فعلي مولاه ، أو من كنت وليه ، فعلي وليه؟! ».

. « .. إن الأمر ...!

ـ « ولماذا قرن العترة بالكتاب؟ وجعلها قدوة لأولي الألباب إلى يوم الحساب؟ وفيم هذا الاهتمام العظيم من هذا النبي الحكيم؟ وما المهمة التي احتاجت إلى هذه المقدمات كلها؟ ».

. « هذا صحيح .. ولكن! ».

ـ « وما الغاية التي توخاها في هذا الموقف المشهود؟ وما الشيء الذي أمره الله تعالى بتبليغه ، إذ قال عز من قائل : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾؟ وأي مهمة استوجبت من الله هذا التأكيد واقتضت الحض على تبليغها بما يشبه التهديد؟ وأي أمر يخشى النبي الفتنة بتبليغه ويحتاج إلى عصمة الله من أذى المنافقين ببيانه ..؟ ».

عندها شعرت أنه من المحال أن أقف أمام كل هذه الأدلة والبراهين خصوصاً أن طائفاً طاف في رأسي وأعلن لي لماذا كان الرسول وفي آخر أيام الرسالة يخاف على الدين بأشد وأكثر مما كان يخاف عليه في بداية أيام الدعوة من مشركي مكة وعبدة الأوثان؟ إلا أن يكون أولئك أنفسهم قد

أصبحوا أعداءً أشد شراسة من ذي قبل ، لأنهم قد غدوا منافقين ، يكتمون الباطل ، ويبطنون النفاق ، ولا يظهرون إلا وجوهاً مهللة بالفرح ،مستبشرة بما يقوله الرسول الذي ما كان إلا مطلعاً على السرائر. لأ نه كان يراهم على حقائقهم ، ويعلم ما في قلوبهم .. إلا أني سكت أنتظر فرصة أخرى أدير فيها طرف محراك النار إلى جهة أخرى، كيما أحرك جمرة أخرى فأثير نار العلم التي استهواني الاصطلاء بها .. أحدث نفسي : فإني ما شعرت بخبث أو حقد أو تعصب يعتريني .. مع ما تنتابني من ألوان كل هذه الخصال بشفافية ليس لها أن تقعد في قلبي ».

بينما كانت ماضية سراعاً في حديثها حتى جعلت تقول :

. « أكنت لو سألك أيما أحد عن هذا ، تجيبه بأن الله عز وجل ورسوله ﷺ ، إنما أراد بيان نصرة علي للمسلمين ، وصداقته لهم ، ليس إلا! وفي مثل ذلك الحر وتلك الرمضاء .والذي هو ما كان إلا سهلاً أريحياً ، لا يحب أن يكلف المسلمين ما هو فوق طاقتهم ، تخلق بأخلاق القرآن الذي ما نزلت آياته إلا تناسباً مع نفوس المسلمين كيما لا تنفر طباعهم منه .. فكيف به يحاول تنفيرهم من علي وهو يبغي اعزازه في قلوبهم أكثر وأكثر؟ بل ما كنت أراك ترتضي مثل هذا الجواب : إنه أراد بيان نصرة علي للمسلمين. ولا أخال أنك تتوهمني بأني أراك قد اقتنعت بأن مضمونه وبهذه الصورة وهذا الظرف هو بالذي يجوز على رب الأرباب ، أو على سيد الحكماء ، وخاتم الرسل والأنبياء ، بل لا يمكن أن يصدر منهم وعلى هذه الشاكلة ولهذه العلة ..أبداً . بل ما أراك إلا أجل من أن تجوز عليه أن يصرف همه كلها ، وعزائمه بأسرها إلى .. ».

قلت عندها :

. «حتماً إني لا أجوز مثل ذلك أبداً ».

قالت ، وهي تستدرك كلامها بدفق رضى ، ممزوج بشيء من الألم ، لربما استشعرته لاذعاً في بعض الأحيان :

. « .. إلى تبيين شيء بين ، لا يحتاج إلى بيان ، وتوضيح أمر واضح بحكم الوجدان والعيان. ولا شك أنك تنزه أفعاله وأقواله عن أن تزدري بها العقلاء ، أو ينتقدها الفلاسفة والحكماء ».

. « صحيح بالضبط ، ولكن! ».

. « .. بل لا ريب في أنكم تعرفون مكانة قوله وفعله من الحكمة والعصمة ، وقد قال الله تعالى : ﴿**إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون**﴾. فيهتم بتوضيح الواضحات ، وتبيين ما هو بحكم البديهيات ، ويقدم لتوضيح هذا الواضح مقدمات أجنبية ، لا ربط له بها ولا دخل لها فيه. تعالى الله عن ذلك ورسوله علواً كبيراً ».

. « أؤيد هذا الكلام! وأن هذا لا يناسب المقام الإلهي ولا المقام الرسالي ، ولكنه أمر مثير حقاً .. ».

ـ « إنك لتعلم أن الذي يناسب مقامه في ذلك الهجير ، ويليق بأفعاله وأقواله يوم الغدير ، إنما هو تبليغ عهده ، وتعيين القائم مقامه من بعده ، والقرائن اللفظية ، والادلة العقلية ، توجب القطع الثابت الجازم بأ نه ﷺ ،ما أراد يومئذ إلا تعيين علي ولياً لعهده ،وقائماً مقامه من بعده ، فالحديث مع ما قد حف به من القرائن نص جلي .. ».

أقسم بالله إني كنت أعتقد لحظتها بصدق هذه الكلمات ، ولكني لا أدري ما الذي حصل وأحالني إلى البحث عن حلول لمسائل أخرى تتعلق

بالموضوع من بعيد أو قريب .. بينما كان لها أن تسترسل في حبور وانطلاقة عزم ، لا تعرفان الانثناء والالتواء أبداً :

ـ .. في خلافة علي بن أبي طالب! لا يقبل التأويل. فليس إلى صرفه عن هذا المعنى من سبيل. وهذا واضح لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد ».

الفصل الثالث

نفسي وحصر الخلافة في أئمة العترة

أحسست بصعوبة ألمت في حلقومي ، استصعبت حتى ازدراد أنفاسي ،فضلاً عن ابتلاع رطوبة بلعومي حتى شعرت بأن جوف فيهي قد أصابه اليباس وجفت عصاراته من أيما لفظ ندى ، يمكن أن يصارع جدرانه ليمتزج فيها بعد ذلك ..

كنت منطرحاً فوق سريري ، فشعرت بضرورة النهوض ، رحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، خرجت إلى الفناء ، عدت بعدها إلى الغرفة ، لأ ني ما كنت قد وجدت ثمة ما يسليني ، فالفيت نفسي بعدها ، تجاذبني وما أراها إلا قد جعلت تناكدني ، بل تقود بي إلى فصول لا تختتم إلا بالنصر لها .. فقلت عندها ، وأنا أتساءل من جديد متابعاً حديثنا السابق :

. « ولربما جعلت القرينة على إرادته من الحدث ، أن بعض من كان مع علي في اليمن ، كان قد رأى منه شدة في ذات الله ، فتكلم فيه ونال منه. وبسبب من ذلك قام النبي ﷺ ، يوم الغدير بما قام فيه من الثناء على الإمام ، وأشاد بفضله تنبيهاً إلى جلالة قدره ، ورداً على من تحامل عليه ، ويرشد بذلك أنهأشاد في خطابه بعلي خاصة. فقال : من كنت وليه ، فعلي وليه ، وبأهل البيت عامة. فقال : إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي. فكان كالوصية لهم بحفظه في علي بخصوصه ، وفي أهل بيته عموماً ،

وإذن ، فلربما ما كان في الأمر شيئاً مما تفضلت به ، وليس فيها عهد بخلافة ، ولا دلالة على إمامة ».

قالت ، وهي لا تحاول أن تركم تعابيرها ، وكيفما يشاء للمرء أن يفعل :

. « أما القرينة التي زعمت فجزاف وهي بعيدة عن الواقع كل البعد! بل هي لباقة في التخليط والتهويل. لأن النبي ﷺ كان قد بعث علياً إلى اليمن مرتين. أما الأولى : فكانت سنة ثمان للهجرة ، وفيها أرجف المرجفون به ، وشكوه إلى النبي بعد رجوعهم إلى المدينة ، فأنكر عليهم ذلك حتى أبصروا الغضب في وجهه ، فلم يعودوا لمثلها. والثانية : كانت سنة عشر للهجرة ، وفيها عقد النبي له اللواء ، وعممه ﷺ بيده ، وقال له : امض ، ولا تلتفت! فمضى لوجهه راشداً مهدياً حتى أنفذ أمر النبي ، ووافاه ﷺ في حجة الوداع ، وقد أهل بما أهل به رسول الله ، فأشركه بهديه. وفي تلك المرة لم يرجف به مرجف ، ولا تحامل عليه مجحف ، فكيف يمكن أن يكون الحديث مسبباً عما قاله المعترضون؟ أو مسوقاً للرد على أحد كما تزعم ».

ـ «وهل التحامل على علي في السابق هو ليس خليق به أن يكون سبباً لثناء النبي عليه وهو يشعر بدنو الأجل وضرورة التوجه إلى رعاية أهل بيته لاسيما كبيرهم علي بن أبي طالب ، لأن بضعته الزهراء هي في بيته .. كحال المرء حينما يوصي بصهره رجأة أن يرفق الناس بأهله من قبل أن يرفقوا به؟ ».

فقالت :

ـ « إن مجرد التحامل على علي لا يمكن أن يكون سبباً لثناء النبي عليه ، وبالشكل الذي أشاد به ﷺ ، على منبر الحدائج يوم خم ، إلا أن يكون (والعياذ

بالله)مجازفاً في أقواله وأفعاله ، وهممه وعزائمه ، وحاشا قدسي حكمته البالغة ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ **إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون *ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون *تنزيل من رب العالمين ..** ﴾ ».

.؟! ».

. « .. ولو أراد مجرد بيان فضله ، والرد على المتحاملين عليه ، لقال : هذا ابن عمي ، وصهري ، وابو ولدي ، وسيد أهل بيتي .. فلا تؤذوني فيه ، أو نحو ذلك من الأقوال الدالة على مجرد الفضل وجلالة القدر. على أن لفظ الحديث ، ولاسيما بسبب ما أشرت إليه من القرائن العقلية والنقلية التي لا يتبادر إلى الأفهام منها ، إلا ما قلته. فليكن سببه مهما كان ،فإن الألفاظ إنما تحمل على ما يتبادر إلى الأفهام منها. ولا يلتفت إلى أسبابها كما لا يخفى ».

. « وما كان يمكن لذكر أهل بيته في حديث الغدير أن يعنيه؟ ».

. « أما ذلك ، فإنه على العكس مما يمكنك أن تتصوره ، لأ نه ما كان ليعد إلا من مؤيدات المعنى الذي قلته. حيث قرنهم بمحكم الكتاب ، وجعلهم قدوة لأولي الالباب. فقال : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي. وإنما فعل ذلك ، لتعلم الأمة أن لا مرجع بعد نبيها إلا إليهما ، ولا معول لها من بعده إلا عليهما. وحسبك في وجوب اتباع الأئمة من العترة الطاهرة اقترانهم بكتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ».

. « ... ».

. « فكما هو لا يجوز الرجوع إلى كتاب يخالف في حكمه أئمة العترة ،

وقوله ﷺ : إنهما لن ينقضيا أو لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، دليل على أن الأرض لن تخلو بعده من إمام منه هو عدل الكتاب ».

. « كيف؟ ».

تساءلت وكأ ني لم الحظ مثل هذا المعنى إلا اللحظة ، فقالت :

. « لأ نه من تدبر الحديث ، فما كان ليجده إلا أنه يرمي إلى حصر الخلافة في أئمة العترة الطاهرة ».

. « هات دلائلك؟!

. « ويؤيد ذلك : ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده [1] وذلك عن زيد بن ثابت ، قال : قال رسول الله ﷺ : إني تار ك فيكم خليفتين ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ».

. «؟!».

. « وهذا نص في خلافة أئمة العترة عليهم السلام ! ».

. « أئمة العترة عليهم السلام ».

شعرت بأن مثل ذلك كان تحدياً من نفسي التي تسكن خلجاتها في أعماقي ،وتعيش كلما وثبت في أرجائي جرعات من الحياة، كفيلة بأن تنتزعني من وهدة سنتي ، وترمي بي إلى حيث تتسابق تطلعات جديدة لها أن تكسب رونق المستقبل بكل بهي من الحدوث! بينما كان لها أن تسترسل في الكلام ، فتتحدث وهي تقول :

---

(١) المسند ٥ : ١٢٢.

. « وأنت تعلم أن النص على وجوب اتباع العترة ، نص على وجوب اتباع علي ، إذ هو سيد العترة لا يدافع ، وإمامها لا ينازع! ».

. « وإذن؟ ».

. « فحديث الغدير وأمثاله! يشتمل على النص على علي تارة ، من حيث أنه إمام العترة المنزلة من الله ورسوله منزلة الكتاب ، وأخرى من حيث شخصه العظيم ، وأ نه ولي كل من كان رسول الله وليه ».

. « فلو قصدت أن الولي والمولى في حديث الغدير إنما هو الأولى ، فما رأيك بما يقوله جماعة من العلماء كالإمام ابن حجر في صواعقه ، والحلبي في سيرته ، إذ قالوا : سلمنا إنه أولى بالإمامة ، فالمراد المآل ، وإلا كان هو الإمام مع وجود النبي ﷺ ، ولا تعرض فيه لوقت المآل ».

قالت :

. « ماذا تخال وبنظرك أنهم يقصدون من خلال ذلك الادعاء؟ ».

قلت :

. فكأن المراد حين يوجد عقد البيعة له ، فلا ينافي حينئذ تقديم الأئمة الثلاثة عليه ».

ـ « أنت طلبت مني أن أقنع بأن المراد من حديث الغدير يلخص في أن علياً أولى بالامامة حين يختاره المسلمون لها ، ويبايعونه بها. فتكون أولويته المنصوص عليها يوم الغدير مآلية لا حالية. وبعبارة أخرى تكون أولوية بالقوة لا بالفعل .. لئلا تنافي خلافة الأئمة الثلاثة الذين تقدموا عليه. فهل في وسعك أنت نفسك ، وبينك وما بين الله أن تقنع بهذا حتى احذو حذوك ،وانحو فيه نحوك؟ وهل ترضى أن يؤثر هذا المعنى عنك ، أو يعزى إليك لأقتص أثرك ، وأنسج فيه

على منوالك؟ فما أراك تقنع بهذا. بل ما أجدك لترضى به قط! ».

ـ « لم تتعجبين ممن يحتمل إرادة هذا المعنى الذي أرى أن بإمكان لفظ الحديث أن يدل عليه. بل يمكن أن يفهم منه ».

. «وهل كان الرسول محقاً في تأخير كل هذا الحجيج وايلامهم بحر الشمس ورمضاء الصحراء، كيما ينعشهم بمثل هذا الخبر وهذه التذكرة؟ وهل أن الحارث بن النعمان الفهري ما كان قد فهم من هذا الحديث سوى هذا المعنى .. وإن اشتبه عليه ، فهل كان يشتبه على رسول الله الذي أكد للحارث ما ذهب إليه ذهنه من اعتقاد وفهم؟ ».

. «؟!».

ـ « كما أن الأولوية المآلية لا يمكنها أن تجتمع مع عموم الحديث ، لأنها تستوجب أن لا يكون علي مولى الخلفاء الثلاثة ،ولا مولى واحد ممن مات من المسلمين على عهدهم كما لا يخفى. وهذا خلاف ما حكم به الرسول ، حيث قال : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : بلى ، فقال : من كنت مولاه (يعني من المؤمنين فرداً فرداً) فعلي مولاه من غير استثناء كما ترى. وقد قال أبو بكر وعمر لعلي حين سمعا رسول الله ﷺ ، يقول فيه يوم الغدير ما قال : أمسيت يابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة ، فشرحا بأ نه مولى كل مؤمن ومؤمنة على سبيل الاستغراق لجميع المؤمنين والمؤمنات منذ أمسى مساء الغدير ».

. « وما تقولين في قولهم أن أولوية علي بالإمامة ، لو لم تكن مآلية ، لكان هو الإمام مع وجود النبي؟ ».

. « ما أقول إلا أنها تمويه عجيب! بل تضليل غريب ، وتغافل عن عهود كل

من الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء إلى من بعدهم ، وتجاهل بما يدل عليه حديث : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، وتناس لقوله ﷺ في حديث الدار يوم الانذار : فاسمعوا له واطيعوا .. ونحو ذلك من السنن المتضافرة ».

الفصل الرابع

وللموضوع صلة

عـدت في المسـاء إلى غـرفتي ، اضـطجعت علـى السـرير ، نـازعتني أفكـار متعـددة ، شعرت بها متناقضة .. ولكن؟! لم سيطرت علي هذه المسائل حتى استحوذت على كل فكري ، وسلبتني لبي وجعلتني أسيراً لها ، لا أفكر في سواها ، طويت كشحاً عن التفكير في كل شيء سواها ، حتى عن التفكير في الأهل والذكريات ، والطموحات والآمال الجديدة ، وما يمكن أن يعتري كل شاب في مقتبل عمره ، يغزو بروحه فضاء معمورة أخرى ، لم يكن قد نشأ بين أحضانها وترعرع في كنف أهلها حتى سكن بين ظهرانيهم ، بل لم يكن قد ولد في ربوعها. نسيت كل شيء ، كنت أسلط شعاع نظر الفكر على دائرة واحدة ، يحدوني الأمل أن أبلغ ومن خلالها إلى ما يمكنه أن يريحني ويوقظني من تعاستي التي شعرت كأن حالي قد غدا كذلك .. لأ ني بت أسائل القلب : ترى لو تبين لي عكس ما أرى ، فما سيكون حكم كل هذه السنين التي مضت؟ وكيف لي أن أعتد بشهادة التخرج التي حصلت عليها من كلية الآداب في الجامعة .. وهل لي بعد ذلك أن أتنافس في التفاخر على أقراني .. أنا الذي كنت وما زلت أبز العالمين بزاً بنهضاتي وسبحات أوطار عقلي التي لا تعرف لنفسها أيما ظل من حدود .. ذلك لأ ني طيلة هذه الأيام المنصرمة ، وطوال كل هذه السنين المنتفية ما كنت إلا غرضاً لمقامع إبليس .. إذ ما كان بي ولو للحظة واحدة أن

أفكر : ترى ما هو الفرق الحقيقي بيننا وبين الشيعة ، ولم كل هذا الاختلاف؟ ولم كل هذه النعرات الطائفية؟! وهذا ما كان خليقاً به أن يدفعني إلى بحث هذا الموضوع ولو بأبسط وجوهه وأقربها إلى العقل ، ومن دون إثارة أيما نضال في السعي لإثارة نار موقد النعرات والفتنة الطائفية .. بعيداً عن كل ما له أن يتصل بها لأ ني كنت أشعر بأ ني أستحق أن أدخل غمار أية مناقشة فكرية وعقلية ، طالما استقر في رأسي شيء اسمه عقل يمكن أن أعتد به ما حييت! لأ ني شعرت بأ نه لو لم أخرج بأيما نتيجة ، سأصادر على نفي حصائل كل تلك السنين الماضية .. حتى على مغامراتي في أيام المدرسة ، وذكرياتي المشبعة بأريج الصبا والشباب وكل صداقاتي المنعكسة في مرآة قلبي .. كما للحظات الطفولة الباسمة أن تنعكس بملء الصفاء والمودة.

سعيت من جديد كيما أفتح طريقاً إلى نقاش يحمل بهاء جديداً ، طرقت باب نفسي ، فسنحت مني فرصة ، اختلست فيها النظر إليها وهي تغذ السير في سبيل انعاشي بكل ما آتاها الله به من قوة حتى علمت أن الله كان في عوني ، لأ نه قلما يوجد أناس ، تحركهم ضمائرهم سعياً وراء الحقيقة ، أو تهزهم معابد الوجدان صعداً نحو مفازات لا تسكن إلا قنن الجبال العالية والمرتفعات الشاهقة. ومن بعد أن أجازت لي ، عادت إلى متابعتي بعينيها وهي التي ما عهدتها إلا ملأى ببديع صور الحنان الذي لا يجود به أيما طرف إنساني آخر .. فقالت لي :

. « أراك عدت أيها المغامر؟ ».

. « بل، كنت أنتظر سباقاً آخر ، وجولة جديدة! ».

فقالت لي :

. « لم ننته من الموضوع!

. « وهل له صلة؟

. « أجل ، فقبل كل شيء ، يجب أن نلاحظ أن المقطع الشريف من الآية : ﴿**اليوم يئس الذين كفروا ...** ﴾.

. « تمهلي! أية آية هذه التي تتحدثين عنها ، إنها ليست موضوعنا ».

. « ألم أقل لك ومن قبل إنك بعيد كل البعد عن هذه المسائل ، إن هذا المقطع هو الأول في آية الإكمال التي تستهل كلماتها به ».

. « أووه .. كيف هذا؟ ».

. « استمع إلى الآية كاملة : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾.

. « وعليه ، فما الذي تريدين قوله؟ ».

. « إنما أردت القول وقبل كل شيء يجب أن نلاحظ أن المقطع : ﴿**اليوم يئس الذين كفروا ...** ﴾كان يتعرض لموضوع مستقل عن مطلع الآية وعن ذيله أيضاً ، وذلك سواء قلنا إن هذا المقطع نزل في هذا الموضع من أول الأمر ، أو قلنا إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمر بوضعه في هذا الموضع رغم اختلاف نزوله عن الصدر والذيل ، أو قلت إنه موضوع بهذا الموضع عند الجمع القرآني ».

. «؟!».

. « وإذا كان هذا المقطع : ﴿ **اليوم يئس ..** ﴾مستقلاً عن مطلع الآية وختامها ، إلا إنه مرتبط تمام الارتباط بقوله تعالى : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم ..** ﴾ بحسب المضمون والإخبار ».

. « كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك ، والمقطع ما يعلن إلا عن حقيقة كبيرة وبشارة عظمى للمسلمين بأ نه قد يئس أعداؤهم من أن يمحوا دينهم. فلا خشية منهم على شيء ».

ـ « وهنا موضع الشاهد ، إذ إن الله كان قد أكمل دينه وأتم نعمته ورضي الإسلام ديناً للأمة .. وبذلك .. ».

. « دخل اليأس قلوب الكافرين مرحلته العظمى! ».

. «تماماً ».

. « يمكنك أن تخبريني متى كان هذا اليوم الذي يئس فيه الكفار من الكيد على دين الإسلام؟ ».

. « قد احتملت في هذا اليوم عدة محتملات ، فمنها ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره منأنه كلام جار على عادة أهل اللسان ، ومعناه أن لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار. وذلك كما يقال مثلاً :كنت شاباً بالإمس وعدت اليوم شيخاً . فالمقطع القرآني كذلك هو الآخر يتحدث عن حقيقة كانت قائمة آنذاك. حيث انتشرت ألوية الإسلام ، وعلت قوته ، وزال خوف المسلمين من الكفار بعد أن هزموا وغلبوا ، فيئسوا من الغلبة والانتصار على المسلمين ، فقال تعالى : ﴿ **اليوم يئس ..** ﴾.

. «إني أراه قابلاً للهضم ».

. « ان الأمر ليس كما ترى ، فهذا المحتمل مردود ، لأمور ، منها : أن هذا

الاستعمال وإن كان عرفياً لكنه استعمال مجازي لا حقيقي ، وإذا أمكن الاستعمال الحقيقي كان احتماله مقدماً على احتمال الاستعمال المجازي. والآخر : إنه لو صح هذا التفسير للمقطع الشريف ، لكان نزوله يوم فتح مكة أجدر من نزوله في غيره. أما الثالث : فإنه إن كان المراد من كمال الدين هو الإكمال التشريعي ، فإنه لا بد من إثبات عدم نزول حكم بعد نزول الآية ، مع أنه قد وردت روايات كثيرة تدل على نزول أحكام بعد ذلك اليوم كآية الكلالة ، وآية الربا ونحوهما .. فالإكمال التشريعي أمر تأباه الروايات الكثيرة من قبل الفريقين ».

. « وما قال به القفال واختاره الرازي من أن معنى الإكمال هو أن الشرائع النازلة من عند الله هي في كل وقت كافية ، وذلك فيما يتعلق بذلك الوقت الذي تختص به. ولكن الشريعة الإسلامية في آخر زمان البعثة صارت كاملة إلى يوم القيامة. فماذا يمكنك أن تقولين بصدده؟ ».

. « ما أقول إلا أن هذا الرأي هو مما لا محصل له ، ولا يؤبه له. اسمع أما الأمر الرابع الذي يرد احتمال الرازي ، فهو ما كان إلا أن هذا المحتمل لا ينسجم مع أي ترابط بين قوله تعالى : اليوم يئس .. وقوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت ..** ﴾ مع أنهما منسجمان كمال الانسجام.

وعندها قلت :

. «عليه فإن احتمال الرازي غدا باطلاً مردوداً .. فهل ثمة احتمالات أخرى ».

قالت :

. « أجل ، فثمة احتمال ثان : وهو ما قالت به الشيعة ».

. « الشيعة؟ ».

ـ « أجل ، فإن المنطق يملي علينا الانصياع إلى مقالة ربما ارتضاها العقل والنقل ، وخلدت اليها الروح! وهو أن المراد بهذا اليوم هو يوم غدير خم. أي الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة من الهجرة ، وأن هذا المقطع القرآني قد نزل في أمر ولاية علي بن أبي طالب ».

ـ « كيف يمكن أن يكون هذا؟نأ كنا نناقش مقطعاً واحداً ، فتبين لنا أن المقطع السابق له هو الآخر كان قد نزل بشأن علي ».

ـ « بالضبط! وخلاصة هذا الرأي ، أن الكفار ومن بعد أن رأوا حقيقة الانتصار الإسلامي ، واذعنوا لسيطرة الإسلام وتوسعه ، لم يبق لديهم أمل في إيقاف الزحف الإسلامي إلى معاقلهم ، وتفتت القوى الإسلامية النامية ، إلا أن يتربصوا بالنبي ﷺ ريب المنون ، حيث تموت الحركة بموت قائدها وباعثها .. و ذلك بعد أن صورت لهم أوهامهم أن قيادة الرسول للحركة الإسلامية الكبرى هي ما كانت إلا شبيهة بالقيادات الدنيوية المادية الأخرى التي ذهب اتباعها بعد أن مات القائد. وهو ما ينطبق عليه التعبير القرآني : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ،لأن شانئ النبي إنسان لا يحمل هدفاً أو رسالة ».

. « أتريدين القول بأن أعداء الإسلام ، هكذا كانوا قد تصوروا واقع الإسلام .. ».

ـ « .. ولكنهم فوجئوا بالقيادة الإسلامية الأولى تعلن عن القيادة الإسلامية التي ستخلفها في حفظ الدين والقيام على التجربة الإسلامية ، وتوسيع مجالها ، وتعميق الجانب التربوي في حملتها .. ».

. « وإذا بالقيادة النبوية التي ظنوها ستنتهى تعلن عن الإمامة التي هي

الامتداد الطبيعي لها حتى صارت تلقي الكفار في وهدة اليأس من الظفر والعمل على تحطيم الدين ، وذلك حين رأت القيادة الشخصية تسلم الأمر إلى القيادة النوعية المتمثلة في الأئمة المعصومين؟ ».

. « بالضبط! ».

بينما تابعت كلامها وهي تقول :

. «ولا ريب في أن هذه العملية التاريخية تستحق أن تكون إكمالاً للدين بالضرورة ، وذلك بعد أن انتقلت بالإسلام من حالة الحدوث إلى حالة الاستمرار والبقاء ، ليقوم بدوره التاريخي العظيم في مجال ايصال البشرية إلى كمالها المنشود ».

ـ « إنك ترمين إلى قول مفاده : إن قضية الإمامة والولاية هي الضمان الأول لاستمرار التجربة الإسلامية الكبرى ، وبتعيين الإمام تكمل الأطروحة الإسلامية للحياة الإنسانية ،وبه تتم النعمة ويرضى الله الإسلام ديناً خالداً للبشرية ».

. « وبالتمام والكمال ، فإن محصل معنى الإية هو التأكيد على يأس الكفار من الدين في يوم الغدير ، حيث أكمل الله للأمة دينها بفرض الولاية والإمامة ، وأتم عليها بذلك النعمة ،ورضي لها الإسلام ديناً . ومثل هذا التفسير لا يمكن أن يشكل عليه بأي إشكال ».

. « لكن هذا الرأي لا يؤيده أهل السنة ».

. « اذن ، لا بد من الرجوع إلى الآيات والروايات لإثباته ، ونفي أي تفسير غيره. إن ما يهمنا هو روايات أهل السنة ، فإن هناك من السنة من يقول بأن المراد بهذا اليوم هو يوم عرفة من ذي الحجة من تلك السنة ،مستدلاً بروايات تنتهي

إلى علي ومعاوية وسمرة وعمر ».

. « وعليه ، فإن الرأي مدحوض ».

ـ «لا تستعجل. فإن من الغريب جداً أن نجد البعض من أهل السنة يعرضون عن روايات مستفيضة لديهم ، تصرح بأن الآية نزلت يوم غدير خم في إمامة علي بن أبي طالب. بينما تراهم لا يتعرضون لها ، وكأ نها ليست بمستفيضة لديهم. وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على عدم موضوعية ، وتحيز سافر وعناد ليس تحته أي طائل ».

. « فهل ثمة من ينقل ..أو هات بعضاً مما لديك من هذه الأخبار التي عبرت عنها بالمستفيضة؟ ».

ـ « نعم ، نقل صاحب الدر المنثور ، وصاحب روح البيان ، روايتين من الروايات الدالة على أن الآية نازلة في الغدير ، ولكنهما وصفا الروايتين اللتين تنتهيان (وانظر إلى السند) إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، بالضعف السندي. فأي عجيبة هذه! ».

. « وحقيقة الأمر؟ ».

. « حقيقة الأمر أننا لو تدبرنا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ ، والروايات الواردة في سبب نزوله ، وتأملنا قوله تعالى : ﴿**اليوم يئس الذين كفروا** ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾. والروايات الواردة في سبب نزوله أيضاً ، والتعارض الذي يتراءى فيها ، ولاحظنا الروايات الواردة في قضية غدير خم الكبرى ، وركزنا على الأوضاع الداخلية للمجتمع الإسلامي آنذاك ، أي في أواخر عهد الرسول ﷺ ودور الكفار ومؤامراتهم وحقدهم الذي تعبر عنه الآية القرآنية في سورة الأنفال ، على

لسانهم : ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ ».

. «؟!».

. « حيث نجدهم يطلبون العذاب على فرض كون النبي على حق ، وهو منتهى العناد ،وعظيم الوقاحة والتحدي للرسول نفسه ومن ثم لوم الله ذاته على إنزال مثل ذلك فيما لو كان هو الفاعل (وحسب ما يتصورون)وما كان كل هذا التحدي إلا مصداقاً لعدم التصديق بالرسول نفسه ،وتكذيباً له ، لأ نه فيه اقرار بضرورة الرجوع إلى الأصل وهو الله وسؤاله عن حقيقة ما يقوله الرسول! لأ نهم ما كانوا يرغبون بأن يمطر الله عليهم حجارة من السماء وذلك على وجه الحقيقة والتأكيد ، إلا أن مثل ذلك ما كان ليمثل إلا لوناً من ألوان التمرد الصريح والتمهيد لعملية انقلابية خفية! ».

. « كأنها آية سأل سائل! ».

. « لا ، ولكن هو منتهى الطغيان والتكبر الذي تعبر عنه آية أخرى ، هي هذه الآية نفسها : ﴿**سأل سائلٌ بعذاب واقع** ﴾ ، الواردة في سورة المعارج : ١. وذلك على ضوء الروايات الواردة في سبب نزولها .. إذا لاحظنا كل هذا قطعنا وعلمنا بأن أمر الولاية كان نازلا قبل يوم الغدير ،ويكون هذا شاهداً موثقاً لهذا الجمع ».

الفصل الخامس

وجاء اليوم الذي تعرفت فيه إلى طلال عبد الواحد

إني لا أبحث عن مجد ، ولا كنت أفكر في اعتناقي لمذهب الشيعة ، غرضاً مني للمباهاة والافتخار ، وذلك لأني أرغب مثلاً أن أثبت لأسرتي وأهلي وأهل نحلتي ، إني قد شببت عن الطوق ، واستطعت أن أقرر وأصمم من دون الرجوع إليهم .. كذلك ما كنت قد قررت ومن دون اللبث والتفكير بعدم اتخاذ مثله حتى أرجع وأشاورهم في الأمر ، وأنظر ماذا يرون؟ وإذا امتنعت علي المقادير دون أن أراهم وأساجلهم الحديث ، وأطارحهم بألوان المقال ، كان ليعزم من هو مثلي على ترك الموضوع والوقوف على الأعراف ، ريثما يلتقي بأحد أهليه ، واحد علماء دينه ، كيما يسعفه وينجده ، من بعد أن يدله ويرشده أي الطريقين أصح ، وأي منهما يمكن له أن يسلك!

لقد ناطحتني هذه السنين ، ولعلها أرتني ما لم أره طيلة أيام حياتي. لقد شعرت أني أسير في الطريق الصحيح .. إلا أن علي أن أواصل المسير كيما يطمئن قلبي .. أشعر بأن للشيعة دور مهم في تصفية مقالة أيامي وكبح جماح تهوراتي العقائدية الماضية .. ولكن كيف؟ ولم؟ ولماذا؟ وهل أهلي وأقربائي وعلماؤنا كلهم كانوا عن اللغو غير معرضين .. والآن غدوت أنا الآن عنه معرضاً .. لأني صرت أفحص وأمحص الأشياء ، وأحاول تسلق جدران العلوم الحقيقية بعين مدركة ونفس راضية .. إلا أني بدأت أشعر بتعب مبرح ، وألم

محرق ، إني أشعر بالوحدة ، إنها مرض لا يطاق ، إنها حالة يرثي لها صاحبها .. ولكني سعيت إلى الاستعانة بالله كيما يساعدني على تحملها ، والخروج من هذه المحنة بأفضل نتيجة ، يمكن أن يبشر الله بها الصالحين من عباده في الدنيا والآخرة ..

كنت أفكر أنها لماذا عندما نختار شريكات أعمارنا ، ونقرر أمر زيجاتنا ، فإنا لا ندع لأحد أيما فرصة كيما يغمرنا بفيض آرائه ، ويقتحم علينا خلواتنا ، نحسب أنه يضايقنا بنظراته ، حتى إنا سنباغته ونعاجله في حينها ، ونخبره بأ نا قد غدونا أحراراً ، ولسنا نذعن لأيما مراد أسري أو غاية عائلية. وأن ما نقرره في أمر الزواج هو أمر يتعلق بنا وحدنا ، لأ نا لا نرتضي أن نخضع إلى اختيارات الآراء في ابنة العم وابنة الخال وغيرها ، ونتزوج من هذه دون تلك وأن أنصرف عن هذه المرأة ، وأبتعد عن تلك الزيجة ، وعليك بفلانة ، وانكح ابنة فلان ، وتزوج من تلك! ولئن لم تقلع لمرجمنك واهجرنا ملياً .. فما كان إبراهيم ينتظر رأي أبيه العرفي آزر الذي كان يمثل عمه نسبياً ، حتى يقرر الإذعان لمن خلقه وخلق أباه كذلك والخلق أجمعين من قبل. ولا كان للسحرة كذلك أن يستأذنوا فرعون في الإعلان عن إيمانهم لموسى ، لأن كلمة الحق أمر ناصل ، ليس من ثبات عندها إلا لكوكبة شعاعاتها وخضراء أفلاكها القويمة .. ولا ينتظر بعدها من أيما امرئ أن يتعرض إلى هجمات الأعداء وسطو الغازين وضرب المعتدين الذين يحملون عليه في حريم ضياعه ، يباغتونه في عقر داره ، يريدون قتله ، وانتهاك حرماته ، وسلبه كل ما يملك حتى نفسه و نفوس من هم تحته إلا أن يهب مذعناً لنداء الجهاد ، ملبياً عنوان الإرادة الحقة التي تسحق كل جبن أبكم وتخرس كل ضعف ووهن في نفسه ، حتى يهب صارخاً

بوجوههم دون الانتظار لأمر الجهاد أو فتوى الدفاع ، لأن الظلم قد وقع عليه ، والاجحاف قد تمكن منه. ولقد ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهلقدير** ﴾ .. لأ نهم شهدوا على واقع الحال أكثر من غيرهم ، وقاسوا من ضروب المحن أكثر من غيرهم ، عرفوا منهج الحق أكثر من غيرهم ..أو وقعوا تحت ضغط وقائع غالباً ما كان لها أن تبعث بأحدهم إلى التفكير بضرورة اللجوء دوماً إلى الحق ، وإلا ما كان لهم أن يصيروا من ضمن أولئك الذين كانوا في البحر حتى إذا ما دعوا الله مخلصين ، فأنجاهم إلى البر ، إذا هم معرضون من جديد .. فكانت مثل هذه الشهادة خليق بها أن توقع في قلبي آيات الخوف والهول حتى جاء اليوم الذي كنت قد تعرفت فيه إلى طلال عبد الواحد. كان هذا الأخير شاباً متفتحاً ، ذا هيبة ووقار ، يملؤه الاعتزاز بما يعتقد ، بل إن من مثله كان ليكون أقرب إلى الآخرين من نفسه ، لأني شعرت به كان يحاول أن يقرب مثل هذه المسائل إلى أذهان العموم .. وليس هو من أولئك المتحجرين الذين لهم أن يملوا أفكارهم على الآخرين عنوة ، ويغرونهم بكل وسيلة واخرى ، كيما يتلقوها عن إذن وهم صاغرون .. وبالرغم من كل تطلعاتهم الخاصة ونواياهم الشخصية ..

جلسنا إلى المائدة سوياً .. تناولنا طعام الغداء ، تكلمنا حول أشياء مختلفة ، شغلتنا أمور عديدة ، كان منها ملذاً للسامع وكان غيرها مثيراً للضجر .. هكذا أحسست ، وإذا بي أنا نفسي أقود به إلى ما كان يريد أن يستمعه مني. ففجأته وراح يتفرس في تقاسيم وجهي ، وكأ نه يحاول أن يكتشف أيما رجل أنا؟ أنا الذي أحاول تلقاء نفسي أن أبحر في مثل هذا البحر ، بينما كان غيري ربما فر من المجازفة أو المغامرة في الخوض عبر عباب مثل تلك

الأمواج المتلاطمة .. ولما آنس في نفسي كل طلاقة وشغف .. اتسق له المقام ، وسهل عليه المقال ، نظر إلي بإمعان. كان ناظراه جعلا يطوفان في ماضي وجودي كله ، إذ لم يتوقع مني كل هذا الاصرار ، حتى ظننت أني أطوف في مروج كل أيامي .. لأ ني أحسست أن مثل هذا الشخص يمتلك من العزم ما يرسخ في جبين الذاكرة .. لا لأ نه كان قد استبصر في السابق ، بل لأن خلقه كان له أن يذكرني بما يطالبه أئمة الشيعة من مواليهم أنفسهم أن يكونوا عليه ويتخصلون به من خلق ولياقة ..حتى يكونوا زيناً لهم ، ولا يصيرون بعد ذلك شيناً عليهم ، ليتمكن الرائي أو أيما جليس يقاسمهم ساعات النهار أو الليل ، أن يقول في نفسه رحم الله جعفر الصادق ، إنه قد هذب شيعته فأحسن تهذيبهم. ومن بعد مناقشات عدة وفدت إلى واحة أخرى من هذه المباحثات حتى طفق يبتدرني بالسؤال :

ـ « هل يمكنك أن تخبرني عن لأمة التي جعلها الله وسطاً ، من يا ترى تكون هي؟ ».

تمهلت قليلاً قبل الإجابة ، حاولت الاحتراس أكثر من توطين النفس على العجلة دون التريث لغاية تحمد عقباها ، هجست أني قبالة سؤال لا يحتمل كل هذا الاجفال بل هذا الترديد ، فسارعت إلى التعبير :

. « وما يمكن أن نكسب من هذه المعادلة؟ ».

. « ما يمكننا أن نكسبه من القرآن نفسه! ».

سارعت إلى مساءلته وأنا أحاول استفزازه أكثر من أيما لحظة سبقت :

. « إلى مثل هذا الحد يمكنك أن تجازف في القول! ».

سألني كأنه يحاول انتهاز الفرصة تلو الأخرى ، كيما يسلقني بلسان ذرب ،

تفنن في التقاط عجزه وشطره ، كيما يوجه دفة مركبه نحو جهة لم يسبق أن أعلن عنها حتى حين استدارتها أو أنه صار يحرك بمقبض عجلته الدوار ، لينقل عربته إلى أيما نقطة يحب أن ينقل إليها ناظري قعيده الذي غامر باجلاسه إلى جانبه ..ومن دون أن يدري هذا الجليس كيف فعل كل ما فعل، لأ نه كلما أراد منه شيئاً انتزع منه رؤوس حلول مغرم كان هو بسماعها حتى إذا ما تناولها عاجله بالانتقال إلى واحة أخرى لا تتيح للجانب الآخر أن يستمع إلى جواب سؤاله التقليدي :

. « هل يمكن لك أن تتلو علي آية الشهادة؟ ».

استغربت هذا السؤال ، وعجبت من مفاده بل من منطوقه .. فأية شهادة هذه التي يزعمها ، وأية آية هذه التي يروم البحث في موادها .. إنه يغريني بالعبث بكل أرصدة ذاكرتي العلمية .. بل يتحرى كل قواعد اللعبة. سألته أنا الآخر ، انشأت أحب أن أواجهه بنفس أسلوبه .. فإذا ما سألني عمدت أنا الآخر إلى توجيهه نحو المعلم الذي ما أريد لعدسات أحداقه أن تبارحه حتى أجيز لها مثل ذلك ، قلت له :

. « لم أسمع بهذا التبويب والتسميات من قبل؟ ».

قال وإثر ابتسام في محياه ، لم يكن ليختمر بعد في صدره :

ـ « أعود أسائلك أنا الآخر : ما كنت قد سألتك عنه قبل لحظات ، فهلا عرفتني بهوية الأمة التي يمكن أن نطلق عليها أمة وسطاً ».

قلت في نفسي :

ـ « إما أن تكون الأمة الإسلامية أو تكون غيرها .. ولكن يبدو أنه يراوغ في سؤاله ..بل إن مثل هذا الجواب ليثير أفكاره حتى يعتقدني أبلهاً ليس

يدري سوى أن يجيب بكل الأجوبة على سؤال واحد لا يتطلب سوى جواب واحد. فقلت له :

. « لا أدري! ».

. «جميل جداً . والآن هل يمكنك أن تتلو علي آية الشهادة؟ ».

. « عدنا من جديد! ».

. « اذن دعني أتلوها عليك أنا : ﴿ **وكذلك جعلناكمأمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكمشهيداً** .. ﴾ ».

قاطعته وأنا كالمستغرب :

. « قد سمعت هذه الآية إلا أني لم أسمع باسمها .. ».

. « حالك كحال من رأى الشخص الفلاني ولم يسمع باسمه ، فلما يحدثه أحدهم ، ألم تر فلاناً ، يقول : لا أعرفه. غير أنه ما كان ليعرفه إلا بسيماه وما عرفه باسمه ».

. «كذلك فإن الأمة الوسط لم تخطر ببالي أبداً كذلك .. مع أني قد قرأت الآية عدة مرات ».

. « وهذا هو حالنا مع المذهب .. والاعتقاد ».

. « ماذا تعني ..؟! ».

. « إننا عندما نتعرف على الحقيقة ، نحدث أنفسنا بأ نه وكأ نا كنا على معرفة بها في السابق ، إلا أن للذاكرة ساعات وهن ، وللابصار اكتحال فرص في غير أوانها ».

. «؟!».

. « فإنك حينما ستتعرف على المذهب الشيعي أكثر فأكثر ، ستقول : هذا ما

أطالب القوم بالإيمان به ، أني من حيث أشعر ولا أشعر ، كنت أهيب بكل من حولي أن يحمل ما يحمله الشيعي .. وما كنت أظنه يحمل مثل ذلك ».

. « كشخص لم تتعامل معه من قبل ، إلا نلك دائماً تصادفه في الطريق ، ومن دون أن يحصل أيما تماس لغوي بينكما .. إلا نلك كنت تحمل عنه صورة وانعكاساً قبيحاً حتى إذا ما تعرفت إليه وجدته على عكس ما تخيلته وبالضبط. وبالطبع ، لا تنسى .. فإن لمثل هذا أن يكون بمعزل عن القاعدة التي يمكن أن يلوح مفادها كذلك : فما تآلف من القلوب في عالم الخلق الأول تآلف في عالم الخليقة ، وما تنافر منها ثمة تنافر كذلك في الدنيا ».

بينما شرع يتابع الحديث ، وبمطلق إرادته ، وكأ نه قد أصر على أن يربح جولة يسائله الله عن نتائجها فيما بعد :

ـ « لقد قيل : إن ظاهر المراد من قوله : ﴿ **وكذلك** .. ﴾. (أقصد : الواردة في آية الشهادة) أنه تحويل القبلة لغاية الهداية إلى صراط مستقيم ..فجعلناكم أمة وسطاً ، لتحقق الشهادة. لكن لا يبعد أن تكون الواو هنا للاستئناف ، وأن تكون ﴿**كذلك** ﴾ : كلمة يراد بها تثبيت الخبر على عكس ما تفيده لفظة : كلا ».

. « لا بد أنك قد درست علوم اللغة ».

ـ « ليس بالضرورة أن أشغل عمري بها ، إلا أني أعتبرها ضرورة لازمة بالفعل ، حتى إنه وحين يئين لك أن تطالع أبحاثاً في كتب المفسرين التي لا تقوم أول ما تقوم إلا على فهم اللغة فهماً دقيقاً ، والإمعان في ألفاظها حتى يتحقق غرضهم في إنشاء تفاسيرهم الصحيحة ، ولا يختلط عليهم ميدان العمل بمفردات الآيات » ..

. « والوسط ماذا تعني؟ ».

ـ « الوسط : ما له الطرفات أو الأطراف ، ويستعمل بمعنى العدل ، لأن الوسط هو أعدل ما يكون من الشيء وأبعده من الانحراف. وبعبارة أخرى : لأن العدل متوسط بين التفريط والافراط. ويقرب منه استعماله في معنى الخيار. وكيف كان فهو صفة للشيء بالقياس إلى الغير ».

. « والشهادة؟ ».

ـ « الشهادة والشهود : الحضور مع المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة. يقال : شهد المجلس : حضره واطلع عليه. والمستفاد من موارد استعمال هذه المادة اشرأب معنى التطلع والاشراف فيها في كثير من الموارد. فيفيد معنى الرقابة والنظارة ، فيستعمل مع لفظة (على) الاستعلائية. ومنه ما تكرر في القرآن الكريم من اطلاق الشهيد على الله تعالى ، مثل قوله سبحانه في سورة البروج الآية ٩ : ﴿**والله على كل شيء شهيدٌ** ﴾ ».

. « والأهم من كل هذا ، هو : الأمة الوسط؟ ».

. « وغير خفي على الناظر في الآية ، إن وصف الأمة بالوسطية تكريم لها ، وتعظيم لشأنها ، ومنة من الله سبحانه عليها ، وأن غاية هذا الجعل كونهم شهداء على الناس ، وكون الرسول عليهم شهيداً ».

. « هل تعني أن الشهادة المذكورة هي ما كانت إلا علة غائية للجعل المذكور ، متفرع عليه نحو تفرع الغاية على ذيلها ».

فقال لي وهو ينظر بحبور وابتسام :

ـ «هذا كله مما لا ريب فيه ، وإنما الكلام هو في ما هو المراد من كونهم وسطاً وفي ارتباط الشهادة به. فقد قيل : إن المراد هو كون هذه الأمة على النهج الأوسط المعتدل ، فلا إفراط ولا تفريط ».

. «وهل يمكن أن يرجع إلى هذا القول ما قيل من أن الله سبحانه أقام في دينه توازناً بين متطلبات الروح ومتطلبات البدن تحقيقاً للواقعية الكاملة ».

. « بالضبط! ولذا ، فإن هذه الأمة تشكل النموذج الكامل الذي يشهد على الماديين المفرطين بأ نهم عطلوا الجانب المعنوي الراقي في الوجود الإنساني ، وأخلدوا إلى البهيمية ».

ـ « كما يشهد على أولئك الذين أغرقوا في الجانب الروحي ، فخرجوا عن صراط الاعتدال وراحوا إلى الرهبنة المقيتة ».

. «وعليه ، فتكون هذه الأمة مثلاً أعلى للناس ، كما أن الرسول الأعظم ﷺ هو المثال الأكمل لهذه الأمة.

. « ولي أن أرى أنه ليقرب من هذا الرأي ، ما تفيده آية أخرى ».

. « أجل ، فإنه قد قيل بأن هذه الآية تؤدي ما بينته الآية الكريمة الأخرى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [1] .. فهذه الأمة المسلمة هي أسمى أمة وأكملها ، وهي واسطة العقد بين الأمم ».

. « وهل ثمة آراء أخرى حول هذا المطلب؟ ».

ـ «لقد قيل بأن المراد هو جعل هذه الأمة حجة ومناراً للخلق ، فهي تبلغ أحكام الإسلام ، وتعلم الناس سبيل الكمال. كما أن الرسول ﷺ حجة عليها ، إذ تؤخذ معالم الدين منه ﷺ ، بينما يأخذ الناس منها هذه المعالم السامية ، فتكون حجة عليهم حتى تصير وسطاً بينهم وبينه ﷺ، كما أنه وسط بين الأمة وبين الله تعالى ».

---

(١) آل عمران : ١١٠.

. «؟!».

ـ « وقيل : إن هؤلاء المخاطبين جعلوا في منزلة الوسط والاعتدال تكويناً ، ليقوموا بمهمة الإشراف على الناس ، ومراقبة أعمالهم وأقوالهم ، بل والإشراف على مبادئ نياتهم. وبذلك يتحملون الشهادة ليؤدوها يوم القيامة ».

فتابعت حديثه ، وكان يهتم بما أقول ، وكأ نه يشعر كيف أني قد صرت أجاذبه الحديث في آية كنت أجهل اسمها :

ـ « إلا إني أرى أنه ومهما كان مبلغ ما قيل ، أو يقال من الصحة ، فإنه من غير المشكوك فيه أن وصف : الوسطية السامي ، إنما هو للخواص من الأمة ، دون من ينتحل الإسلام ،ولا يفهم منه إلا لماماً . أو هو أشقى من غير المسلمين ، بل قد يكون أشقى الآخرين كما جاء في بعض الروايات ».

. « صحيح ، فإذا وصفت الأمة بأ نها : الأمة الوسط ، فإن ذلك على أساس وجود من يتصف بهذا الوصف العالي فيها ،وذلك على حد قوله سبحانه وتعالى موجهاً الخطاب إلى بني اسرائيل : ﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ [1]. وقوله تعالى : ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ [2]. رغم أن الملك كان واحداً في كل عصر ، وأن الأفضلية على العالمين كانت لخصوص فئة متفردة منهم ».

عندها استدركت كلامه ، وأنا أقول :

ـ « ومثله قوله تعالى : ﴿**محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ [3] .. بالرغم أن فيهم المنافقين والفاسقين ».

---

(١) سورة المائدة : ٢٠.

(٢) البقرة : ٢٧.

(٣) الفتح : ٢٩.

. « على أن آية الشهادة هذه ، وبعد التأمل فيها وفي ما يناسبها من الآيات ، تؤكد على حقيقة قرآنية ، يتكرر التعبير عنها في القرآن. وهي موقف الشهادة يوم القيامة ، وتنوع الشهود فيه على أعمال العباد. فهناك الأعضاء والجوارح ، والملائكة المكرمون ، والأولياء المقربون من النوع الإنساني كالأنبياء والصالحين. فيقول تعالى في الزمر : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق** ﴾ [1]. بينما يقول في النحل : ﴿**ويوم نبعث في كل امة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئا بك شهيداً على هؤلاء** ﴾ [2] ».

في حين رحت استدرك كما فعلت في السابقة ، بعدما اسعفتني بديهتي العلمية وذاكرتي القرآنية :

. « كما في النساء كذلك ، إذ يقول : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً * فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ ».

ـ « إذن فكل هذه الآيات تتحدث عن ذلك الموقف بصراحة ، ولا سيما الآيتين اللتين ذكرتهما. إذ نفى الظلم أولاً عن الله سبحانه في مجال الجزاء ، ثم فرع عليه المجيء من كل أمة بشهيد ، واحضار الرسول ﷺ شهيداً على الشهداء مما يكاد يكون صريحاً في الحديث عن ذلك الموقف العظيم ».

عندها التفت إليه ، وكأني قد تذكرت شيئاً جديداً :

. « وأصرح من ذلك .. قوله تعالى في سورة هود : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى**

---

(١) الزمر : ٦٩.

(٢) النحل : ٨٩.

على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾. كذلك قوله في عيسى بن مريم : ﴿ويوم القيامة يكون عليهمشهيداً ﴾. وذلك كما ورد في سورة النساء ».

كان يهز برأسهمعلناً عن الايجاب ، فقال :

. « فإذا تم هذا قلنا : إن من الطبيعي أن لا تتحقق الشهادة إلا بالحضور والاشراف على المشهور عليه ، ثم أداء الواقع بدقة. كما أن الشهادة ليست على مجرد شكل العمل وصورته الظاهرة المتقضية ،وإنما تكون أيضاً على ما هو السر في كون العمل طاعة أو عصياناً ،أي النية والسريرة ونوعها. فلا بد إذن من أن يكون مثل هذا الشاهد واقفاً على الضمائر ،ومطلعاً على السرائر في النشأة الأولى ، لكي تتحقق مقومات الشهادة يوم القيامة وفي النشأة الأخرى ».

فقلت له :

ـ « وهذا المعنى يمكن أن يظهر من قوله تعالى ، حكاية عن عيسى بن مريم عليهما السلام ، وجوابه لله سبحانه في ذلك الموقف العظيم يوم الحساب : ﴿ وكنت عليهمشهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيدٌ ﴾ [1] ».

بعدها ،كانت قسمات وجهه تصير إلى التحول حتى جعلت سحنة بشرته تمتص كل عجب ، فعاد بعدها وهو يقول :

. « إنك الآن تتوقع أن أقول لك .. إن الآية : وكأني بها لم أسمعها من قبل ، ولكن الأمر على غير ذلك ، فإني كنت بحاجة إلى مراجعة لنص هذه الآية ، ولما

---

(١) المائدة : ١١٧.

لم يكن تحت يدي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .. بقيت في حيرة من أمري حتى ذكرتها وعندئذ طفقت إلى مخي حاجتي إليها وتذكرتها ».

فغرت عن ثغري ، ونطقت بابتسامة مصادقة ، ووافق لساني على استدراك جملاتي :

. « طيب .. فما أردت قوله : أن الآية ما كانت تحدث إلا عن اقتران شهادة المسيح على أمته ورقابته عليهم ، بشهادة الله ورقابته عليهم حتى يلوح مدى التشابه بينهما ، ومقدار التجانس بين الحالتين ، وذلك بالرغم من أن شهادة المسيح هي ما كانت لتعد إلا شعاعاً من تلك الشهادة. وهذا لا يتم إلا بالاشراف ، والاطلاع على القلوب ».

فقال طلال :

ـ « وربما يشير إلى هذا قوله تعالى في التوبة : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾. إذ جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد إلى جنب رؤية الله تعالى مما يشير إلى نوع مسانخة بينهما ».

فقلت :

. « وإذن ، بعد هذا كله ، فما المراد الذي يتبين من الشهادة في الآية؟ ».

. « فهو الشهادة على الأعمال ،وإن هؤلاء الخواص من الأمة جعلوا وسطاً ، ومنحوا هذه الكرامة لارتباط هذه الشهادة بهذا الوصف ، سواء كان المراد بالوسطية كونهم واسطة بين الرسول والناس ،أو كونهم عدولاً غير مائلين إلى الإفراط والتفريط ».

. « فهم إذن مثل عليا للناس؟ ».

وعندها نظر إلي بإحكام ودقة :

. «إنهم حقاً لكذلك؟ ».

ومن دون أن أشعر ، قلت له تعقيباً على لغته تلك الممزوجة بسيل من المشاعر الغالبة :

. « من هم؟! ».

. «هم المؤمنون حقاً ! ».

عندئذ ، فهمت ما يرمي إليه. لأ نه ما عنى إلا المعصوم الذي لا يخطئ ، لأن شهادته أيضاً هي الأخرى لا تخطئ ، كشهادة الأنبياء! ولذا ، فإن الحاكم يجب أن يكون من المؤمنين الذين لا يخطؤون أيما خطأ ..كيما لا تخلو شهادته ومراقبته من الدقة ، فضلاً عن أنه يقوم باتمام الحجة كاملة من دون أيما غفلة أو سهو أو نسيان أو حتى خطأ ملموس وغير ملموس! وإذا به يتابع كلامه ، فيقول :

ـ « ويقرب من هذه الآية في الدلالة قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ».

فاستعدل في قعدته بعد أن كان قد استرسل على سجيته ، فقال :

ـ « وخلاصة الكلام : إن في الأمة المسلمة طائفة معينة فازت بمقام الشهادة على الأعمال ، وإن هذه الطائفة هي من ذرية إبراهيم عليه السلام على ما يقتضيه انطباق آية الاجتباء الأخيرة على آية الشهادة حتى إنه كانت قد وردت روايات تؤيد بل تدل على ما استفدناه من نفس الآيات ، وذلك من كون الشهادة هي الشهادة على الأعمال! ».

. «مثلاً ؟! ».

ـ « روى البخاري في صحيحه من الجزء السادس ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب. فيقول : هل بلغت؟ فيقول : نعم. فيقال لأمته : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير. فيقول : من يشهد لك؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ ، فذلك قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾. والوسط : العدل ».

فقلت له :

. « ائتني بمصدر آخر ».

ـ « وفي الكشاف : روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينة. ويقرب منه ما في الدر المنثور ، وروح المعاني ، ومجمع البيان ».

عندها شعرت باحساس يوحي إلي بأن الله ما كان قد عنى بالمسلمين خاصة إلا آل محمد من الأئمة المعصومين ، لأ نهم هم شهداء الله عز وجل على خلقه .. كنت قد أحسست بأحدهم ينثر مثل تلك المفردات على وجهي ، كما يرش الماء على من أغمي وغشي عليه ، وفقد حالة الانتباه حتى غاب عن الوعي والادراك ، وذلك كيما يعود إليه رشده ، ويصحو ويفهم ما يدور حوله! غير أني لم أتبين من كان؟ فإن من يوفد بمهمة ، فإنه هو الذي يقدم تقاريره في آخر العملية إلى مسؤوليه. وما كان الموفد اليهم بالذين يرفعون إلى مسؤوليه بالتقارير النهائية .. بالرغم من أن لهؤلاء دور ما يمكن أن يلعبوه في الشهادة كذلك .. ولكن خاصة فإني كنت لحظتها قد شعرت أنها كانت قد اختصت

بالمعصوم .. بمثلما اختصها ومن قبل بالأنبياء .. ولو إنا لا نعتقد بعصمة الأنبياء إلا حين التبليغ ولنا في ذلك قواعد وضوابط نختلف بها مع الشيعة. وما كنت أدري بأن الرمية كانت قد أصابت اثنتين من الأهداف ، وبضربة واحدة. حيث تمكن طلال من أن يستدرجني ببساطة ، حتى صرت أعلن الحقيقة على نفسي .. إلا أني ما زلت أتخبط كحاطب ليل .. أخاف من الحقيقة أن تبدو لي مساحاتها باهرة ، فلا يبقى علي أيما فرصة للهرب من الاقرار والقبول .. كذلك كنت قد أقررت ومن حيث لا أدري بضرورة وجود إنسان يبلغ عن الله ، لا يخطئ أبداً .. كيما لا يكون لهم حجة على الله الذي أقر على نفسه بأن الحجة لله وحده. فكيف يمكن أن يرسل إلى الناس أنبياء غير معصومين أو أن عصمتهم تخضع إلى التجزئة. هذا فضلاً عن أن الإيمان بمثل ذلك ، يلزم القبول بأن الله ما كان ليسلم أمته إلى أهل الخطأ والنسيان من أمته حتى يعدهم شهداء على القوم .. حتى صرت أقنع بضرورة وجود المعصوم في كل زمان ومكان.

التفت إلي طلال ، وقال :

. « فإن الأعمال لربما عرضت على أصفياء الله يوم الخميس أو يوم الاثنين! ».

. « ..؟! ».

. « وهنا لا بد وأن أنبه على ما يبدو من الاختلاف بين ما دلت عليه آيات الشهادة ،بل دلت عليه آية الرؤية أيضاً .. ».

قاطعته :

. « آية الرؤية؟ ».

. « نعم! لقد تطرقت إليها قبل قليل ، إن بالك في مكان آخر ، أو إن بعض المقاطع في نقاشنا قد استأخذك جل الاستئخاذ حتى غفلت عما ذكرته لك حيث أخبرتك بنصها القائل : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ ».

. « أووه! تذكرت ».

ـ « أجل آية الرؤية ، وهي التي اقترنت فيها رؤيتهم لاعمال الخلق برؤية الله تعالى. وبين مدلول تلك الأخبار ».

. « أي اختلاف تعنيه؟ ».

ـ « فالآيات تدل ظاهراً على اشرافهم المستمر على الأعمال ، بل على أسسها ومبادئها النفسية التي تصبغ العمل بالطاعة والعصيان. في حين نجد أن الأخبار توهم عدم إشرافهم على الأعمال حين صدورها من الفاعلين. حيث أفادت العرض عليهم والشهادة من قبلهم ».

. « فأين هو بيت القصيد؟ ».

. « فلماذا يتم عرض الأعمال على رسول الله و .. ».

وهنا سكت ، وألمح إلي بنظرة فيها بعض الاستغراب وقال :

. « ألا تجد أن ثمة شيء ينقص الجملة؟ ».

. «؟!».

ـ « والمؤمنون من آل محمد. فلماذا يتم عرضها عليهم ، إذا كانوا هم المشرفين على الأعمال وعلى مبادئها النفسية؟ ».

ثم صمت برهة من الزمان ، وعاد إلى القول :

. « ألا أن هذا الاختلاف يرتفع بعد التأمل في مراتب العلم والشهود. ذلك

أن للعمل مراتب متفاوتة ، والتعبير بالرؤية والشهادة تعبير عن بعض مراتبه. ومن هنا يمكن أن نصحح العرض على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس ، مع أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ».

أبقاني في حيرة من أمري ، إنه اعتمد. أساساً . استخدام بعض الاصطلاحات التي لم أسمع عنها شيئاً في الروايات التي سردها علي ، وكأ نه يطالبني بتحريك عقلي أكثر فأكثر ، والتحري عن مواطن مثل هذه المصطلحات في روايات عدة ، والبحث والدراسة للغور أعمق والتأكد من كل هذه الوثائق العقلية والنقلية واكتشاف المزيد منها. لأ نه ما غاب عنا من الروايات ، كان أكثر مما حضر بين أيدينا! لكني بقيت كالمتسائل الذي يترجم مبهماته إلى تعابير مسموعة :

ـ « أيمكنك أن تبين لي بعض مقتضيات هذا المقام الرفيع الذي يمكن أن يتمتع به الشهداء على الناس؟! ».

قال طلال :

. « سأذكر لك بعضها ،أولاً : علمهم بالغيب ، وبسبل تختلف عن سبل غيرهم من الناس ، وهو ظاهر لا بد من التصديق به. أما الثاني : فهو أنهم واسطة الفيض الالهي المعبر عنه بالولاية التكوينية ، فإن العلم الحضوري هو حضور المعلوم بوجوده الخارجي عند العا لم. وهذا لا ينطبق في المقام إلا على علم العلة بمعنى (ما به) على المعلول. الثالث : العصمة من الضلال ، فإن اطلاق الوسط وعدم تقييده في قوله سبحانه ، يدل على أنهم في قلب الوسط الحقيقي. ولذا ، فهم معصومون عن الانحراف والإفراط والتفريط. على أن قوله تعالى : ﴿ **جعلناكأمةً وسطاً** ﴾ ، يدل وكما سبق على أن الله تعالى قد اصطفاهم

من بين الناس ».

ـ « وهذا ما يمكن أن ترمي إليه من خلال أنه قد نطق عليه قوله تعالى : ﴿ **هو اجتباكم** ﴾؟! ».

. « بالضبط! ولقد رأينا كيف أنالقرآن الكريم جعل ينص على اجتباء ثلة من الأنبياء كإبراهيم ويوسف عليهما السلام ».

. « أتعني بأن الاجتباء لا يتم إلا من حيث تتم عملية الاصطفاء؟ ».

. « إن من الواضح بمكان أن الاجتباء ما كان يعني إلا اصطفاءهم وجعلهم خالصين من كل ما يدنس الفطرة ، ويشوبها بالاكدار. وبذلك يئس إبليس من إغوائهم حيث قال : فوعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وذلك في سورة الحجر! ».

ـ « وليحضرني ما قاله تعالى كذلك في حق يوسف عليه السلام : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ ».

ـ « وإذن ، فما ظنك بمن كان الله عز وجل يتولى أمره ، ويصرف عنه السوء والفحشاء؟!

. « والرابع؟ ».

ـ « إن هؤلاء الشهداء موجودون في الناس ، ولو على سبيل البدل والتدريج ما دام الإسلام قائماً إلى يوم القيامة ، وذلك من حيث مواصفاتهم الخاصة والواردة في المقتضيات السابقة والتي ذكرتها لك! ».

الفصل السادس

طلال واستقلالية العلم

وبعد عدة أيام، كنت قد قضيت أوقاتها ما بين المطالعة والدرس ، والتطلع إلى مناظر الطبيعة ومراقبة كل ما حولي بعين ساهمة ، تشاور كل الوجود كيما تبلغ عنان أفلاك السماء ، وتفهم سر هذه الرحلات الأرضية وهذه التقلبات والتغييرات في سيماء التاريخ ، وألوان الماضي حتى احالنا الحاضر إلى مثل هذه الاستجوابات الذاتية والتساؤلات المتداعية!

وإذا ما كان طلال قد غاب عني لفترة من الزمان ، لعلة شغلته ،وأعمال أخذت منه كل وقته .. فإذا بي أراني ذات صباح ، ومن بعد ما تناولت طعام الإفطار ، أنعم تحت ظلال السماء الباردة ، بشعاع دافئ مسكوب من خصلات نجمة شمس الصباح الشتائية الناهدة .. حتى كان يطلع علي طلال عبد الواحد بطلعته الناصعة ، بوجه صارم ، لا يخالطه سوى حنان أخوي ، واشفاق عمر ضاع بين صفحات أعناق زجاجات ، رمتها سنوات مطرحة على ضفاف السواحل التي ما زالت تنأى بالإنسان عن موطنه ومحل صباه ومسقط رأسه! قال لي :

. « كيف حالك أيها الأخ العزيز؟! ».

. « على أحسن ما يرام؟ ».

وبعد أن شربنا قدحين من الشاي، كان يحكي لي قصة حياته ، ويسرد لي

بعض معاناته ، حتى أردت أن أجنح به عن جادة مثل هذه الأحزان كيما انتزعه من تحت طائلة الهموم والآلام .. فقلت له :

. « نسيت أن أسألك ، إني قد طالعت ، ولكن لم أقرأ بمقدار ما قرأته أنت نفسك .. فأخبرني حقاً ، وأصدقني القول ..فإني قد سمعت قبل فترة من أحدهم أن التنازع الذي كان قد حصل بين أتباع المذاهب الأربعة أنفسهم هو أشد من النزاع الفكري القائم بين الشيعة والسنة ».

فقال لي :

. « ليس علينا أن نوسع من هوة الصراع ، أو نقوي من أطرافه ، للعمل وبالتالي على تضخيم شق النزاع .. إن الأمر كله يخضع إلى تعصبات لا حساب لها ، لأ نه لا طائل تحتها. وإنما كان يمكن أن يتم التفاهم في ظل أيما صيغة عقلية ومنطقية يرتضيها أصحاب الحل والعقد ، وأولي الأفهام والمدارك ، فضلاً عن التوصل إلى حلول يصادق عليها الصلحاء من أولي الحجى ».

ـ « أخبرني ، أين يكمن صلب النزاع العقائدي؟ وما هو سر النزاع بين مقلدي المذاهب الأربعة. فإني ما كنت أتصور أن مثل ذلك له أن يحصل؟ ».

. « إن ما سأقصه عليك يحمل عين الحقيقة التي لها أن تدمي القلوب ، وتنسج ستائر المأساة في قلوب كل مسلم ومسلمة ..لقد كان النزاع بين طوائف المسلمين ، نزاعاً علمياً ، واختلافاً لا يتعدى حدود القول في النقض لبعض ما ينهجه الآخر ، وسارت الأمور على هذا المنوال. ولكن حركة الانشقاق كانت قد بدأت تتسع ، وروح الاختلاف قد صارت تسري في المجتمع وبسرعة ، وذلك لقوة الدافع السياسي الذي كان يحاول أن لا تتفق الأمة على رأي واحد ، والذي كان في نفس الوقت يعمل على إحياء العصبية ، إذ لا حياة للنظام الملكي إلا بها ».

. «و بعد أن مضى عصر أئمة المذاهب ».

. « فإنه كان قد جاء دور أتباعهم ، فشغل كل بمذهبه الذي يرتضيه ، وتأصلت روح الخصومات ، وانحاز كل إلى جهة ، بدون التفات إلى ما وراء هذا التحيز من خطر على العلم ، في ضياع حقيقته ، وسلب منافعه التي أراد الإسلام أن تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب السعادة ».

ـ ومتى كان قد وصل الأمر إلى تحديد الأخذ بمذهب معين لا غير ، والزام الناس بالأخذ عن المذاهب الأربعة فحسب؟ ».

. وهذا لم يتم إلا بعد مدة من الزمن! ».

. « أتقصد بأن الناس ما كانوا قد اجتمعوا على التقليد في مذهب واحد بعينه؟ ».

. « بل كان الناس على درجتين ، هذا ما أخبرنا به الشاه ولي الدهلوي في كتابه رسالة الانصاف ، حيث كتب يقول وهو يتبع مقالته السابقة : العلماء والعامة ، وكانوا في المسائل الاجتماعية التي لا خلاف فيها بين المسلمين ، أو بين جمهو رالمجتهدين ، لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل ، وأحكام الصلاة والزكاة ونحوه ، من آبائهم ، أو معلمي بلادهم ، فيسيرون على ذلك المنوال. وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها ، ومن غير تعيين مذهب! ».

. « والعلماء؟ ».

ـ « وأما العلماء ، فكانوا على مرتبتين : منهم من أمعن في تتبع الكتاب والسنة والأثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس ، يجيبهم في الوقائع غالباً ، بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه ، ويخص باسم

المجتهد! وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد في جميع الروايات ، فإنه ورد كثير من الأحكام في الأحاديث ، وكثير منها في آثار الصحابة والتابعين ».

. « ثم من بعد ذلك! ما الذي حصل ، أخبرني؟ ».

ـ «ثم بعد هذه القرون ، كان ناس آخرون ، ذهبوا يميناً وشمالاً ، وحدث فيهم أمور منها : الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله ».

. « نسيت أن أسألك ، فمن بعد انتهاء عهد الخلفاء الراشدين ، ماذا كان الحال؟ ».

ـ « إنه لما مضى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت الخلافة قد أفضت إلى قوم تولوها بغير استحقاق ، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم. وكان بقي من العلماء من الطراز الأول ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا! فرأى أهل تلك الاعصار (من غير العلماء) إقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم ، فاشتروا طلب العلم توصلاً إلى نيل العز ».

فقلت عندئذ :

. « فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص! ».

. « أجل! ولسنا ندري ما الذي قدره الله تعالى فيما بعده من الأعصار؟ ».

. « هل لك أن تتحفني بمقالات من أهل ذلك الزمان؟ ».

ـ « وكيف لا! هاك ما يقوله الخطابي في كتابه : معالم السنين ، صورة عن الخلاف الذي حصل بعد المئة الثالثة بين فقهاء المسلمين ، واتباع المذاهب ، إذ يقول : رأيت أهل زماننا قد انقسموا إلى فرقتين : أصحاب حديث وأثر ، وأهل

فقه ونظر. ووجدت هاتين الفرقتين إخواناً متهاجرين! ».

. « ..؟! ».

ـ « .. أما أهل الحديث والأثر ، فإن الأكثر منهم ، إنما كدهم الروايات ، وجمع الطرق. وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع ، أو مقلوب! لا يراعون ولا يفهمون المعاني ».

. « إلى هذا الحد؟! ».

. « وربما عابوا الفقهاء ، وتناولوهم بالطعن ، وادعوا عليهم مخالفة السنن .. ».

. « والطبقة الأخرى؟ ».

ـ « وأما الطبقة الأخرى ، وهم أهل الفقه والنظر ، فإن أكثرهم لا يعرجون الحديث إلا على أقله ، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه. وذلك إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ، ووافق آراءهم التي يعتقدونها. وقد اصطلحوا على موضوعات بينهم في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع ، إذا كان قد اشتهر عندهم ، وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير تثبت فيه أو يقين علم به. ولو حكي لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه ، طلبوا فيه الثقة ، واستبرأوا له العدة ».

. « وهل يمثل لمثل ذلك؟ ».

ـ « إنه بالفعل يستشهد ببعض الأمثلة عن ذلك .. فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون في مذهبه إلا على ما كان من رواية ابن القاسم وأشهب. فإذا جاءت رواية عبد الله بن الحكم وأضرابه لم يكن عندهم طائلاً . وترى أصحاب أبي حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن. فإن

جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذوي روايته قول بخلاف لم يقبلوه ، ولم يعتمدوه ».

. «وبصدد أصحاب الشافعي ، هل يقص شيئاً ما؟ ».

. « استمع .. وكذلك تجد أصحاب الشافعي : إنما يعولون في مذهبه على رواية المزني والربيع بن سليمان المرادي. فإذا جاءت رواية خزيمة والجرمي ، وأمثالهما .. لم يلتفتوا اليها ، ولم يعتدوا بها في أقاويله!

ـ « .. والخطب الأعظم أن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة ﷺ الواجب حكمه ، اللازمة طاعته ، الذي يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره ، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضاه ، ولا في صدورنا غلا من شيء أبرمه وأمضاه ، ولكن أقواماً عساهم استوعروا طريق الحق ، واستطابوا الدعة في ذلك الخط ، وأخبوا عجالة النيل ، فاختصروا طريق العلم ، واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معاني أصول الفقه ، سموها علـلاً ،وجعلوها شعاراً لأنفسهم في الترسم برسم العلم. وأخذوا جنة عند لقاء خصومهم ، ونصبوها ذريعة للخوض والجدال ، يتناظرون بها ، ويتلاطمون عليها. وعند التصادر عنها قد حكم الغالب بالحذق والتبرير ، فهو الفقيه المذكور في عصره ، والرئيس المعظم في بلده ومصره ».

. « أقول ، أخبرني بدقة ، هل نتج عن مثل هذه الاختلافات صدامات دموية مثلاً ، أو مطاحنات أودت بالأنفس والأموال؟ ».

ـ «لقد بلغ الحال عبر الخلافات التي أدت وشيئاً فشيئاً وبتوالي السنين ، وتقلب الدهور والأوضاع ، إلى حدوث الارتباكات وحصول الصراعات الطاحنة والتي أطاحت بمفهومه النظري ، ليطور الحال عندئذ إلى حالات

مؤلمة وصور مأساوية .. ».

. «؟!».

ـ « .. أدت إلى الطعن في المعتقدات حتى نتج من وراء ذلك ثورات دموية ، ذهبت بكثير من النفوس والأموال ، وبشكل يبعث على الأسف الشديد ، لما حل من التطاحن بين المذاهب ».

. « إذن لقد أصبحوا أعداء متخاصمين؟ ».

. « أجل! فلقد غدا بعضهم يناوئ البعض الآخر في المعتقدات .. وقد عامل بعضهم بعضاً معاملة الخارجين عن الدين حتى قال محمد بن موسى الحنفي ، قاضي دمشق المتوفى سنة ٥٠٦ للهجرة : لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية. بينما قال أبو حامد الطوسي المتوفى سنة ٥٦٧ للهجرة : لو كان لي أمر ، لوضعت على الحنابلة الجزية! ».

. « وما هي أسباب تلك الفتن؟ ».

ـ « إن أسباب تلك الفتن التي حلت بالمسلمين، كلها تعود لمسايرة بعض العلماء للدولة ، يشايعها ويؤيد وجهة نظرها ، فاغدقت عليه العطاء ،وبذلك أصبح العلم مسايراً للدولة ».

. « إذن ، لقد وقع الصدام فيما بينهم؟ ».

فقال طلال ، وهو يتابع حديثه :

ـ « وعلى أي حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداماً عنيفاً ،وخلقت كثيراً من المشاكل التي هي في نهاية التعقيد ، ولا يمكن حلها مادام علماء الدولة هم المحور لتلك الأمور. ومنهم تنبعث تلك الأفكار التي يتحرك بها شعور الأمة ، لتقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة! ».

. « فهل هذا كله ، يمكنه أن يعلن وبكل صراحة أو بجرأة عن نفي القول باتفاق أتباع المذاهب الأربعة وعدم خلافهم فيما بينهم؟ ».

ـ « إذا نظرنا إلى الحوادث المؤلمة التي حصل فيها التشاجر والتطاحن بين معتنقي المذاهب الأربعة فإن ذلك يبعث في نفوسنا الألم ، مما وصلت إليه الحال السيئة بين جماعات الأمة الواحدة. ويدلنا ذلك بكل وضوح على إبطال من يدعي لهم الاتفاق وعدم الخلاف. وهو بذلك يستدل على أحقية مذاهبهم ،وصدق معتقداتهم. كما ذهب إليه صاحب كتاب التبصير وغيره ، ممن يطلقون الأقوال بدون تدبر ، ويحكمون بدون تثبت ».

ـ « هل يمكنك أن تخبرني عن بعض الوقائع التي تمت بصلة إلى مثل هذه المصائب المحزنة؟ ».

. « ماذا أقول ، بل ماذا أحكي لك؟ ليت شعري أخفيت تلك الحوادث التي وقعت بين الحنفية والحنابلة ، وبين الحنابلة والشافعية ، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر ،والحنابلة يحرقون مسجداً للشافعية بمرو! بينما تقع هناك فتنة ذهب تحت هياجها خلق كثير. ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية في نيسابور ، وتقع فتنة مبعثها التعصب المذهبي ، فتحرق الأسواق والمدارس ، ويكثر القتل في الشافعية ، فينتصرون بعد ذلك على الحنفية ، ويسرفون في أخذ الثأر منهم ، وذلك في سنة ٥٥٤ للهجرة. ومثلها تقع بين الشافعية والحنابلة ، وتضطر السلطة إلى التدخل في حسم النزاع وبالقوة ، وذلك في سنة ٧١٦ للهجرة حتى كثر القتل ، وحرق المساكن والأسواق في أصبهان ، وكان منشؤه التعصب .. ».

كنت أستمع إليه ، وأنا أشعر بأن شيئاً ما في داخلي يضطرب .. ولقد آن له

أن ينفجر حتى ما كان ليبقى منه أيما شظية يمكن أن تعود علي بنفع!

ـ « .. بل إنه ولشدة وقوع الفتن ببغداد ، فقد نادى منادي السلطان بمنع الفتن ، وعدم ذكر المذاهب والخصومة فيها .. » [1].

تابع حديثه وهو يقول :

. « وكان الحنابلة يخلون في أعمالهم بالأمن ، ويرهجون ببغداد ، ويستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد. فإذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان ، فيضربونه. وكان رئيس الحنابلة وزعيمهم الديني البربهاري يتولى إثارة الفتنة ، وذلك في سنة ٣٢٣ للهجرة. ولما تولى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة ، فحطوا منه. وكان ينال منهم ، فوقعت بينهم فتنة ، ذهبت بكثير من النفوس. كما اشتد تعصب محب الدين بن محمد الهندي الحنفي ، المتوفى سنة ٧٨٩ للهجرة على الشافعية ، وكان يظهر التدين والنسك ،ويرى تعصبه عليهم تديناً ، والدين بريء من ذلك .. » [2].

بينما استدرك كلامه المتأخر بما ألحقه به ، فقال :

. « بينما تجتمع في يوم من الأيام بقية المذاهب على الحنابلة ،غضباً على أعمال ابن تيمية حتى نودي في دمشق وغيرها : من كان على دين ابن تيمية ، حل ماله ودمه ، بمعنى أنهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين. على أن الشيخ ابن حاتم الحنبلي كان يقول : من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم ».

فقلت معقباً :

---

(١) البداية والنهاية ٤ : ٧٦ ، مرآة الجنان ٣ : ٣٤٣ ، المنتظم ١٠ : ١١.

(٢) الكامل في التاريخ ٨ : ٢٢٩ ، مرآة الجنان ٣ : ٩٧ ، شذرات الذهب ٦ : ٢٦٠.

. « إذن هو يكفر جميع المسلمين؟ ».

قال :

. « أجل ، وعكسه الشيخ أبو بكر المقري الواعظ ، حيث كان قد ذهب في جوامع بغداد إلى تكفير الحنابلة أجمع [1]! ولقد لقي الشيخ عبد الغني المقدسي ، المتوفى سنة ٦٠٠ للهجرة ، من التحامل عليه ، والتكفير له ، وللحنابلة بدمشق ، ما يطول ذكره حتى هجر دمشق ».

. «إذن التكفير كان قد أصبح عرفاً حاكماً على تلك العصور؟ ».

ـ «لقد غدا تكفير الفرق بعضها البعض أمراً شائعاً ، يحز في صدر الحق ، ويؤلم التاريخ وقعه ، ويتبرأ الإسلام منه. فهذا أبو سهل بن زياد القطان ، وكان من الحفاظ والثقات عندهم ، يذهب إلى تكفير المعتزلة ،مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ..** ﴾ الآية. وثارت فتن عمياء ، وقعت حوادث مؤلمة ، ما كان مبعثها سوى التعصب الأعمى ».

. « ..؟! ».

ـ « .. فهذا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي المتوفى سنة ٤٧٩ للهجرة ، وكان شيخ الشافعية ، وعالمهم المبرز ، تعصب الحنابلة عليه ، فتكلموا فيه ، وبالغوا في الأذى بألسنتهم ، فثارت فتنة عظيمة ، أدت إلى ذهاب نفوس من الطرفين. وانتصر السلطان لأبي إسحاق ، فسجن شيخ الشافعية. وهذا الفقيه أبو منصور ، المتوفى سنة ٥٦٧ ،قتله الحنابلة بالسم تعصباً

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٧٥ ، شذرات الذهب ٣ : ٢٥٣.

عليه. قال ابن الجوزي : إن الحنابلة دسوا إليه امرأة ، جاءت إليه بصحن حلوى ، وقالت : هذا يا سيدي من غزلي ، فأكل هو وامرأته وولد له صغير ، فأصبحوا موتى. وكان من علماء الشافعية المبرزين! » [1].

بينما أنشأ يتابع كلامه ، وهو يقول :

ـ «وكذلك أبو الحسن بن فورك قتل مسموماً ، وذلك بسبب من التعصب. وأبو علي خادم المستنصر، كان من أئمة الشافعية في مصر ، وكان يجلس في حلقة ابن عبد الحكم ، ويناظرهم ، فسعوا به إلى السلطان ، وقالوا : هذا جاسوس! فحبسه سبع سنين. واجتمع مشايخ المذاهب في هراة عند الملك الب ارسلان ، يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري الحنبلي ، بعد أن جعلوا صنماً تحت سجادته! ويقولون للملك : إنه مجسم ،وإنه يترك في محرابه صنماً ، يزعم أن الله على صورته ، فتفحص الملك ،ووجد الأمر كذلك [2] »!

ثم استطرد قائلا :

ـ « يحدثنا ابن خلكان المتوفى سنة ٦٣١ ، وذلك في كتابه وفيات الأعيان [3] عن الشيخ الآمدي ، إن في أول اشتغاله كان حنبلي المذهب ، وانحدر إلى بغداد ، وبقي مدة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي ، وعاد إلى الديار المصرية ، وتولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي. فحسده جماعة من فقهاء البلاد ، وتعصبوا عليه ، ونسبوا إليه فساد العقيدة ، وانحلال الطوية ، ومذهب

---

(١) طبقات الشافعية ٣ : ١٠٩ ، ٤ : ١٨٤.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٥٨.

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٣٠١.

الفلاسفة والحكماء حتى كتبوا محضراً يتضمن ذلك ، ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه! .».

. «؟!».

ـ « وفي مصر يأمر القاضي المالكي ، وهو الحارث بن مسكين ، بإخراج الحنفية والشافعية من المسجد ، وأمر بنزع حصرهم. وفي سنة ٥٣٨ ، قدم بغداد : الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي ، وتحامل على الأشعري ، وعلى الشافعية ، وفيها أخرج أبو الفتوح الاسفراييني من بغداد ، وذلك لما حصل فيها من الفتن بين الأشعرية والشافعية » [١].

جعل يراقب تطلعاتي الطامعة وتشوفاتي الفضولية التي ليس لها أن تشبع قط ، حتى صار يتابع كلامه وهو يحاول قدر جهده أن يخلص في أداء مهمته ، من أجل أن لا يؤثر على مخيلتي ما له أن يحيلها إلى الوقوع تحت طائلة النتائج السلبية ، فقال :

ـ « ولعل أعظم صورة تتجلى بها روح العصبية والخلاف بين الطوائف ، هي قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر ،وذلك إنه كان حنفياً ،وتحول شافعياً ، فأحضر علماء الفريقين ، وطلب من القفال المروزي أن يصلي ركعتين ، طبق المذهب الحنفي. فصلى القفال على مذهب الشافعي ،وكان شافعي المذهب بوضوء وشرائط معتبرة ، ثم صلى على مذهب أبي حنيفة ، وما يجوزه في الصلاة ، فصلى ركعتين بتلك الصورة القبيحة التي ذكروها وأنا أحاول أن أعرض عن ذكرها ..إن أجزتني أن أنصرف عنها ولو تلويحاً لهذه المرة فقط!

---

(١) المنتظم ١٠ : (١٠٦) ١٠٨.

وسأطلعك عليها لاحقاً فيما بعد .. » [1].

أما الشيخ علي بن الحسن الملقب بسيف الدين ، المتوفى سنة ٦٣١للهجرة ، فإنه كان حنبلياً ، ثم صار شافعياً ، فتعصب عليه فقهاء البلاد ، وحكموا عليه بالكفر والزندقة » [2].

كنت أراقبه والإ لم يعتصر قلبي ، أفتش عن أسباب ذلك ، وهل أن أسباب كل هذا يكمن في أحداث السقيفة ، سقيفة بني ساعدة ،أم أن هناك أسباباً أخرى .. حتى دعت بأئمة الشيعة إلى الانضواء ، واجبرتهم على القعود جليسي منازلهم ، أو الترحيل ،أو التسفير كما يذكرون ويحدث الشيعة عنهم وعن تاريخهم .. وإلا .. بنظري لو تدخلوا! لو كان لهم أن يميطوا اللثام عن أسباب كل هذه الفتن ، وينفحوا الناس بعصير من حقائق الرسالة وطيب النبوة ، لكان .. (عدت إلى نفسي أسألها مدهوشاً هذه المرة ، لأ نها بدت كأنها تحدث على لسان شيعي .. يتوق إلى التشيع أكثر فأكثر ..) فانصرفت عن هذه التعقيبات ، وآثرت الاستماع إلى ما كان يقوله صاحبي ، وأنا أردد بيني وبين نفسي ، وبين الفينة والأخرى، كلمات وجمل ، ليس بوسع أحد أن يسمعها ، أو حتى يلتفت اليها إلا الله و .. .»

ـ « وكثير من أمثال من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصب بشهادة رجال ذلك العصر ولا يستبعد أن ذلك كله ما كان إلا افتراءاً محضاً يعبر عن شهادات زور وبهتان مرجف! فإن أكثر هؤلاء هم بريئون مما نسب إليهم. وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تديناً .. حتى كان قد استفتى بعضهم في

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٨٦.

(٢) أورد هذا الخبر صاحب مرآة الجنان ٤ : ٢٤.

شهادة على شافعي زوراً ، فأجابه المفتي : ألست تعتقد أن دمه وماله حلال؟ قال : نعم. قال : فما دون ذلك ، فاشهد وادفع فساده عن المسلمين! ».

. «؟!».

. « وهذه الأمور التي ابتلي بها الإسلام إنما هي من جنايات علماء السوء الذين تزلفوا للدولة ، وتأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء ، والنزاع ، والتخاصم ، والبغضاء بين طوائف المسلمين. فتجد الحنابلة يتعصبون على الحنفية ، والحنفية على الحنابلة! ولو أنعمنا النظر في طيات التاريخ ، واستعرضنا حوادث الفتن بين المنتسبين إلى السنة بعضهم مع بعض ، فإننا سنجد من الوقائع ما يؤلم قلب كل مسلم. (بينما ساءلني) هل سمعت مقالة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، صاحب المنار؟ ».

قلت :

. « لا؟ ».

قال :

. « إنه يقول : ومن أغرب ما تجد أن العدوان بين الشافعية، كان من أسباب حملة التتار على المسلمين ، تلك الحملة التي كانت أول صدمة ، صدعت بناء قوة المسلمين صدعاً ، لم يلتئم من بعده. أدر طرفك في بلادهم اليوم ، وأنظر حال هذه المذاهب ، على ضعف الدين في نفوس الجماهير ، تجد (.. وعندها كأنه تذكر حضوري وكأ نه كان قد نسيني كلياً حتى إذا آنس في وجهي تطلعاً راشداً ، يبحث عن أسباب العلوم وضفاف الحقائق ، تابع كلامه من دون أيما تردد ورجوع ، لأن كلامه كان إدانة حقة تتوجه إلى كل عمليات سفك الدماء ، والأنشطة التي تدعو إلى حالات من شيوع التخلي عن المروءة الإسلامية ،

والتنازل عن الأعراف الدينية ، والتبري من أسس القواعد الحكمية الأصيلة التي تؤيد جميعها حرمة دم المسلم ، والإذعان إلى أوامر الله ، ومحاربة هوى النفس والتغلب عليه ، وكبح جماح الرغبات الشيطانية ، ونبذ الأحقاد ، ونفي الضغائن) بأسهم بينهم شديد ،تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى، كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا أيمان ».

الفصل السابع

وإذن! فقد أوصى الرسول بولاية علي بن أبي طالب

ومن بعد حدود الأسبوعين كنت أنا وطلال نذرع الطريق ، بينما كان يجاذبني أطراف الحديث ، ولقد شغلتني همومي الخاصة على طول مدى هذه الأيام. ولقد كنت أعلم إن من أهم مشكلاتي هي هذا الصراع العقائدي الذي كنت قد سقطت في شباكه ، إلا أن بعض الناس ما كان لهم أن يدعونا نهتم بأهم المسائل حتى جعلوا يشغلونا بأتفه القضايا وأحط الشؤون .. وما كانوا ليحسبوا أنفسهم إلا أنهم يحسنون صنعاً. فقال طلال :

. «إني لأجدك مقداماً .. ».

. « لا تجاوز بي الحدود ، فتبالغ في الإطراء علينا .. ».

قاطعني :

ـ «حقاً ، وبدون أية مغالاة ، فإني لأفخر بك وبأمثالك ، لأ نك جلد صامد ، تبحث عن الحقيقة ،تتعاطف مع كل ما له أن يضيء لك بصيصاً من نور ، وإني لأرى نجمك سيأتلق في ذات يوم! لأ نك نبذت العصبية وقذفت بكل براثن الجهل بعيداً عنك .. حتى ولو كان لمثل ذلك أن يكون على حساب مشاعرك الشخصية وعواطفك الأسرية! ».

سألته قائلاً :

. « كيف تشيعت؟ ».

. « بل قل كيف استبصرت! ».

. « فهل عانيت الكثير حتى توصلت إلى التصميم والعزم على مثل هذا القرار الخطير؟ ».

ـ « هذا مما لا شك به ، ولقد واجهت غالب المشكلات وعظيمها ، بل جمها من أقرب الأقربين إلي ، ومن أهل منطقتي ، وأشياعي الذين كنت أعول عليهم في الشدة والعسر ».

. « ومن حيث البحث والدراسة؟ ».

ـ « لقد عملت المستحيل من أجل أن أرضي ضميري ، ولقد فكرت في هذا الأمر حتى وضعته رأي العين ،لا أحيد عنه حتى أجد منه مخرجاً ، فأما أن أبلغ أو لا أنيخ برحلي أينما قدرت لي الظروف ..فماكنت أجد نفسي إلا منكباً انكباباً مثيراً ، لا أجد وراءه أيما متسع يمكن أن يفضي بي إلى الانشغال عنه بأية مسألة أخرى! حتى أفرغ منه .. وأقرر مصيري ، ومصير ذريتي التي أسأل الله أن يمنحنيها في المستقبل .. فاكون عن أعلام دينها مسؤولاً ،وعلى أسلاك عقائدها محاسباً ».

. « وإذن ، فأنت لم تكن لتفكر في نفسك فقط؟! ».

. « لا! حتما ، بل كنت أفكر في أهلي كذلك .. وذلك لأ نه ما كان لينفر في الدين من كل طائفة إلا نفر ، ولينذروا أهلهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون! ».

ـ « ما يمكنك أن تذكره، كخلاصة حديثية عما دنت بالولاء لهم! و انتميت إلى منهجهم العقائدي؟ ».

ـ « لقد صرح النبي ﷺ بوجوب اتباعهم ، والتمسك بهم في مواطن عديدة ، واشتهر حديث الثقلين كالشمس في رابعة النهار ، وحديث : « مثل أهل

بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى ». من الأحاديث الثابتة التي أيدها الرواة وتناقلتها كتب التاريخ ».

. « وهل كنت تتعقب مثل هذه الأحاديث .. وتفتش عن طرقها واسنادها ، وتتحرى الحقائق عنها؟ ».

. « إن هذا الأمر كان يعد بالنسبة لي من المسلمات ، .. ولكن ليس بمثل ما تتصور ، إذ إن لكل امرئ مجاله الذي يعمل فيه ويختص به ، ولربما قليل من هذه البديهيات والمعارف يغنيك عن تتبع سبيل الباحثين وتقمص عملهم واحتراف مهنتهم. فأمر آل محمد ، وبقدر ما هو بين وواضح ، فإنه ليكفيك عن تجشم مشاق البحث الأكاديمي وتحمل أعباء عمل المحقق الأصولي .. لا وألف لا! لأن مثل هذا الأخير قد كفاك! وأعد لك كل ما تحتاجه وما عليك إلا التأكد من توصلاته واستنتاجاته ليس إلا! وهذه نعمة أنعمها الله على عباده من خلقه .. فما عليهم إلا أن يهتموا بشكرها والإنهماك في المحافظة عليها والعناية بها ، لأ نها حصيلة .. بل حصائل أبحاث ودراسات قرون عديدة ، لم تنقضي أعمارها حتى انقضت معها أوطار مناظرات أصحابها العتيدة ، وتحقيقاتهم العلمية المضنية. ولقد كنت أتابع هذه الأخبار وهذه الدراسات والكتب متابعة الأسد لفريسته! إلا أن الفارق أنيما كنت أجمعها لكي التهمها وأسعد بها وحدي أو أفراد أسرتي .. بل إني كنت أفكر وأعد العدة كيما أقدمها إلى الآخرين في غد ، وأفيد بها ، وادع الناس والعالمين تستفيد منها أجمع! ».

. « هل تذكر من هذه الأحاديث الشيء الكثير؟ ».

. « إليك نبذة وجيزة منها : فلقد أخرج أحمد في مسنده ، والطبراني في مسنده كذلك بالإسناد إلى ابن عباس ، حيث قال : قال رسول الله ﷺ : « من

سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليتول علياً من بعدي وليوال وليه ، وليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فإنهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهمي وعلمي ، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين صلتي لا أنالهم الله شفاعتي ».

. « وغيرهما؟ ».

. « كما أخرج ابن حجر في صواعقه ، حيث قال : « في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون ». كما أخرج جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري ، قال : قال ﷺ : « فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم ». وقال كذلك : « اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين ».

. «وهل أوصى الرسول شيئاً تذكره؟ ».

ـ « لقد قال ﷺ : « أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب ، فمن تولاه فقد تولاني ، ومن تولاني فقد تولى الله ، ومن أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله ». كما قال : « اللهم من آمن بي وصدقني فليتول علي بن أبي طالب ، فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله ». وأخرج أبو نعيم [1] ، عن أبو حذيفة ، قال : قالوا : يا رسول الله ألا تستخلف علياً؟ قال : «إن تولوا علياً تجدوه هادياً مهدياً يسلك بكم الطريق المستقيم ». وأخرج بطريق آخر عنه ﷺ : « إن تستخلفوا علياً وما

---

(١) الحلية ١ : ٦٤.

أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على المحجة البيضاء ». وأخرج النسائي في الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « ما تريدون من علي؟ إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي ».

. « وما أراك إلا إنك تحفظ المزيد منها كذلك؟ ».

ـ « كذلك ، فلقد أخرج في الخصائص أيضاً من طريق أم سلمة ، قالت : سمعت رسول الله يقول : «من سب علياً فقد سبني ». وأخرج عن حبشي بن جنادة السلولي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « علي مني ، وأنا منه فلا يؤدي عني إلا أنا أو علي ». وأخرج الحاكم من طريق أبي ذر عن النبي ، أنه قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني ».

وإذا ما سكت لحظات ، كنت بين يديه كالملهوف المتعطش إلى العب من معينه الثر الذي ما كنت أراه ينضب أبداً ..حتى بادرته قائلاً كمن يبادر الساقي بمزيد من الماء :

. « لا أرى الوقت قد ضاق بك ».

. « لا .. ليس لدي اليوم أية مشاغل .. ».

. « وإذن ، فما عليك إلا أن تتحفني بما يكفيني لهذا اليوم .. هات المزيد؟ ».

فقال :

. «كما أخرج الحاكم أيضاً من طريق أبي ثابت مولى أبي ذر عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال : « علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى

يردا علي الحوض » [1].

وعن ابن عباس ، قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب.

وعن أبي هريرة ، قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال ، لئن تكون لي خصلة منها أحب إلي من أن أعطى حمر النعم. قيل : وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال : تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل فيه ما يحل له ».

. « وهل لك أن تحدثني بحديث فيه إشادة بعلي ، يشتمل كذلك على ذكر للخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب؟ ».

ـ «أخرج الحاكم في المستدرك أيضاً ، قال: كنا مع رسول الله فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها فمشى قليلاً ثم قال : « إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر عمر. قال أبو بكر : أنا هو؟ قال : لا ، قال عمر : أنا هو؟ قال : لا ، ولكن خاصف النعل ».يعني علياً فأتيناه وبشرناه فلم يرفع رأسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ. ولهذا الحديث وما سبقه طرق أخرى كثيرة ذكرها الحفاظ ، فيمكنك مراجعتها!.

كما أخرج الحاكم عن الكناني ، قال : سمعت أبا ذر يقول ، وهو آخذ بباب الكعبة : من عرفني فقد عرفني ومن أنكرني فأنا أبو ذر. سمعت رسول الله يقول : «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تأخر عنها غرق ».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمار بن ياسر ، قال : وقف على علي سائل وهو راكع في تطوع فأعطاه خاتمه فنزلت : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين**

---

(١) المستدرك ٢ : ١٢٢.

آمنوا .. ﴾. الآية. وأخرج السيوطى عن ابن عباس أنها نزلت في علي ، وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله ،وأخرج أيضاً عن علي ، وأخرج ابن جرير مثله ، ولهذا شواهد كثيرة لا يمكن إنكارها ».

ثم توجه إلي وهو يقول :

. « ألم تقرأ نهج البلاغة ، سواء الذي كان قد جمعه ابن أبي الحديد أو الشريف الرضى أو غيرهما؟ ».

فقلت له :

. «حقاً إني لم أقرأ منها إلا القليل! ».

قال :

ـ « اسمع ما يقوله علي بن أبي طالب : « فأين تذهبون ، وأنى تؤفكون ، والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق ، وأعلام الدين ، وألسنة الصدق ، فانزلوهم منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاشى. أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو ، ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر ، وركزت فيكم راية الإيمان؟ (كما قال أيضاً) أنظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا ».

قلت له :

. « لسألك سؤالاً ، أطالبك فيه أن تجيبني بكل صراحة ، ومن دون أيما قيد أو شرط؟ ».

. « تفضل؟!

. « لو وجدت أن ثمة عقيدة أخرى ، تبطل أدلتها انتماءك إلى مذهب أهل البيت .. أو بالأحرى :فهي ببراهينها وأخبارها أقوى استدلالاً على نفسها من استدلالات الشيعة على مذهبهم ، فهل كنت تحتم على نفسك البقاء على ما أنت عليه الآن ، وتصر بعدها على عدم التخلي عن اتباع مذهب أهل البيت؟ أرجوك لا تداهن في الجواب ، أريد منك الإفصاح عن جوهر الحقيقة ، لأن في سماعها ، وبالنسبة لي الكثير من المكاسب والمعطيات ،فضلاً عن أن مثل ذلك سيوفر علي عناءات عدة لا قبل لي بها ».

قال :

. «أقول لك شيئاً ، وأريد منك أن تلتفت إليه بدقة ، ومن دون أيما ترديد. فإني ومع احترامي للمذاهب الأربعة ، لا أستطيع أن أتخطى أوامر الرسول في اتباع آله ووجوب الأخذ عنهم ، ولنا بحديث الثقلين وحديث الغدير وآية التطهير ،وآية المو الاة كفاية لبراءة الذمة وصحة العمل بمذهبهم عليهم السلام ! ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت ، أو تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكنا من تحصيل نية القربة في مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه. على إنه لا دليل للجمهور في رجحان شيء من مذاهبهم ، فضلاً عن وجوبها ».

. « الآن ارتاح بالي .. وهدأ فكري ».

عاد بعدها ، والتفت إلي قائلاً :

. « أقرأت الخطبة الشقشقية؟ ».

. « ولمن هذه الخطبة؟ وما هي؟ ».

ابتسم بدعة ولطف ، وقال :

. « إنها لعلي بن أبي طالب ».

. « اووه! ».

. « إنها تشتمل على ما تريد البحث عنه كاملاً وبشكل موجز ملخص ، يغنيك .. بل ليس لك عنه أيما غنى .. وما عليك إلا أن تثق بعلي ، وتطمئن الى ما قال ..ذلك إن كنت تتعبد على مذهبك ، أقول : إن كنت تعتقد بالخلفاء الراشدين ،فإن علياً ما كان إلا رابعاً ! أليس كذلك؟ ».

. « أجل .. أجل! ».

. « وإذن ، فما عليك إلا أن تبر به! ».

. « هذا من الحتمي ».

. « وهذا يدعوك إلى التصديق بما يقوله .. هل تصدق بما يفوه به؟ ».

. « معاذ الله ، وكيف لا؟ ».

. « طيب ، فما عليك إلا أن تقرأ الخطبة الشقشقية ، ومن ثم بعدئذ سنلتقي ثانية .. أو بالأحرى ، فما أن تقرأ هذه الخطبة حتى تنتهي منها ، فحاول أن تعيد قراءتها ثانية وثالثة ، وتركز على جملاتها ، وتتأمل في معانيها ، ولا تضجر منها ، ولا تسأم من مفرداتها ، ولا تشعر بالارتياب من قول خليفتك أمير المؤمنين .. بل لا تحيلك الأوهام إلى مختلف أنواع التأويل ، بل لا يستاقك المنتهزون إلى حلبة صراع ليس فيها أية مساحة علك تخرج من باب يؤدي بك إلى خارج صالة اللعب .. وتفرغ من هذا الامتحان ، فيعربون لك عن ضرورة التخلي عن دراسة هذه الخطبة ، أعني الخطبة الشقشقية ، وأن تحري حقائقها كفيل بالإهانة إلى

عظام التاريخ ، وما كان في التاريخ ، فلندعه للتاريخ نفسه ، وما كان قد انقضى ، فإنه قد انقضى وولى .. إذن ، فليس لنا نحن الضعفاء أن نقلب في أوراق التاريخ ، ونقيم أبطاله ونستدرج أمجاده ، فنتقصاها حتى نستهدفها بالتقريع ، ونطالها بالتنديد ونحن نحسب أنا نحسن صنعاً ، بل لنا سنكون وكلما اقتربنا من الحلول وحسب توهمات تصوراتنا ، فإنا سنكون أقرب إلى الخروج من دين الله ونحن لا نشعر .. ».

صرت انتقد نفسي ، ما الذي حصل! ما الذي حدث؟ إنك تنتصر لهم ، فأين تقف الآن أنت ، مع من؟ بأي دين تدين ، هل تقف على الأعراف ..؟ كل هذه الأسئلة كانت تحوم في ذاكرتي ، وليس لها أن تبارح مخيلتي ، بل ليس لها أن تزايل حلقات أفكاري ، كما ليس لها أن تغادر ذهني والتعلق في زواياه كافة. وهل علي أن أتحقق من الأمر بنفسي وأنبذ القول السائد والعرف الشائع : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فأنتصر لمذهبي سواء كان ظالماً أو مظلوماً ، وأدافع عن أئمتي غاصبين كانوا أم لم يكونوا .. وإذن سأدخل مدخل أولئك الذين كانوا لا يقولون إلا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾. ليأتيني الجواب بعدها : ﴿ **أولو كان آباؤهم لا يعقلون ..** ﴾. ولماذا نؤمن بالتطور ، وإن آباءنا كانوا يعيشون في زمان لم نخلق نحن لأجله ، ونعيش اليوم نحن الآخرون في زمان لم يخلقوا هم الآخرون لأجله ، فكيف يمكن أن نناقشهم بمثل هذه المسائل ونعرض عن مناقشتهم واتخاذ قراراتنا النهائية وبأنفسنا في أعظم المسائل وأخطرها وهي الإمامة والاعتقاد ، ولب الأصول وأساس وجودنا في هذه الحياة لأ نه لو لم نكن موجودين، لكنا في طي العدم! ولما لم نكن كذلك ، فكان علينا أن نشكر المنعم على ما أولانا به من عنايته ،

فأخرجنا من حدود العدم وقيود الظلمة إلى فضاء الوجود وضياء النور ، فما كان علينا واجباً إلا شكره والامتنان له ، وما يكون ذلك إلا في اختيار ما اختاره لنا ، والامتثال لأوامره ، لأ نه لولاهلما كان لنا من وجود أصلاً . لذا ، فلما كان علينا أن نتمثل قوله : من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق ، كان علينا أن نتمثل مصاديقه المعكوسة أيضاً وليس عكس مفهومه ، وذلك من مثل : لا يطاع المخلوق من حيث يعصى الخالق! لذا ، ما كان علي إلا طاعته ، لأن المحب لمن أحب مطيع! حتى بقيت في مثل هذه الدوامة .. وكنت أريد أن أنتهي منها ، بيد أنها ما كانت لتنتهي هي الأخرى مني!

الفصل الثامن

الأخبار النبوية تعلن عن خلافة علي ومن دون منازع

وبعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام كان قد تعرض فيها طلال إلى نزلة برد ، لم يستطع في خلالها مغادرة الفراش ، وكنت أنا أعوده وأزوره بين الفينة والأخرى ، واتفقد حاله حتى إذا ما تماثل إلى الشفاء عدنا ومن جديد إلى مناظراتنا العقائدية ..ولقد كان هو متلهفاً إليها أكثر مني .. بينما جعل يقول لي :

ـ « إني أحس تجاهك وتجاه سائر إخواني بواجبات شرعية ، وذلك حينما يطالبونني هم بعقد مثل هذه الجلسات العلمية. بيد أن مثل هذا ما كان ليمنع فكري من أن يبحر عبر المسافات ، فيجتاز بأفكار الآخرين ، ويسابق الموج لديهم من دون أن يثير أيما زوبعة أو مد وجزر اصطناعيين بحيث يضايق أذواقهم ، ويصادر حرياتهم ، أو يعمل على تفتيت روح تحركاتهم الفردية ، وبالتالي يناكد سياحات اختياراتهم العقائدية .. إذ إن لكل فرد تلك الحرية الخاصة ، وذلك النبوغ الفني المعتد به ،والذي من خلاله يمكن أن ينتقي لنفسه طريقاً يعتبره ومن خلال تمتعه بكامل شرائط ومقومات الانتخاب الذاتي منهجه العقائدي وإنتماءه العلمي ليس إلا. ومن بعد ذلك فكل منا سيكون مسؤولاً عن مقالته! ».

وإذا ما كنا قد انتخبنا هذه المرة مكاناً يحاط بمجموعة لا بأس بها من الكتب والمجلدات ، فإنا كنا قد غدونا حينها على كامل الاستعداد لكي نبدأ

محادثاتنا العلمية ومناظراتنا الفكرية .. قال لي :

ـ « ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف أبى أن تكون أسماء بني علي إلا كأسماء بني هارون فسماهم حسناً وحسيناً ومحسناً . وقال : « إنما سميتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر » حتى أراد بهذا تأكيد المشابهة بين الهارونين وتعميم الشبه بينهما في جميع المنازل وسائر الشؤون » [1].

مع كل هذا شعرت بأن علي أن أواصل مجال هذه المناظرات ، ووفقاً لكامل ما تنطبق عليه شروط عقد مثل هذه الجلسات العلمية حتى ولو كانت على مستوى شابين من الشباب ، يحدوهما الأمل للوصول إلى نتائج مشرفة ترضي كلا الطرفين .. ليكون الاطلاع على فصلها وفي المستقبل حائزاً على الرسمية ، وعنواناً لكل مصداقية لها أن تحمل قالب القانونية وتتزيا بثوب وحلة الصيغة الأكاديمية أو النظرية ..بعيداً عن أيما تعصب يمكن أن تثيره الاجواء ، وبمنأى عن أيما حساسيات ليس لها أن تغني أو تسمن من جوع ، بل إنها كانت في جو يسوده الحب الإلهي ويملؤه الود الكريم حتى كنا نتمنى لو كان كل أفراد العالم يلجأون إلى حل مشكلاتهم العلمية والعقائدية والسياسية بنفس الطريقة التي كنا قد انتخبناها وعولنا عليها كل نجاح وآخر ..فضلاً عن التزامنا بصور كافة الطموحات التي لا تنزع إلا إلى بلوغ شواطئ الاطمئنان وضفاف الهدأة من كل عناء .. فما كانت تلك الأبحاث لتحيلنا إلى إنزال كل غيظ ولعنة على الطرف الآخر ، أو تربص أيما حالة نكوص أو ضعف من قبل

---

(١) المستدرك ٣ : ١٦٨ ، ٢٦٥ وصححه على شرط الشيخين ، مسند أحمد ١ : ٩٨ ، الصواعق المحرقة : ١١٥.

الجانب الآخر كيما يكون لأحدنا أن يستغلها ، فيوجه إلى الخصم (مع إنه لا يوجد في كلا الطرفين أيما تسويغ يعين على ترويج مثل هذا المعنى والمصطلح عموماً) بأقدر لكماته وأفتك صفعاته ، بل يصير إلى إثارته والاستهتار بشخصه وعقائده ، والحط من تعاليمه ، ويصمه بأنواع الخصال المشينة .. وهذا مما كنا قد تعاهدنا على أن تربأ عنه نفوسنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .. بل أصدق الله الحديث ونفسي ، وكل من يسمع مقالتي ويقرأ أحاديثي أنهما كان أي من هذا الحديث لتفوح منه روائح مثل هذه التفسخات الخلقية العفنة والسقيمة .. فكان الأمر لا يعدو مسألة علمية ، بل أشبه بأي قضية يمكن أن تعترض أيما طالبين جامعيين ، فيفزعا إلى حلها بمختلف الطرق ، والتحقيق في أصولها .. بل إنها أشبه بقضايا جنائية واحداث وجرائم ، فكيف كان يمكن ان يجتمع فريق من المحققين الجنائيين لبحثها والتعاو ن فيما بينهم للتوصل إلى حلول تنصع فيها النتائج عن صور تبشر بكل خير ونجاح ، فلا تنزع عن كلال ولا عن سأم حتى ولو كان ثمة اختلاف في الرأي ومفارقات (ولو كانت جسيمة الهوة وعظيمة الشق) في وجهات النظر .. فإنه ما كان لمثل ذلك إلا أن يكون نعمة تسوق إلى تلاقح أفكار الرجال من بعد عرضها على محكات مختلفة في الكيفية والكمية ، لسوق حصائلها ومن بعد ذلك الى سوح ترزح بأنواع من النتائج والاحتمالات الكفيلة بإماطة كل لثام عن وجه الحقيقة ، وإضاءة كافة زوايا المسرح الذي كان للأحداث أن تتحرك من خلاله وفوق مساحات أرضيته .. بل إن لها أن تعيدها إلى لون النظر بنفس الصيغة التي تطابقت بها مع عين الواقع الذي ليس له أن يتحف نتائج التحقيق الحاصلة من

جهود متكاتفة ، بعضها مع البعض الآخر بأيما نقص أو ضعف أو حتى فشل ولربما عنيت به الصفات المريعة باختيار لطخة ما تقذفه به كيما تنعته بها فيما بعد وتقوض صلاحية تلك الجلسات الفكرية ، والاجتماعات العلمية فضلاً عن تلك الندوات العصرية والحوارات المدنية والملتقيات الحضارية المشعة بألوان الحرية ، ونبذ التعصب ، ونفي الجاهلية الأولى ، ومواكبة التقدم الفكري والصناعي. إذ أن القضايا العقائدية أولى من غيرها بمواكبة مثل تلك الأنشطة الحضارية الفاعلة ، لأ نها أساس التحصيل الذي تقوم عليه معايير التقدم وموازين التطور التي يمكن أن تدخل في كافة الأجهزة العلمية والميادين الإدارية والمرافق الصناعية والمنشآت الفكرية لا سيما وحداتها البنائية والمفردة منها على سبيل الآحاد : ذهن الإنسان وعقل المرء التي يمكن لحيوياته المتدفقة عبر سريان قوة العصر ولهيب الحماس الإلهي الذي يضوع برائحته قلب الفطرة الحقيقي لا بد له وبالنهاية أن ينزل عند مثل هذه المناظرات الأخوية ، ويسلم بنتائجها على صعيد الجلسات المتعددة حتى التي منها ما يمكن أن لا تنتهي بأيما صورة حل ، إذ أن السعي على قدر الممكنات ، كما هي الأعمال بالنيات ، ذلك أنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم وما التوفيق إلا من عند الله! كذلك كان حوارنا يهدف إلى رسم صورة حقيقية عن منازل التاريخ ، وصور الأزمنة الغابرة ، وتعرية الحوادث الأليمة ، ومسابقة حركية من أجل وضع الموازين العرفية وصبغ الواجهات التي لم يمسسها إنس ولا جان من قبل من أجل وضع العلامات المرشدة عليها ، وتوجيه البشرية نحو طرق الصواب وإرشادهم نحو سعادة الدارين وأ نه ليس

ثمة شقي إلا من كان قد استبد برأيه ، وما فاز إلا الصادقون الذين إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم لم يخروا عليها صما وعمياً وبكما ..بل كانت لها أن تزيدهم نوراً وهدى وكرامة من لدن البارئ الأول والآخر والظاهر والباطن ..

قال ، وهو يحاول أن ينفحني بما استودع به ذاكرته :

ـ « فيما أخرجه المحدثون بطرقهم الصحيحة عن رسول الله ﷺ ودونك : ص ٢٦٥ و ١٦٨ من الجزء ٣ من المستدرك ،تجد الحديث صريحاً في ذلك ،صحيحاً على شرط الشيخين. وقد أخرجه الإمام أحمد أيضاً من حديث علي في ص ٩٨ من الجزء الأول من مسنده. وأخرجه ابن عبد البر في ترجمة الحسن السبط من الاستيعاب ، وأخرجه حتى الذهبي في تلخيصه مسلماً بصحته مع قبح تعصبه وظهور انحرافه عن هارون هذه الأمة وعن شبرها وشبيرها. وأخرج البغوي في معجمع وعبد الغني في الإيضاح، كما في ص ١١٥ من الصواعق المحرقة المحرقة ، عن سلمان نحوه ، وكذلك ابن عساكر ».

ومن بعد أن راجعت بعض المصادر وأو كلت بعضها إلى ما بعد انتهاء المجالسة ، فلقد اكتفيت بتلك التي وجدتها مطابقة للواقع الذي ذكره .. بينما عدت إليه أسائله :

ـ « أنت ذكرت أن رسول الله ﷺ كان قد أراد بهذا تأكيد المشابهة بين الهارونين وتعمى الشبهة بينهما في جميع المنازل وسائر الشؤون؟ فهل أنه لهذه الغاية نفسها كان قد اتخذ علياً أخاه؟ ».

فقال لي :

. « وأكثر من هذا ، فإن كان قد آثره بذلك على من سواه ،تحقيقاً لعموم الشبه بين منازل الهارونين من أخويهما ، وحرص على أن لا يكون ثمة من فارق

بينهما. وقد آخى ﷺ بين أصحابه مرتين. فكان أبو بكر وعمر في المرة الأولى أخوين ، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف أخوين ، وكان في المرة الثانية أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، أما علي فكان في كلتا المرتين أخا رسول الله ﷺ ولولا خوف أن يضيق بنا المقام عن استقصاء ما جاء في ذلك من النصوص الثابتة بطرقها الصحيحة عن كل من ابن عباس ، وابن عمر ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن أبي أوفى ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، ومخدوج بن يزيد ، وعمر بن الخطاب ، والبراء بن عازب ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم. وقال رسول الله : « أنت أخي في الدنيا والآخرة » [1].

ولقد كان قد أخذ برقبة علي وهو يقول : « إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا » [2].

بينما تابع حديثه وآيات التعجب مرسومة في قسمات وجهي الذي صار يترجم كل لحظات الصدق التي صرت أحتسي معانيها في هذا الوقت حتى صار يقول :

. « وخرج ﷺ على أصحابه يوماً ووجهه مشرق ، فسأله عبد الرحمن بن عوف ، فقال : «بشارة أتتني من ربي في أخي وابن عمي وابنتي بأن الله زوج علياً من فاطمة .. « ولقد أخرج الحديث أبو بكر الخوارزمي ، كما في الصفحة : ١٠٣

---

(١) المستدرك ٣ : ١٤ وصححه ووافقه الذهبي ، الصواعق المحرقة : ٧٢.

(٢) أخرجه كثير من الحفاظ كابن اسحاق ، والطبري ٢ : ٢١٧ ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في سننه وفي دلائله ، وأبو الفداء ١ : ١١٦ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ٢٦٣ وفي شرح الخطبة القاصعة ٣ : ٢١٨ ، والسيرة الحلبية ١ : ٣٨١ ، كما نقله بعض المستشرقين كالانجليزي جرجس ، وتوماس كادليل في كتاب (الأبطال).

مـن الصـواعق. ولمـا زفـت سـيدة النسـاء إلى كفوئهـا علـي بـن أبي طالـب ، قـال النـبي ﷺ : « يا أم أيمن ادعي لي أخي ، فقالت : هو أخوك وتنكحه؟ قال : نعم يا أم أيمن ، فدعت علياً فجاء .. » [1].

. « وهل له إشارات إليه غير التي ذكرت؟ ».

. « وكيف لا؟! فكم أشار إليه ، فقال : « هذا أخي وابن عمي وصهري وأبو ولدي » [2].

وخاطبه يوماً في قضية كانت بينه وبين أخيه جعفر وزيد بن حارثة ، فقال له : « وأما أنت يا علي فأخي وأبو ولدي ومني وإلي » [3].

وقد عهد إليه يوماً ، فقال له : « أنت أخي ووزيري تقضي ديني وتنجز موعدي وتبرئ ذمتي .. » [4].

ولما حضرته ﷺ الوفاة ، قال : « ادعوا لي أخي .. » [5].

وكان علي يقول : « أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب ».

عندها وقفت عيناي كأنهما ثبتتا في محجريهما وتسمرتا ، بينما رجعت إليه وعلى وجه السرعة ، وأنا أقذف إليه بالكلام وعلى مطلق الاسترسال :

---

(١) المستدرك ٣ : ١٥٩ وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص ، الصواعق المحرقة الباب الحادي عشر.

(٢) كنز العمال ٦ : ٤٠٢ ح ٦١٠٥.

(٣) المستدرك ٣ : ٢١٧.

(٤) منتخب الكنز ٥ : ٣٢ عن الطبراني في معجمه الكبير.

(٥) الطبقات الكبرى ٢ : ٥١ ، كنز العمال ٤ : ٥٥.

. « عدها علي ثانية ، أقصد! .. كرر ما قلته .. ، هذه الجملة ، أعد علي ذكر الخبر .. الصديق .. ».

قال :

. « قال : .. وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب » [1].

بدت على وجهي علامات الدهشة ، لم أستطع أن أكبح تلك الافرازات التعبيرية التي جعلت ترتسم وببساطة فوق محياي ، لم يكن بوسعي أن أتلافى نظراته، كان يحسن الالتفات إلي ومراقبتي بحذر ، بيد أنه ما كان بميسوره الاستمرار بذلك ، كأنه ما كان يحب التطفل على غلبة مشاعري وحرب عواطفي مع قوى العقل التي جعلت تطحن وبشراسة كل مقاليد الأمور لتنسحب بعد أن تخلف في القلب كل شاغر من الأماكن التي له أن يحتلها فيما بعد وبكل بطولة وحماسة! قد شعرت بأن كياني كله كان يأخذ بالركوع ، بالسجود لكل هذه القيم والمبادئ ، بل لكل هذه المعلومات والأخبار ، إنها شرسة بقدر ما كانت وفي الوقت نفسه عظيمة ، رائعة ، باردة كبرودة أيام الربيع الطيبة ، ودافئة كدفء أوائل أيام الشتاء! إلاأني كنت أرتب أوراقي على عدم الانسحاب من جولات الصراع الفكري هذا ، إلا وأنا راضي الوجدان ، مرتاح الضمير والبال ، هادئ الأعصاب ، ساكن الخلائج حتى أركن إلى نقطة أخرى فأنطلق من عندها بعدما يتيح لي الوقت متسعاً كافياً كيما أختزن ما وجدته هذه المرة! ولقد شعر بضرورة متابعة الحديث ، فعمد إلى المواصلة ، وقال :

. « .. وقال كذلك : والله إني لأخوه ووليه ، وابن عمه ووارث علمه ، فمن

---

(١) الخصائص العلوية للنسائي ، المستدرك ٣ : ١١٢ ، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٥ : ٤٠.

أحق به مني » [1]؟

وقال يوم الشورى لعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير : « أنشدكم الله فيكم أحد آخى رسول الله ﷺ بينه وبينه ، إذ آخى بين المسلمين غيري؟ قالوا : اللهم لا »! أخرجه ابن عبد البر في ترجمة علي من الاستيعاب. وغير واحد من الاثبات.

ولما كان قد برز للوليد يوم بدر، كان قد قال له الوليد : من أنت؟ قال علي : « أنا عبد الله وأخو رسوله » [2].

كما وسأل علي عمر أيام خلافته ، فقال له : أرأيت لو جاءك قوم من بني اسرائيل ، فقال لك أحدهم : أنا ابن عم موسى ، أكانت له عندك إثرة على أصحابه؟ قال : نعم. قال ، فأنا والله أخو رسول الله وابن عمه ، فنزع عمر رداءه فبسطه ، وقال : والله لا يكون لك مجلس غيره حتى نتفرق ،فلم يزل جالساً عليه ، وعمر بين يديه حتى تفرقوا ،بخوعاً لأخي رسول الله وابن عمه! [3].

كما أمر ﷺ بسد أبواب الصحابة من المسجد تنزيهاً له عن الجنب والجنابة ، لكنه أبقى باب علي ،وأباح له عن الله تعالى أن يجنب في المسجد، كما كان هذا مباحاً لهارون ، مما يدل ذلك على عموم المشابهة بين الهارونين عليهما السلام ، قال ابن عباس : وسد رسول الله ﷺ ، أبواب المسجد غير باب علي ،فكان يدخل المسجد جنباً وهو طريقه ، ليس له طريق غيره ».

---

(١) المستدرك ٣ : ١٢٦.

(٢) الطبقات الكبرى ٢ : ١٥ من القسم الأول.

(٣) أخرجه الدارقطني في المقصد الخامس من مقاصد آية المودة في القربى والهيتمي في صواعقه : ١١٧.

تريثت قليلاً حتى قلت له ، وأنا أضرب إلى صرف النظر عن كل ما كان قد اعترى أفكاري للحظة ، وذلك كيما أركز على هذه المسألة : ترى أيجوز أن يدع علياً وحده يفعل مثل هذا ، ولا يؤمره بعدها على البلاد الإسلامية من بعد أن يرحل عن هذه الدنيا؟! إنه أمر ليبعث على الدهشة إن لم يفعل ، ولكن لم لم تصبح كل هذه الأخبار دلالات قوية لنا نحن أهل السنة ، كيما نتشبث بعلي ونترك التمسك بغيره .. غيره؟! (عندها التفت إلى نفسي أسألها عين ما ساءلتها من قبل : مع من أنت؟ لاي جانب تنتصرين؟ لا تقولي أنتصر لجانب الحق ، فإن الحق وإن كان له أن يغدو ذات يوم بيناً ، فإني ما أراك إلا ضعيفة في اتخاذ القرار حتى ولو كنت قد اطمأننت إلى نصيبه .. من كل هذه المخاصمات والمحادثات ..) حتى إذا ما أردت أن افوه بشيء ما ، كان هو قد أسعفني بالكلام ، وهو يقول :

. « هذا الحديث طويل ، فيه عشرة من خصائص علي ..آمل أن تتعرف عليه كاملاً ذات يوم .. ».

بينما كان له أن يسهب في الحديث هذه المرة ، فجعل يقول وهو يردف الكلام تلو الآخر :

. « وقال عمر بن الخطاب من حديث صحيح ورواه عن كل من عمر وابنه عبد الله غير واحد من الإثبات بأسانيد مختلفة. حيث جاء فيه قوله ، أعني قول الخليفة عمر بن الخطاب :لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاثاً ، لأن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم : زوجته فاطمة بنت رسول الله ، وسكناه

المسجد مع رسول الله يحل له ما يحل له فيه ، والراية يوم خيبر » [1].

فعل رسول الله ذلك ولم يعترض عليه أحد من أصحابه؟.

وكيف لا؟ وهم ما كان لهم أن يؤمنوا برسول الله إيمان المذعن ، والمسلم لقوله وفعله وتقريره على أنها سماوية لدنية وبشكل مطلق! فلقد ذكر سعد بن مالك بعض خصائص علي ، في حديث صحيح أيضاً ، فقال : وأخرج رسول الله عمه العباس وغيره من المسجد ، فقال له العباس : تخرجنا وتسكن علياً؟ فقال : « ما أنا أخرجتكم وأسكنته ، ولكن الله أخرجكم وأسكنه » [2].

كان يتحدث وينظر إلي بامعان وحدة ، وكأ نه كان يفهم قصدي ، وذلك بعد أن سألته قائلاً :

. « وهل تكلم الناس في ذلك ، أعني أنه هل اعترض عليه آخرون؟ ».

فقال لي :

ـ « نعم! قال زيد بن أرقم: كان لنفر من أصحاب رسول الله أبواب شارعة في المسجد ، فقال رسول الله ﷺ : سدوا هذه الأبواب إلا باب علي ، فتكلم الناس في ذلك! فقام رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي ، فقال فيه قائلكم (وهنا كنت المح في عينيه نظرات ساكنة ، يمكن أن تفي بألف مغزى ومعنى!) وإني ما سددت شيئاً ولا فتحته ، ولكني أمرت بشيء فاتبعته » [3].

وكأني أشعرته بأ ني ما زلت أطالبه بالمزيد من الأخبار عن هذا الحدث ،

---

(١) المستدرك ٣ : ١٢٥ ، الصواعق المحرقة : ٧٦ ، مسند أحمد ٢ : ٢٦.

(٢) المستدرك ٣ : ١٧.

(٣) مسند أحمد ٤ : ٣٦٩.

فقال وهو يستدرك كلامه :

ـ « كما أخرج الطبراني عن ابن عباس ، حيث قال : إن رسول الله ﷺ ، قام يومئذ ، فقال : « ما أنا أخرجتكم من قبل نفسي ، ولا أنا تركته ، ولكن الله أخرجكم وتركه ، إنما أنا عبد مأمور ، ما أمرت به فعلت ، إن اتبع إلا ما يوحى إلي » [1].

فقلت له عندها :

ـ « كنت كمن أخبرني بأن سد الأبواب هذا كان يرتبط بموسى وهارون ..أليس كذلك؟ ».

ـ « أجل ، عن سعد بن أبي وقاص ، والبراء بن عازب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وحذيفة بن أسيد الغفاري ، قالوا كلهم ..وذلك فيما أخرجه عنهم جميعاً علي بن محمد الخطيب الفقيه الشافعي ، المعروف بابن المغازلي في كتابه : المناقب للخوارزمي ، وبالطرق المختلفة ، بينما كان قد نقله الثقة المتتبع البلخي في الباب ١٧ من ينابيعه. حيث قالوا كلهم : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد ، فقال : « إن الله أوحى إلى نبيه موسى أن ابن لي مسجداً طاهراً ، لا يسكنه إلا أنت وهارون ، وأن الله أوحى إلي أن ابني مسجداً طاهراً لا يسكنه إلا أنا وأخي علي ».

. « إذن قضية موسى وهارون ، وعلي ورسول الله ، كان لها ارتباط عميق؟ ».

. «جداً وإلى حد عظيم! بينما ليس بوسعي أن أستوفي كل ما جاء بصدد

---

(١) الصواعق المحرقة : ٧٣.

ذلك في النصوص الثابتة عن كل من ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، وزيد بن أرقم ، ورجل صحابي من خثعم ، وأسماء بنت عميس ، وأم سلمة. ».

عندها قلت ، وأنا أقطع عليه سلسلة الكلام :

. « أسماء وأم سلمة .. ».

ـ «أجل ، فإن لهن نصيباً من حمل الأخبار وترويج علوم الرسالة! .. نعم ، فكنت أقول : وأم سلمة ، .. وحذيفة بن أسيد ، وسعد بن أبي وقاص ، والبراء بن عازب ، وعلي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر ، وأبي ذر ، وأبي الطفيل ، وبريدة الأسلمي ، وأبي رافع مولى رسول الله ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهم. وفي المأثور من دعاء النبي ﷺ قال : « اللهم إن أخي موسى سألك ، فقال : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ،واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ،واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، أشدد به أزري ، وأشركه في أمري. فأوحيت إليه سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً ، اللهم وإني عبدك ورسولك محمد ، فاشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي » [1].

بينما تابع كلامه وقد شعرت بأن التعب قد استبد به هذه المرة ، وكأن آثار المرض لم تكن قد زالت عن جسمه بعد وبشكل كامل! حتى كان له أن يكمل ما أراد البوح به ، فقال :

. « ومثله ما أخرجه البزار من أن رسول الله ﷺ، كان قد أخذ بيد علي ، فقال : « إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون ، وإني سألت ربي أن يطهر

---

(١) تفسير الثعلبي عن أبي ذر.

مسجدي بك .. ».

عندها انتابتني رعدة هزت أوصالي ، وعصفت بكياني .. لا أدري لماذا ، وكأن قشعريرة ثلجية استبدت بكامل أعضاء بدني ، وهي لا ترى أن تغادره ،حتى أسعفتني دفء كلماته ، وذلك حينما شعر بأن وطء القضية قد أبهضني حتى عدت لا أحتمل تصور الموقف .. ترى مع من أكون الآن؟ أو مع من أنا حقاً؟! فقال وهو يكمل حديثه :

ـ « نعم! كنت أقول .. وإني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك ، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سد بابك ، فاسترجع! ».

. « استرجع؟! ».

سألته ، وأجابني بنفس السرعة التي بادرته بها :

. « أجل! ثم قال : سمعاً وطاعة ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ، ثم قال ﷺ : « ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي ، ولكن الله فتح بابه وسد أبوابكم ».

الفصل التاسع

مخالفة الشيعة حتى ولو كان ذلك على حساب الشريعة

كنا أشبه بالمغترين إلا أن حالة الاغتراب هذه تضاعفت حالما وجدنا أنفسنا خلواً من أيما هدف أو شعلة يتوخى المرء من خلالها تبيان مقاصده واستجلاء طرائقه. غير أن نسيج الزمن الذي جعل سلخ تباعاً كان له هو الآخر أن يفقد وبمرور الأيام وكرور الساعات شيئاً من بريق وجهه الذي صار يلتهب حتى صار يضحي بلآلئ لمعانه .. فكيف لها أن تذوب دون أيما إذلال للون من إمعان النظر وإنعام البصر لأ نها بدت باهتة الألوان .. لم يكن كل هذا ليعني لي أني قد غدوت دون هدف حتى وجدت نفسي البث دون حراك أمام مساءلات عقائدية وتاريخية ، ظلت تمور في دواخلي ، وهي ما تزال تنبثق وتنمو كأنها سحب دفنتها الدهور في أغوار الأرض ، فإذا ما عتقت الأيام زال التراب إثر الإنجراف وحملات التعرية الطبيعية ، لتبدو بعدها تلك السحب الأرضية واضحة حتى صار لها أن تنتفخ لعد لفحة حبس دامت طويلاً ، كانت قد قضتها محتجزة في داخل الأرض عبر سلاسل وقيود مختلفة ، إذ كانت ترسف في ربقة اغلالها كل تلك الأيام حتى إذا ما استتب لها الوضع انتفخت وطارت إلى أعلى ، لتمكث هناك وهي تلوح للجميع بقرب نثر التقدمات والهبات على رؤوس الخلائق كافة .. غير أني ما كنت أشعر بأ ني لا أمتلك أيما هدف ، يمكن له ان يتحرك في عباب أعماقي ، بل إني ما كنت لأفيق من سكرة

حتى أشعر بأن نبضاً جديداً قد صار يدفق إلى مسامعي ، كيما ينسخ ويصحح ويرقى بي بالتالي صوب أعلى قنة ، لأصير بعدها أتطلع ومن علو دون الحاجة إلى أن أدفع بعنقي هذا إلى أعلى ، عله يشرئب بي فاصير أشرف على فوهات تلك الأحلام الجديدة والأهداف القصية. ولذلك ، فما كان مني إلا أن أعيد جردي لكل حساباتي السابقة ، وأوراقي التي مضى عليها زمان ليس بالبعيد ، فأنا الذي كنت وما زلت أشتغل في كتابة القصة ، وأنهمك في مجلاتها وخصائصها حتى صرت أعاقرها كما يعاقر مدمن المشروبات الخمرة حتى صار ملهاً ببنت العناقيد!

أصبحت أتخلى عن كل اهتماماتي ، وأطوي كشحاً عن كل اتجاه ، ريثما أعثر على طريدتي ، وأضع اليد على ضالتي التي أطاردها ، أو بالأحرى ، فإني كنت أحس أنها قريبة مني جداً وإلى حد يصعب معه أن أبصرها أو أقنصها بحدقتي الثنتين. فلئن جعل الرب ينسخ دينه وبعضاً من شريعته ، وحسبما يقتضيه لسان حكمته ، وثوب الصلاح الذي يراه لعباده ، فإني شعرت بأن الأجواء حولي تثير زوبعة من الزوابع تثبت أن البشر قد غدوا ينشطون وبانفسهم من أجل نسخ شرائعه ، ومن دون الرجوع في ذلك إلى الله نفسه ، واستحصال الإذن منه بذلك ، ومن دون أن يختارهم هو لهذا الأمر ، أو يأمرهم به ويندبهم لأجله! والأشد والأقسى من هذا كله ، هو أن الربوة التي تسنم قنتها هؤلاء الأشاوس من الذين أذهلتهم إمكاناتهم الدنيوية واستعداداتهم المادية ، قد ظنوا أن بوسعهم أن يكايدوا على الدين ، وبلون عصري منمق ، ومن دون إشعار يمكن أن يثير الأخرى ، ويستوفزهم بشيء من أطراف هذه المناكدة حتى إذا ما برق البصر ، وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، كان للوافدين عندها

أن يحسوا بما فعله الغابرون من البشر ، ويشعروا بما أجرمه الماضون من السلف! ذلك أن الأخيرين ما كانوا إلا ناسخين لشرعة الرحمن ومن دون الإعلان عن نسخ الآيات القرآنية من قبلهم ، فإن كان الرسول يعلن أمام الملأ أن الله قد دفع إليه بوحي من لدنه يقضي بنسخ الحكم الفلاني ، وبعث الحكم الآخر ، فإن هؤلاء ما كانوا ليعلنوا كذلك! بل شرعوا ينسخون ومن دون التصريح بأ نهم هم الناسخون أصلاً ، إنما جعلوا يلصقون كل ما وسعهم إلصاقه بجد كل متقي : رسول الأمة! وإن وحيه كان قد نسخها. وهذا ما يمكن أن يذكره فلان وفلان من الرواة ، حتى صاروا يحدثون بأ نه لو كان لديكم أيما شك فأتوا بهم على أعين الأشهاد من الملأ ، كيما يقرؤونكم ما سمعوه من رسول الإسلام حتى مثل بين يدي الناس عشرات من هؤلاء الذين ألهبت بطونهم حرارة الدراهم حتى جعلوا لا يفهمون كيف يكذبون على سيد الرسل انصياعاً لغايات هؤلاء المتنفذين .. وإذا ما ضاق بهم الحال والانتظار ، ريثما يحل الصيف والشتاء ، ويغدو عليهم من ينتحل لهم الروايات ويؤسس لهم نظرية إبداع وخلق الحكايا عن أقوال الرسول الأكرم ، طفقوا يعلنون عن تحريمهم لفلان سنة ، وكذا شريعة لأن المصالح تدعو إلى نبذها في الوقت الحاضر ، ذلك أن الماضى ولى وولت معه كل مواريثه التي كان يحتاج معها إلى مثل هذه الأحكام ..ظناً منهم أن الطريق إلى كسر شوكة الهاشميين هي أقرب طريق إلى تدعيم شوكة حكوماتهم من حيث مخالفة كل ما جاء به عميدهم علي بن أبي طالب! ليغدو بعدها كل راو حتى ولو لم يكن قد رأى الرسول أو آمن بالإسلام إلا حين كان لرسول الله أن يرحل إلى الرفيق الأعلى ، أو من قبل أن يتوفاه الله بعدة شهور أو بسنة أو اثنتين مثلاً ، فإن لقول مثل هذا أن

يصبح يضاهي قول علم الهواشم من آل الرسول ، ويقف نداً له في تصويب الرواية وتصحيح مقالة رسول الله!

لقد طرأ كل هذا على نفسي في لحظة واحدة من اللحظات ، أحسست في أثنائها أني قد أصبت بلوثة ما ، ترى هل يصح ما جعلت أفكر به ، هل يمكن أن يحدث مثل هذا ، أم أن ما حصل ومن قبل ، هو عين ما كان له أن يلتمع في ذهني حتى اعشوشبت أزاهيره وأخضرت مزاهيره في مخيلتي ، فبدت مغروسة في عروقي ، مزروعة في نفس تلك الحدائق التي ظلت أصص الأوراد تداعب تخومها بألوانها المتراقصة ما بين عذب الإنسان وأريج العبائر الفواحة من أقاصيها المنتصبة ببهجة وسعادة.

وفجأة تناءى إلى سمعي الخبر! فإن قاسماً قد استبصر ، ويحه! ألم يعش دهراً معي ومن قبل ، وهو ما يشغله سوى ذم هؤلاء الشيعة ، والتفكير في أيما وسيلة للقدح عليهم والتقريع على عقائدهم ..لقد كنت عنه في شغل شاغل كل هذه الفترة ، وما كنت حين أفكر كيف أنه لم يفتقدني كل هذه المدة ، أو لم لا يضيره ما يراه من لقاءاتي المتكررة وحواراتي المتعددة مع طلال عبد الواحد .. بل أين كان كل هذه المدة ، وكأ ني حقيقة كنت عنه في شغل شاغل .. إلا أنه هو الآخر لربما كانت تشغله عني أغراض مختلفة .. بيد أنه هو نفسه الذي ما كان قد طال به الأمد حتى شعرت به وكأ نه كان قد استغل أيامه أجمع كيما يسقيني كل نفثات العلوم المضادة لهؤلاء ، بل كلّه كان قد جعل أيام عمره وقفاً على مناوأة الجمع الشيعي. ولقد كنت أجالسه وأماشيه .. ولعل كل منا كان له أن يتوكأ على آراء الآخر ، ويستند إليها! بينما كان لنا أن نستقيم كلما وجدوا أنفسنا تحيا بفعل حيوية كلام الآخر وأنفاس عباراته. وما كان

ليريبني أيما إحساس قط حياله ، إلا ما كان قد نبغ الآن ، وجعل ينجم في لحن فراستي من أوهمني أنفقد غدا فريسة لملاعب تلك الغربة التي أن تضحو سماً يطارد الأفعى نفسها بفرية لا تعرفها سوى هذه الفرقة! ولا أعدو إلى هذا الكلام إلا لأ نه طالما كان يذكرني بأمثال هذه الجمل والألفاظ حتى خلته ما كانت أمه قد أولدته إلا وهي تلحن بمثل هذا الكلام! بينما ما كانت تغدو أفعى لسانه إلا ممن صار عليها ومن المحتم أن تخاف على نفسه من لدغة نابها هو وبحد ذاته .. فهل أن قاسماً هذا ، كان قد ملأه الغرور وإلى حد ضجت به الأيام حتى صار يجنح إلى تعمد أغاضتي ، وإشباعي بكلمات ليس لي أن أصحو بعدها ومن تلقاء نفسي إلا أثر وخز يتعاهد أحدهم صنعه. ولئن فعلت ، وصرت أصحو وبحسب بدهيتي ، فهل لي أن أنسى وقع الأسى الذي اختفى لحنه في داخل كل أعضاء بدني ، وصار يفيض الماء من كل مسامات جلدي حتى له أن يتقشر ويتفصد بعد ذلك عرقاً .. وهو الذي انتقلت جدرانه إلى حالة مشبعة باليباس وذلك إثر نوبات من الجفاف. وها هو ينبت قطرات مالحة ، ليس لها أن تعتاش إلا على تمرير أكف أغضبها الأقربون قبل الأباعد ، تساءلت في قرارة نفسي ، والألم يعتصر فؤادي :

ـ « كيف لك يا قاسم أن تفعل فعلتك ، أو تقدم على مثلها ، لقد آمنا بضرورة التنفس تحت سماء واحدة ، فإذا ما أردنا الاقلاع عن التدخين ، أقلعنا سوية ،أليس كذلك؟! أووه! ».

هل كان قاسم يمثل لي ضوء الحلبة التي يتنافس في داخلها المصارعون المهووسون بنتائج نزالاتهم تلك؟ وهل كان وجود قاسم إلى جانبي يمثل لي سلوى تسري عن آلامي ومآسي أوجاعي ، أم كان له أن يعبر لي عن دواء

ناجع ، يمكن له أن يشفي قروحي ، ويرقأ جروحي التي ظل الزمان يتعاهدنكئ جروحها كلما غارت في عمر الأيام وخلتها قد اندملت؟ أم أن حضوره في نفس المكان ، كل هذه الأوقات ، كان يعد بلسماً ينسيني أسقام غربتي هذه التي ما زلت أعيشها وعلى مضض ، لا أنهض بأعبائه إلا كما أنهض بلون من ألوان العناء ، كان قد أبهضني تحمل طول رسوخه وعدم زواله .. ، بل إن الانتماء إليه كان قد شدد بضرباته إلي حتى أورثني الكثير من الندم وألحق بي ومضات الحزن الواحدة تلو الأخرى ، وكأ ني قد صحوت فجأة على حقيقة مفادها فهل يمكن لقاسم أن يؤثر على طبيعة الاتجاه الذي أتحرك في خلاله ، أم هل له أن يطغى بأفعاله أو سلوكياته على كل تصرفاتي ليصل الحد إلى أني لم أتشيع أو أستبصر ، ذلك أن قاسماً لم يفعل .. إن مثل ذلك ما كان ليمثل بالنسبة لي إلا كل هراء وتهريج ليس أكثر. فكان قاسم يعبر عن عزائي في غربتي ، وسلواي في عزلتي ، ومن بإمكانه أن يسري عني آيات الحزن ، وذلك عندما كنت قد نأيت عن مسقط رأسي ، وحلاوة تغذي أعصار أيامي التي نزحت عن موطن آبائي .. ولكن ، ما جعل يعتصرني أكثر فأكثر ، هوأنه كيف بدت منه الجرأة ، كل هذه الجرأة وأعلن عن استبصاره ، وصرح بتشيعه؟ إلا إني عللت النفس بأن قاسماً هو إنسان سرعان ما يؤخذ بالمظاهر حتى إذا ما استحل غياض مرتع ما ، من بعد أن وجده خصباً ، وذلك حينما لا يكون ثمة من مروج غناء تفوق في الحسن فيكلف بها ويشغف .. حتى إذا ما وجد الآخر عدل عن رأيه في الأول ، وانتقل إلى الثاني. فهل أقصد من ذلك أنهيمكن أن يعود يوماً ما إلى مذهبه السني أم أنه ينتقل ربما وفي ذات ليلة إلى حضن مذهب مسيحي ، يصير يرعاه ويغذوه بفنون الأقانيم الثلاثة حتى تجعل منه يشهد المراسيم

الكاثوليكية ، ليخلط بعدها بين عزاءات الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية ، ويتيه بناظريه قبل أن تضطرب دقائق الهواء ، وتهتز صفحات الفضاء في داخل مناحي أذنيه ، فيصوب عندئذ بناظريه إلى أعلى ، حيث يصير يرى إلى تلك الأجراس التي تصير تعمل أصواتها في كل الأرجاء .. ليفيق بعدها من سباته ، ويعود إلى حياض مراتعه الحقيقية ، ويعلم أن الدين ليس ألعوبة ، وأ نه ليس لكل من يضرب على الطبل ، ويغري بالأصوات ، ويعلي بصرخاته ، أن يكون هوالأصح! وهو صاحب الطريقة اللأحبة والمنهج الواضح. فلو كان الأمر كذلك ، لو أن كل سوفسطائي هو بحق أول من له أن يتربع على عرش البطولة ، ويتصدر مقامات الدرجة الأولى ، لأ نه يغلب الخصم بلجاجته وثوراته التهويمية وتغريباته الغامقة في مظاهرها الخاوية في دخائلها .. كحال هذه الاجراس التي تدوي ، مع أنه لو حققنا في ذلك ، لكان لنا أن نفهم صوت هذه الأجراس إنها تدعو حقاً إلى نبذ النصرانية ، وتوحيد الخالق ، والدعوة إلى دين التوحيد ومنهج الإسلام الحنيفي الحق؟!

إذن قد فعلها قاسم! غير أن ما يثيرني ، ويوجع صدري ، ويقرح فؤادي ، ويوغر في عمق دخائلي حتى لكأن جدارات وجودي قد تصدعت ومن الداخل دونما أن تنسل إلى الخارج أيما قطرة دم .. لأن النزيف كان له أن يسري مفعوله داخل البدن ومن دون أن أشعر حتى صرت أهذي وأبدي مظاهر المرض ، وعلامات الحمى التي تثير من حولي ، وتدعوهم إلى الاهتمام بي غيرأن هذه الأوجاع ما كنت أخالها إلا آثاراً ترتبت على حالات مسبقة لم يبد للعيان رسمها أو معنى دائها حتى التبس الأمر على الجميع. وما كان يحس الأخيرون بما أحس به من أن أيامي هي أيام معدودات .. لأن المرض قد

تمكن مني! وهم يتصورون أن المرض قد بدأت علاماته تظهر على جسمي وللتو .. ولما يستيقن المرء من أن الموت هو قد لحق به ، وصار يهز بجناحيه عند رأسه ، وهي ترفرف خفاقة ، وتصفق أطراف الهواء ، وتعجن ألوان أفكاري بضروب من القيح الذهني .. ذلك أني آنست ناراً لعلي آتي نفسي أول ما آتي بقبس منها ، ثم أدفع به إلى أهلي وعشيرتي. لأ نه لا يمكن أن أمنحهم نفحة من هذا القبس حتى أعتنق عقيدة الإنسياق وراء أضوائه ، لتشع بعد ذلك فيوضه على جنبات وجهي ، وتشمل فودي ، وتطبع صدغي بلمسات إنارة مصحوبة بفنون كل الإنعكاسات .. فليس لي أن أدعو أهلي إلى التشيع ، وأنا ما زلت أكابد حر أوجاع أفكاره ،وكيف صار لها أن تنادمني كل ليلة ، وتقارع أهوائي ، وتخلد إلى كل ما يخلد إليه فكري ، وصارت تؤانسني ، وتلح علي بالكلام ، وبالضبط بعد أن شعرت أن قاسماً قد تغير ، ليس هو قاسم الأمس الذي كنت أعرف. وما كنت لأعني أنه انقلب تنيناً إلا أن قاسماً الذي كنت أعرف ، كان يتهجم على الشيعة ، وذلك عندما تتيح له الفرصة مثل ذلك ، حينما يطرق سمعه حديث عنهم أو مقالة تتقصد البحث في معتقداتهم وأئمتهم! بينما كان قاسم الذي كنت أعرف ، يعمل على مطاردة أخبار الشيعة ، ويتسقط ألوان حكاياهم ، ويتندر على فعالهم ، ويتعقب أحداثهم بلهجات ملؤها السخرية ، حتى كان يعب منها دائماً ، بل ظل يسقيني من زعافها الحريف حتى أثملني حد الشبع ، وبلغ بي عنفوان التخمة. فإذا ما زايلني وأنا على هذا الوضع وهذه الحال ، فإذا به يفجأني في ظهيرة أحد الأيام ، حينما رأيته مستبشراً ، واضح الأسارير ، منبلج المحيا ، وقد سيطر عليه شعور هو أشبه بشعور من قد عانق أعمدة السجون ، وصارع نوافذها المعقضبة حتى غامر في إختراق الجدر

وتكسير جمجمته كيما يتحرر ويصل إلى وجوه أهله ويراهم! وذلك حينما كان قد حكم على مثل هذا الشخص بالسجن مدى الحياة مع الاشغال الشاقة ، ومن دون إعطائه الرخصة في أيما لقاء ، أو مواجهة مع أهله حتى صار الأخيرون ينأون عنه. فكيف إذا ما كان هذا السجن قد انتصب في قوقعة وطن آخر ، قد امتدت إليه أعناق الغربة كقضبان السجن! تثلم جباه زجاجاته التي انتفخت والموضوعة إلى أعلى من رأس السجين ، ليجدها بالتالي عنقود عنب حتى يخالها كذلك ، ليبصرها ومن بعد ذلك زجاجة مصباح ، قد جعل ضياؤه ينوس على محياه ، يذكره أضواء مدينته الغائمة ، والغارقة في أتون الأحراش ، خلف الكثبان المتصارعة إلى ما وراء الطبيعة المنزلقة أوراق شجيراتها من على أعواد أغصانها ، وهي تتجاسر على هدم معاقل تلك الجبال ، و صرح غيرانها ، لأ نه تحجب ضوء مدينته عن آفاق عينيه ، كيما يستنيم لحظات عند مصباح يتدلى بنوره على عتبة باب بيته ، حيث الأهل والأحبة والرفاق هناك ، فهم ما زالوا ينتظرون مجيئه ، ويشبعون لوح الباب بلمحات من آماق أفئدتهم قبل أعينهم النابضة برحيق ينبع من القلب .. وفجأة ، وإذا بقاسم وكأ نما كان قد أخبره السجان ، أنه قد أفرج عنك! وثمة من بطاقة سفر ، وتأشيرة عودة إلى وطنك ، سيكون بإمكانك الحصول عليهما ريثما ترتدي ملابسك ، وتستعد للسفر ، وتتهيأ للرحيل! وإذا بقاسم الذي حكم عليه بالموت طوال الحياة ، ينقلب إلى إنسان قد حكم عليه بالحياة أبد الدهور .. فلقد غدا قاسم يرتشف من ماء الحياة؟ قد صار يتوضأ وضوء الشيعة ، حتى خلتهقد نال وساماً ، ما كان قد طال نواله والحصول عليه ، ولا حتى جده ولا أبوه! قد وجدته منح ترخيصة ولوج إلى فردوس الجنان حيث الحور الحسان والولدان المخلدون ،

و نيل كل ما لذ وطاب ، والحصول على كل غرفة وغرفة ، والقعود على كل أريكة وأخرى .. وكأ نه قد نبذ الموت ، واقتنى عنصر الحياة ، وحاز على مفعول البقاء ، حتى منحه الوجود بهجة أبدية .. بينما ما كان مني إلا أن أغامر في التدخل ، وأنا أحاول التصدي لهذا الصنيع ، وأواجه قاسماً بألوان الخطاب الذي يجعل منه يصحو ويتفقد الخطب الذي أوقع نفسه به ، بل المصيبة التي أصابني بها وجرني إلى وهاد فخاخها. قلت في نفسي :

. « قاسم! إنك منافق ، تغريني بالشيعة حتى إذا ما أوغرت صدري عليهم ، التحقت بركبهم ، ونبذت رحلي ، وذروت الرماد في عيني حتى تركت خيلي تصهل ليلا لوحدها. لارينك ما لم تره عيناك حقاً .. سأكيدك حتى في يوم القيامة .. ».

وفي لحظة واحدة تذكرت ما كان يحدثني به حتى جاءني في يوم من الأيام (ولقد كان ذلك اليوم ... أوه تذكرت .. كانت العلامات قد بدت عليه منذ ذلك اليوم ، وأنا الغافل ، لم أكد أتبين ما ألم به ، ولم أشعرأنه كان يتحرك بإتجاه التشيع والانقلاب على نفسه والتغير .. حتى إذا ما أصبح كذلك نسيت مثل ذلك اليوم ، وتعاميت بل غفلت حقاً عنأنه كان قد وقع تحت تأثيرهم ومنذ ذلك الوقت حتى إذا طلع علي بثوب آخر ، خلته قد أظهر ما لم يبطن وأبطن ما لم يظهر بالفعل! إلا أنه لربما ما كان كذلك لأ نه في ذلك اليوم وفد علي) وكأن الهم قد كاد أن يصرعه حتى ابتدرته متسائلاً عن سبب تردي أحواله ، فأجابني :

ـ « هل حقاً نحن على خطأ؟ هل حقاً كل أولئك العمالقة من الصحابة كانوا خاطئين؟ هل أن أبا بكر ما كان له الحق في أن يتصدر أمر هذه الأمة ، أم أن

الخليفة عمر بن الخطاب ما كان له الصلاحية في أن يحكم الدولة الإسلامية ، وذلك أن في الصحابة من هو أعقل منه ، وأفصح وأعلم .. وهل أن عثمان بن عفان كان غير جدير بالخلافة؟ ».

فقلت له :

. « ما الذي تريد قوله؟ ».

قال :

ـ « ما أريد أن أقول أيما شيء ، إنما أردت الإفصاح عن لون الحقيقة ، أيمكن أن يكون لونها أزرقاً ، وهو في الحقيقة أسود ،أو نراه أبيضاً وهو في واقعه على الضد من الأول؟ ».

بينما تابع وهو يقول :

ـ « إني قرأت وجعلت أمعن في دراساتي ، ومطالعاتي حتى صرت أتقلب ما بين موضوعات عنت أساساً في درء مقاليد الحكومة عن هؤلاء ، وسعت جهدها في ذودهم عن رحابها ، بل كرست كل ما لديها من قوة في إفحام القارئ بأن الحق مع الخليفة الرابع فقط لا سواه ».

. « علي بن أبي طالب؟! ».

ـ « أجل ، فهذه المسألة مسألة حساسة للغاية ، فهي التي جعلت من دفة الحكومة تستدير إلى أيما جهة أرادت! ».

. « انتبه إلى كلامك؟ ».

ـ « أنا لا أقول بذلك ، إنهم يعبرون عنه وبكل صراحة .. بل إنهم قد أحضروا من الأدلة والبراهين ما يمكن أن يحيا به الموتى .. ».

. « ماذا تقصد؟ ».

. « وهذا الذي أزعجني وأرقني ، فأجهز على نومي ، وأحاله إلى يقظة في يقظة ، .. إنهم يستدلون علينا من كتبنا ، بل إن الواقع يقضي .. يفيد بأ نهم ما كانوا ليدينوا أهل السنة إلا من أفواههم ».

. « من فمك أدينك! ».

فالتفت إلي وقال :

. « دعني أحدثك بما لدي ، وأفيض عليك مما أترعت به .. فلئن استطعت أن تأتيني بأعظم منه ، فائتني! ».

فقلت :

. « هات ما عندك ،ستجدني صابراً ،وكلي آذاناً صاغية ».

فقال :

. « سأصرح لك بعشرة فضائل لعلي بن أبي طالب ، ليست لأحد غيره .. حسبك من النصوص بعد حديث الدار ، ما ققد أخرجه الإمام أحمد ».

» قال : عن عمر بن ميمون ، قال : إني لجالس عند ابن عباس ، إذ أتاه تسعة رهط ، فقالوا : يا بن عباس إما أن تقوم معنا ، وإما أن تخلو بنا من بين هؤلاء ، فقال ابن عباس : بل أنا أقوم معكم ، قال : وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى ، قال : فابتدؤوا ، فتحدثوا ، فلا ندري ما قالوا ، قال : فجاء ينفض ثوبه ، ويقول : أف وتف ، ويقول : وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليست لأحد غيره .. وقعوا في رجل قال له النبي ﷺ لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً ، يحب الله ورسوله ويحبه الله وسوله. فاستشرف لها من استشرف ، فقال : أين علي؟ فجاء وهو أرمد ، لا يكاد أن يبصر ، فنفث في عينيه ، ثم هز الراية ثلاثاً ، فأعطاها إياه ، فجاء علي بصفية بنت حيي.

ثم بعث رسول الله ﷺ فلاناً بسورة التوبة ،فبعث علياً خلفه ، فأخذها منه ، وقال : لا يذهب بها إلا رجل مني وأنا منه.

وقال النبي ﷺ لبني عمه : أيكم يوليني في الدنيا والآخرة؟ قال وعلي جالس معه فأبوا ، فقال علي : أنا أواليك في الدنيا والآخرة ، قال : أنت وليي في الدنيا والآخرة ، قال فتركه ، ثم قال : أيكم يوليني في الدنيا والآخرة؟ فأبوا : وقال علي : أنا أواليك في الدنيا والآخرة ، فقال لعلي : أنت وليي في الدنيا والآخرة. قال ابن عباس : وكان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة.

وأخذ رسول الله ﷺ ثوبه ، فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين ، وقال : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾. قال : وشرى علي نفسه ، فلبس ثوب النبي ، ثم نام مكانه. وكان المشركون يرمونه ، إلى أن قال : وخرج رسول الله في غزوة تبوك وخرج الناس معه ، فقال له علي : أخرج معك؟ فقال ﷺ : لا. فبكى علي ، فقال له رسول الله ﷺ : «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه ليس بعيد نبي ، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي » [1].

وقال له رسول الله : « أنت ولي كل مؤمن بعدي ».

وسد رسول الله أبواب المسجد غير باب علي ،فكان يدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره. قال : وقال رسول الله ﷺ من كنت مولاه ، فإن مولاه علي .. ».

. « إن الأمر محير هل تعتقد أن كل هذا له أن يعد دليلاً قاطعاً على

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ٥٨ باب غزوة تبوك ، صحيح مسلم ٢ : ٣٢٣ وغيرها من المصادر.

حكومة علي بعد الرسول؟ ».

. « إنه لا يخفى ما في ذلك أجمع من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، التي تؤكد أن علياً ولي عهده ، وخليفته من بعده ، إلا ترى كيف جعله ﷺ وليه في الدنيا والآخرة؟! ».

. « تعني حينما آثره على سائر أرحامه؟ ».

. « أجل لقد آثره! ».

. «أو تعتقد بأن مثل ذلك يعد دليلاً ؟ ».

. « وكيف لا ، وقد أنزله منه منزلة هارون من موسى ، ولم يستثن من جميع المنازل إلا النبوة ، واستثناؤها دليل على العموم ».

بينما أردف كلامه ، وهو يقول :

. « وأنت تعلم أن أظهر المنازل التي كانت لهارون من موسى وزارته له وشد أزره به ، واشتراكه معه في أمره ،و خلافته عنه ، وفرض طاعته على جميع أمته بدليل قوله : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري** ﴾. وقوله : ﴿ **اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ ».

. « إلا أن هارون مات في زمان موسى؟ ».

ـ « إن هذا لا يدفع ذلك ، بل إن لمثل مؤاخذتك هذه أن ترفع بآيات النقص إلى رسول الله موسى .. وإلى الله بالتالي ، ذلك أنه قد آتاه سؤله في شخص له أن يرحل إلى جوار ربه ، ومن قبل أن يرحل موسى نفسه! وهذا مدفوع بنفسه! لأن قوله عز وعلا : ﴿ **قد اوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ لا يمثل إلا كل حقيقة واقعية في السؤل. لأن موسى عليه السلام كان قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون

وصيه وفتاه ، والقائم بالأمر من بعده ، ليفضي بها إلى أولاد هارون ، لأن الأمر كان مشتركاً بينه وبين أخيه هارون عليهما السلام . إذ قال تعالى حكاية عن موسى في دعائه حين أوحى إليه أولا : ﴿ **وأشركه في أمري** ﴾ ، وكان هو الوصي. فلما مات هارون في حال حياة موسى انتقلت الوصية إلى يوشع بن نون وديعة ليوصلها إلى شبير وشبر ابني هارون قراراً . وذلك أن الوصية والإمامة بعضها مستقر ، وبعضها مستودع ».

» ولا ننس قوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث : « أنت ولي كل مؤمن بعدي » ، فإنه نص في أنه ولي الأمر ووليه والقائم مقامه فيه ».

. ومثله الحديث الوارد في قضية بنت حمزة حين اختصم فيها علي جعفر وزيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي أنت مني بمنزلة هارون » [1].

. ﴿ كذا الحديث الوارد يوم كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح عند النبي وهو صلى الله عليه وآله وسلم متكيء على علي فضرب بيده على منكبه ثم قال : « يا علي أنت أول المؤمنين إيماناً ، وأولهم إسلاماً ، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى » [2].

. «وثمة الأحاديث التي ورد ت يوم المؤاخاة الأولي ، وكانت في مكة قبل الهجرة حيث آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين خاصة ».

ـ « ويوم المؤاخاة الثانية ، وكانت في المدينة بعد الهجرة بخمسة أشهر ، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار ».

ـ « وفي كلتا المرتين كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصطفي لنفسه منهم علياً ، فيتخذه من دونهم أخاه ، قال ابن عبد البر في ترجمة علي من الاستيعاب : آخى

---

(١) الخصائص للنسائي : ١٩.

(٢) الجزء السادس من الألقاب للشيرازي.

رسول الله ﷺ بين المهاجرين ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقال في كل واحدة منها لعلي : « أنت أخي في الدنيا والآخرة ». وقال : وآخى بينه وبين نفسه » [1].

ثم قال :

ـ « إن الأخوة الذين جعلوا يستبصرون في هذه الأيام ، فإنه ما إن يستبصر حتى يعاجل إلى إفراغ كل ما حفظه ودرسه ، بل يقفز وبكل سرعة في وسط الميدان ، كيما يغرق أذهان العالمين من حوله بكل ما توصل إليه ، ويعبئ عقولهم بكل استنتاجاته ومغامراته الأبحاثية ، ودراساته .. بل إن الطريف أنه يحكي لهم قصة تشيعه ، ويستذكر أيامه في هذا المجال ، وكأ نها مذكرات النضال السلبي .. ».

. « وليكن .. فإن مناقشة هذهالمسائل بالنسبة إلي هي ما كانت إلا أمراً عادياً بحد ذاته ، بشرط أن تقوم بين أهلها ، لا بين رعاع الناس وهمج القوم ، ولتغمر مجالسها أذواق الخلق الطيب ، وتعم جلساتها أوراد الحب والوئام .. فإذا لم نبحث فيها اليوم ، فمتى سنبحث في شؤونها ، أننتظر أحفادنا أن يقوموا بذلك أم نتطلع متى تحل سنوات البرزخ فنعمد إلى تدارسها فيما بيننا؟! ».

بينما التفت إليه ، وأنا أقول :

ـ « وأنا الآخر ، فإنه بمستطاعي أن أوظف القرآن للدفاع عن مصالحي وأرائي واصطنع منه أداة تشارك في الذود عن مسار الأهداف التي أريد اقناع الآخرين ومن خلالها بضرورة صحتها ، وذلك عن طريق الاسترسال في

---

(١) السيرة الحلبية ٢ : ١٢٠ ، كنز العمال ٥ : ٤٠ ، ٦ : ٣٩٠.

استخدام آية آية ، وحسب ما أري ، واعتقد بأ نها تعني كذلك ، وتوحي إلى هذا المعنى ، أو تدل على ذاك ».

. « إنه يخبرني عن أسباب النزول حتى يجعلني أشك في أن القرآن هو كله ما نزل إلا لأجل علي وأولاد علي .. ».

. «أجل إن كتبهم هي حتماً لتعج بمثل هذه الإفاضات .. ».

. « أية إفاضات يا هذا؟ ».

وعندها كأني كنت قد وقعت على أسباب تكدره ، وذلك عند أول لحظات رأيته فيها وهو حانق مغضب ، مغبر الطلعة ، قاتم اللون ، داكن البشرة ، مكظوم الهيبة ، معقود الحاجبين ، ساهم في فراغ ليس يعب منه حتى ينصرف إلى إطراقة أخرى يفرغ لها ، عندما يصير يبحر في أواذي موضوعها .. لحظتها توقفت عن الكلام ، وواخذت أدير الفوهة ، وأبعدها عن مجالنا كلانا ، لأتمكن بعدها من سبر غور أعماق وباطن أفكار هذا الأخ العزيز ، والذي غام في الدخول في لحجج وعباب موج البحث ،متوغلاً ما بين طيات هذه القضايا ،مسترسلاً في الأبحار عبر تيار لا يكتنفه سوى غمار مثل هذه المسائل والابحاث .. تابعت كلامي من جديد ، وأنا أحاول أن أجلي غمام الحزن من أمام عينيه ، فقلت له :

. « أقول : دعك من كل هذا ، وانصرف عن الخوض في هذه الأبحاث العقيمة. قل لهم لكم دينكم ولنا ديننا ، فأنتم في وادي ونحن كذلك في واد آخر. ولنكن أصحاباً ، ولتذهب كل هذه الأسباب بعيداً عن محاوز مناقشاتنا وأوقاتنا التي نقضيها مع أصحابنا من الشيعة ، لتزهر علائقنا معهم وهي تنطق بأريجها تحت وقع نبضات الأفئدة المسلمة ، كل منا يود الآخر ، ويهوى أن

يسير أو يحيا على شاكلة استساغها ضميره ، ودرج عليها فؤاده ، دون أن يعكر ذلك صفو مودتنا ووئام صحبتنا جميعاً .. أليس الحق معي يا هذا؟! ».

ـ « إذن نبضات هذه الأفئدة المسلمة ، لها أن تنطق بأريجها ، طالما أصحابها صم عمي بكم .. ».

فانقلبت غاضباً :

. « أنا لا أعني هذا؟ ».

بينما تابع كلامه ، وكأنه لم يسمع اعتراضي :

ـ « أو إننا أحبة ، طالما نلجم عنان ألسنتنا ، ونكبح فينا حالة التطلع إلى أمام .. أمرك كأمر الذين يقولون للآخرين : دعونا من أمركم لنا بالمعروف ، ونهيكم لنا عن المنكر من معاقرتنا للخمر والنساء و ..، فإذا ما فعلتم فإنا إخوانٌ على سرر متقابلين .. وما كان للدين أن يهادن على مستقبله أو يساوم على مصيره أبداً .. أجل يمكن مراعاة الخلق القويم ، وبسط المعروف إلى الآخرين ، وانشاد المودة لهم ، وتقصي ودهم ، وابداء حسن الطوية ، ولين العريكة ، ورفق الأريحية ، والتدرج في مسالك العرض والطرح .. وما إلى ذلك .. ولكن .. ليس قبل أن أعبر عن رأيي ..وإلا فأنا غير موجود ، ولما كان العكس واقعاً ..فإني ما كنت لأكون إلا قاتلاً لنفس يتحرك لهيبها بين أضلعي ، ذلك اني ما كنت إلا قد قتلت نفسي وأدعي أني موجود حي وأنا لا أحاول إثبات ذلك أبداً ! ».

. «إنك قد ذهبت بعيداً .بعيداً جداً .. إني لا أطالب بخنق الحريات ومصادرة حرية الرأى من أجل .. أو على حساب الاحتفاظ بحسن علاقاتنا مع بعض ، أو بغية للتوصل إلى محاربة كافة الأسباب التي تحول دون استتباب مثل هذه الروابط الأخوية بين المسلمين ، وعدم تواصلها حية دائمة من دون

أن يمسها أيما خلل وخفقان ، أو أن تتهددها أيما إصابة وخطر! ».

في تلك اللحظة ، صرت أستشعر منه فضاضة في النظرة ، بل استعلاء في الترقب ، ولربما عنجهية في الرأي ، ضجرت منها إلى حد غلب حتى على عواطفي ومشاعري تجاهه .. أصبح الآن هدفاً لسهامهم وهو لا يدري ، ولقد أضحى يريد المغامرة والتصدي لهم ، والدفاع عن حياضه العقائدية ، وإذا به يطلع علي بطرق من القول ، غاضتني صبغة الظرافة التي كان قد توسل بها حتى صار يطبع بها رسالة حديثه ، ومقالة أطروحته ، وهو يقول :

ـ « إن المسألة ليست مسألة عناد ، إن عليك أن تشغل فكرك ، وتحرك ذهنك! إن القضية لا تتصل بمعاشرة الإخوان من أهل التشيع ، والأنس بهم .. دون التحرك صوب مسائل الدين ، وبحث قضايا العقيدة وبشكل معاصر جذاب ، فضلاً عن المجادلة في أحداث ومجريات التاريخ. فكلانا مطالب بالبحث والفحص ، والدراسة والتقصي لأن ثمة مسائل خطيرة كان للتاريخ أن يرزح تحت وطأتها .. فإنه لو حصلت حادثة ما .. الآن .. الآن! في عصرنا الحاضر ، فإنك لترى إن وكالات الأخبار تتناقل موضوعاتها وبالكيفية التي تحلو لها أن تفسرها بها ، كل منها وحسبما يستسيغه طلب ميله ، ونزعة غرامه! بل ربما حذفوا منها وأضافوا إليها .ولماذا نذهب بعيداً .. فلو حدث حادث ما .. هنا بيننا .. فلترى بعد فترة وجيزة ، ولربما كانت جد قليلة .. أن الجميع ، كل منهم يفسرها ويحكي مشاهدها حسبما يروق له وتملي عليه مخيلته وضرورات تفكره وتأملاته الخاصة ».

وعندئذ قلت له ، بعد ان تذكرت مسألة مهمة، كانت قد شغلت مخي فترة من الزمن :

ـ « نسيت أن أسألك .. هل لمثل هذا التكدر الذي يلوح في ظلال نظراتك أن يتصل بشكل أو بآخر بقضية كنت قد سمعت عنها قبل فترة ، ولم أتحقق منها ، بل لا أريد الخوض فيها أبداً ، ولو أني لا أشك بأ نك ستجبرني على الخوض في مطاوي قضاياها ، وألولوج إلى غيابات مسائلها .. ».

قاطعني :

. « وما هي؟ ».

. « حركة الوضع .. ».

وعندئذ بادرني بسرعة ، وقاطعني بفنية ماهرة ، وكأنه كان ينتظر مثل هذا السؤال ، و بفارغ من الصبر :

ـ « اتسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ ، وتلاطمت أمواج الافتراء وتصدر قوم لا أمانة لهم ، ولا دين يردعهم ، ولا عهد لهم بالصدق ، فحدثوا الناس بالأكاذيب ، ونمقوا وزوروا ، ووضعوا من الأحاديث كيفما شاءت رغباتهم ، إرضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة ، ولا يرى للدين قيمة ، فدرج الناس على ذلك وتلقنوا تلك الأحاديث بلا تمحيص ولا تتبع ».

. « هل تقصد أن مثل ذلك ، كان قد حصل في عهد الصحابة؟ ».

ـ « ولا أريد أن أتعرض لعهد الصحابة وما حدث فيه من أحاديث ، فإن يد الوضاعين انتحلت سلسلة تتصل بهم في الحديث ، لأن أصحاب محمد ﷺ أجل قدراً وأعلى منزلة من تعمد الكذب عليه ، إلا من صارعته الدنيا فصرعته ، وباع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران ، وما هو من مصداق الصحبة في شيء كسمرة بن جندب وغيره ، الذي كان يساومه معاوية في وضع الأحاديث أو تحريف ما أنزل الله بمئات من الآلاف من الدنانير كما هو عنه ».

. « أي عصر تريد التعرض إليه بالضبط؟ ».

. « ولكن نريد أن نتعرض لعصر اشتداد الفوضى والخروج على حدود الأمانة في النقل ، يوم دار الزمان دورته ، ودب داء الحسد والتنافس على حب الرئاسة والتقرب إلى السلطان ، عندما اشتدت حاجته إلى مرتزقة يجعلهم قنطرة إلى غايته ، ليبرر مواقفه المخالفة لأحكام الدين ، فكان ما كان من تشجيع للكذابين والوضاعين ، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة رغبة في نواله ، وطلباً لاستصفاء وده ، وقد فتحت باب التقرب إلى السلطان بمفاتيح الأكاذيب ، فدخل الكثير منهم ».

. « فهذا غياث بن إبراهيم يدخل على المهدي ، وكان المهدي يحب الحمام ، فطلب منه المهدي أن يحدثه ، فيأتي بحديث عن أبي هريرة لا سبق إلا في حافر أو نصل ، وأضاف إليه أو جناح ، فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم ، فلما قام غياث قال المهدي : أشهد أنه قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال رسول الله جناح ولكنه أراد أن يتقرب إلي » [1].

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ١٩٣.

الفصل العاشر

قاسم وفنون وسياسة وضع الحديث

بينما مضى يضيف ، وهو يقول :

ـ «ويدخل أبو البختري وهب بن وهب قاضي بغداد على هارون الرشيد ، وهارون يطير في الحمام فقال هل تحفظ في هذا شيء؟

فقال : نعم ، حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : إن النبي ﷺ كان يطير الحمام ، فنرى القاضي هنا سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان وتحبباً إليه ، بدون التفات الى مؤاخذة أو خوف من الله تعالى ».

. «؟!».

ـ «وكان شاه بن بشر بن ماميان معروفاً بالوضع في الدولة العباسية. ومن أحاديثه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً :

. « أتاني جبرئيل وعليه قباء أسود ومنطقة وخنجر ، فقلت ما هذا؟ فقال : يأتي زمان يكون لباسهم كهذا قلت : يا جبرئيل من يكون رئيسهم؟ قال : من ولد العباس ».

ـ « واستجلب الرشيد إسحاق المعروف بأبي حذيفة المتوفى سنة ٢٠٠ وهو معروف بالكذب ومشهور بالوضع ، فأمره الرشيد أن يجلس في مسجد ابن رغبان ويحدث الناس ، فأخذ إسحاق يحدث بالأكاذيب ، يروي عن خلق من

الثقات أكثرهم ماتوا قبل أن يولد » [1].

ـ « واستقدم المهدى أبا معشر السندي ، وأشخصه إلى بغداد ، وقال : تكون بحضرتنا تفقه من حولنا. وكان أبو معشر ماهراً بوضع الأحاديث والقصص ».

ـ « قال ابن جزرة : أبو معشر أكذب من تحت السماء ، وصنف كتاب المغازي » [2].

ـ «وروى عنه الواقدي وابن سعد ، وقد نعم في بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسي ، وقد استمد منه الطبري معلومات عن التاريخ الانجيلى ومن تاريخ النبي ﷺ، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخية تنتهى إلى عام وفاته ».

ـ « لقد كان خطر أولئك الحالين عظيماً جداً ، فإنهم تزلفوا لولاة الأمر بوضع الأحاديث ،فاتخذوا منهم أعواناً على حل مشاكل يعجز هم حلها بالقوة ، ولكنهم جعلوا ما يضعونه وسيلة لتعزيز مركزهم أولا مقابلة خصومهم ثانياً واشغال الرأي العام ثالثاً ، وكان الأمر الذي يهمهم قبل كل شيء هو أمر الشيعة الذين آثروا تضحية النفس .. ».

كنت أصغي إليه ، وأنا أراه يتحدث بشكل أقوى مما يتحدث به الشيعة أنفسهم ..

ـ « .. على الاذعان للخصم ، ولم تربطهم معهم رابطة ، ولم يعترفوا بصحة تلك الولاية الجائرة ، فلا يصح لهم السكوت عن معارضتها وهم غاصبون لهذا المنصب ، لذلك اتخذت السلطة معهم طرق المكر والخداع والتمويه على

---

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٣٤٦.

(٢) المصدر السابق ٤ : ٤٣١.

الناس ، حتى بلغ بهم الأمر إلى وضع الأحاديث بخروج الشيعة عن الإسلام كما أوضحت لك ، وهي تدل بمنطوقها على استباحة دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة ».

. « وقد كان أولئك الدجالون على أنواع في الوضع ، واختلاف في الغاية. فمنهم من يضع الحديث طمعاً في الدنيا وتزلفاً لولاة الأمر وهم الذين نعبر عنهم بلجنة الوضع ، وأول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان » [1].

. « وهل كان ثمة وضع للحديث في باب نصرة المذهب الشخصي؟ ».

ـ « وكيف لا؟! فإن منهم من كان له أن يضع الحديث في نصرة مذهبه ،وهؤلاء كانوا وما يزالون يرون أن الانتصار لمذهبهم ما كان ليمثل إلا انتصاراً للحق ومقاومة للباطل ، وذلك من بعد أن زين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة في الضرب ، ويخلقون الحكايات والقصص ».

ـ « وقد وجدت في تلك الموضوعات ما يقارب الأربعمائة في الفضائل والمناقب وفي بعضها أساطير لا أحاديث ، وحكايات يصنعها القصاصون بمهارة ، ويبثونها بين الناس ».

. « فمن أعظم تلك الافتعالات هي أسطورة ابن سبأ .. ».

. « أسطورة ابن سبأ؟ ».

. « أجل ، هذه الأسطورة التي ما زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ ، وتأخذ وقتاً من كتاب عصرنا الحاضر. ووالله ، إنها محنة قاسية لكن كيف المخرج؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب لنعالج هذه المشاكل؟ كيف وقد

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ : ٢٥٨.

سرى داؤها في المجتمع ، وأخذها المهرجون مأخذ القبول وجعلوها بمحل الاعتبار ، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات إذ وافقت أغراضهم ، وجعلوها في منهاج الاحتجاج ، ولم يلتفتوا لحالها وحال رواتها ممن أعماه التعصب ، فضعفت مواهب إدراكه ، ولم يستطع تمييز الحق من الباطل ، وقد خانه الاتزان والتعقل ، فهوس وهرج وموه وافترى ، وحاول إخفاء حقيقة لا يمكن إخفاؤها ».

الفصل الحادي عشر

نفسي والسؤال الملح : لم لم يباهل الرسول بالخلفاء؟

ظللت أتساءل :

ـ « ما هو المقياس لتشجيع الفرق؟ وما هو المعيار لاتخاذ مثل هذه السياسات؟ .. فهل المقياس هو يتحدد في أن هذا الفريق هو فريق وطني؟ إذن الحس الوطني يملأ نفسي ، وليس من حس إيماني يغمر قلبي ، هذا مع أن حب الوطن من الإيمان ، وما كان ذلك إلا بشرطه وشروطه! غير أن سباقات الأندية التي تجري في داخل نطاق القطر، كيف لها أن تجر الويلات والمصائب على مشجعي مثل هذه الفرق حتى تنقلب مثل هذه التناحرات إلى تأليبات ماكرة وعصبيات شيطانية ثائرة ، ليس الغرض منها إلا صرف الوقت الثمين ، وتبديد مقومات وأهداف الحرية الفردية ، واختلاق جملة من التهم ، وحب ألوان الأباطيل ، وإثارة النعرات والفتن والمشاحنات ،وضروب المحاربات و القتال! دون سبب سوى أني أشجع فلان والآخر يشجع غيره؟ ».

ولكن! لكل منا غرضه ، وعقيدته! ولو فاز فلان ، أو غلب كذا أحد ، فليس من حق آخر أن يعترض ، لأن كلا منهما قد قدم ما عليه ، وساهم بجلاء في حربه المقدسة والغنية ، وبكل خلق ومهارة مثلاً ! فالكل يعرض مهارته ، و الآخر هو الذي يغلب ، حتى يصير هو المؤهل لتصدر مثلاً بطولة المصارعة أو الملاكمة ، أو الصعود إلى الدوري النهائي. فلماذا نغضب؟ بينما لا نغضب حتى

نكون قد استقنا عصبياتنا الفانية إلى طرق مسدودة ما كان أساسها إلا التعصب لفريق الوطن .. حتى انسقنا إلى فرق المحافظات ، والمدن ، والأندية المتعددة داخل هذه الأمصار والتحزب للمدن والمحافظات نفسها ، وإثارة النعرات المذهبية من خلال ذلك ، وابراز نقاط الضعف التي يمكن أن يتصف بها أهل فريق تلك المدينة الفائزة ، للنيل من فوزه واحباط كل مساعي ابتهاجه بهذا النصر! حتى ينجر ذلك إلى طرق متعددة ليس لها من نهاية سوى الانغلاق على النفس المريضة ، ومن ثم الانفجار ، حينما تؤدي إلى طريق مسدودة ، ينحصر فيها المجموع ، حتى يلهبه الانتظار ، ويضجره الملل من التفكر في سياق واحد ليس إلا ، .. حتى تنفجر نفوس هذا الجمع البشري الهائل ، كما تنفجر الطرق المسدودة ، وذلك بعد أن تؤدي بالآهلين في المساكن والبيوت التي تشرف عليها إلى الفناء والاقتتال! وثانية ، فلماذا نغضب؟ أنغضب لأ نه لم يتخل المنتصر عن مهارته ، أو أنه جسد كل قابلياته ، وأظهر كل لياقته ، وأبدع في مختلف الأوضاع حتى أبرز كل فنونه ، وعرض كل أخلاقياته ، وأبدى كل استعداداته في اللعب ..بينما ما كان كل ذلك إلا مدعاة ضرورية ، وسوقاً ملحاً يدعو بكل من يبصر مثل هذه الحقائق ، إلى التعجب والانشداه ، ذلك أنه قد اطلع إلى قدرات ومهارات مثل هذا الفريق ، وإن مثل ذلك هو خليق به أن يدعه يتطلع إلى أن يكون لفريقه من هذه المهارات حظ ونصيب! لا أن يحسده ، فيترجم حسده إلى مظاهر من العنف والصخب والحقد الضروس ، لتنقلب أثار كل ذلك إلى ألوان من الفوضى الشخصية ، وأشكال من الهوس العام ، لتنحسر أضواء هذه الانغمارات الفارهة عن غضبة شيطانية مهووسة ، ولعنة إبليسية موبوءة؟!

وإلا ، فماذا كنا ننتظر؟ هل كنا ننتظر من هذا الفريق أن ينسحب من المباراة ، أو أن يتنازل عن التطلع إلى الفوز ، أو أن يتخلى عن اللعب بجسارة وإقدام ، أو أن ينسحب كلياً من الساحة من بعد أن يتركها لخصمه ، أو أن يتراجع عن التفكير بالفوز مطلقاً؟ وإلا ، فما كان لمثل كل ذلك أن يعد لعباً مثيراً ، ومسابقة مشوقة! أو أنه ما كان من احتمال ثان لإجراء مثل هذه المسابقات سوى فوز أحد الفريقين أو تعادلهما حتى يتقرر الحل والعقد في مثل هذا الأخير ، في أثناء نزال آخر ، أو مباراة أخرى قادمة ، أو معادلات حسابية خاصة! وإذن ، فلا بد من التسليم إلى قاعدة الفوز والخسارة .. والاعتقاد بضرورة حصولها (خارج اطار التحيزات التي يمكن أن تحصل من بعض حكام المباريات ، أو حدوث بعض الأخطاء غير القابلة للاصلاح من قبلهم ، أو عدم جدارتهم بتولي تحكيم مثل تلك الألعاب والمباراة حتى ينقلب ظالماً ، وذلك حينما تبعث قراراته على خسارة الجانب الأكثر فعالية ، والأكثر جدارة بالفوز والنصر) .. لأن من يقبل بمقدمات الأشياء ، عليه أن يرضى بنتائجها ..فما كان للمشجع أن يقبل على مشاهدة مثل هذه الألعاب ثم يخر مغشياً عليه ، لأ نه فوجئ مثلاً بخسارة من يشجعه أو يتحزب له ، وإلا فما كان ثمة من معنى لحضوره من الأول وبالكامل .. وكأ نه ما كان يتوقع من الخصم أو الفريق المقابل إلا أن يتنازل عن الفوز أو اللعب إجمالاً ، أو أن يمنح نفسه خسارة مصطنعة ، لا يمكن التعبير عنها إلا كما يمكن التعبير عن أيما أضحوكة وطريفة! لماذا؟ أما كانت ساحة اللعب ساحة مشرفة ، كل يثبت عنفوان أهبته واستعداده ، ويلقي بأضواء مهارته حتى يتفنن كيف يلصق براهين حكمته وقدرته وقوته .. دون إيذاء الخصم ، أو الغريم ، إذا ما كان يبتغي من هذه

العروض إلا ممارسة الشحذ للطاقات الإسلامية واختبار مختلف الطاقات الاستعراضية ، وإلا لو كان الأمر يتطلب عصبية ، لكان لكل لاعب أن يحمل معه سلاحاً ، فيقتل خصمه حالما يتمكن منه دون الحاجة إلى نزال وحضور .. وما كان من الأخيرين الالتزام بالتشجيع دون حضور وروية وإمعان .. فالذي يلعب أفضل هو الذي يستحق الفوز ونوال الجائزة ، والمقام الأول .. أو احراز حتى الثاني في المسابقات .. أو الثالث .. وبالتالي ليس له أن يبقى في الظل أو تبتلعه أجواء الكواليس ، مع أن هذا الذي لم يحالفه الحظ ، فما كانت لتشكل له مثل هذه المسابقات إلا فرصة لاستعادة الثقة ، ومعرفة ألوان الخلد التي يعيشها أو التعرف على جزئيات ما يملك ، أو اختيار كل ما لديه ، مثل ما يحصل في المشاورات الحربية والتمارين الحية والفرضيات غير الحية ..

كذلك شعرت بحالي مع شيعة لأهل البيت .. كذلك هو حال الأديان والمذاهب عموماً .. فما كان للمرء أن يشتق له لون سعادة حتى ينبذ الشقاء المر الذي لا يتمثل إلا في العصبية المستعملة في قبور القلوب البشرية والمتنوعة في ألوانها وضروب تخيلها الطائفي منها والعرقي والعنصري والمذهبي والشعبي وما إلى ذلك .. حتى كان لها أن تجر الويلات على الأمة الإسلامية نفسها ، وتقسم شعوبها إلى دول ومقاطعات وامارات وممالك .. فلماذا لا تتحد البلدان العربية ، وهم ينادون بالقومية العربية؟ ولماذا لا تتحد شعوب الدول الإسلامية ، وهم ينادون بالإسلام ، وذلك الدين وطريقة المذاهب حتى غدونا جميعاً وقلوبنا شتى ..

ولماذا تنوعت المذاهب وتعددت طرائقها .. وأصبحنا دعاة للشافعية والحنبلية والمالكية والحنفية دون أن نمنح الفرصة للشيعة كذلك بأن يدعوا هم

الآخرون علمياً إلى اتباع مذهب خاص؟ فلماذا قصرنا السياسة الديمقراطية والحرية الدينية على هذه المذاهب فقط ، وحرم منها حزب الشيعة؟ فهي الأخرى تشبه حرية الأحزاب ، نبطل حركة ونعمل بحزب وتقدم أحزاب على أخرى ، ولا نسمح لأخريات بالمشاركة بالتحرك على صعيد الديمقراطية.

كل هذه التساؤلات صارت تضرب في رأسي حد النخاع ، فأصابت مخي وأجهضت على كل عصبياتي السابقة ، وذلك الطريق أكثر فأكثر للعب في سابقه ، خاصة بالمذاهب والدخول إلى ساحة الملعب للاشتراك في لعبة نزيهة ، لا يمكن أن تتولى إلا من يلعب أفضل بما يمتلك من قدسية وطهارة ، وخلق وعظمة في النفس وتفان في الصدق ونهاية في الإخلاص ، وغاية في التفكر والتخطيط ..غير أن تساؤلاً عظيماً ألح على مخي حتى أهلكني ، وطوح بكل معادلاتي ذلك أني حين تذكرت آية المباهلة ، سألت نفسي ، لم لم يباهل رسول الله ﷺ نصارى نجران بأبي بكر وعمر وعثمان ، مع أنهم خلفاءه المستقبليون ، أو أن تاريخنا يحكي لنا كذلك ، فيقص علينا هكذا قصة الخلافة؟! بل إنه ما كان قد أتى بأهل بيته كذلك ، إلا بمن عناهم في الحادثة ، وما كانوا إلا علي وفاطمة والحسن والحسين. فقلت لنفسي بعد أن تنبهت إلى بعض المسائل وأنا أحدثها :

. « إذن ، فما كانوا هم خلفاءه الذين عينهم ، ولو كانوا لأتى بهم .. إذن منزلة أهل بيته أعلى وأعظم .. ».

أضفت وأنا أحدثها :

. « وإلا فإن آية المباهلة .. ».

قالت :

. « آية المباهلة .. ما هي؟ ».

قلت :

ـ « هي الآية ٦١ من سورة آل عمران : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين** ﴾ ».

قالت :

. « ما هي المحاجة؟ ».

قلت :

ـ « المحاجة : هي تبادل الحجة ، وهى ما يقصد به إثبات المدعى سواء كان دليلا حقاً أو مغالطة باطلة ».

بينما عادت تسأل :

. « والإبتهال؟ ».

. « أما الإبتهال : فهو الاسترسال في الدعاء والتضرع. وقيل : هي كلمة مأخوذة من البهلة أي اللعنة ».

. « ما الذي يسبق هذه الآية؟ ».

. « يسبق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ..** ﴾ ».

. « وهل احتج الله هنا على النصارى؟ ».

ـ « احتج القرآن على النصارى الذين جعلوا ولادة المسيح عليه السلام من غير أب دليلاً على كونه ابن الله ، فرد الله عليهم بأن مثله كمثل آدم عليه السلام إذ خلقه من غير أب وأم ، ولم يكن هذا دليلاً على بنوته لله تعالى أو ألوهيته ، وكذلك الأمر

في عيسى بن مريم عليه السلام ».

. « وهل أن النصارى كانوا لا يقبلون هذه المحاجة؟ ».

ـ « إن هـذهالحجـة بقطـع النظـر عـن كونهـا وحيـاً إلهيـاً هـي حجـة عقيلـة لا تقبـل المعارضة. إلا أن النصارى كانوا يجادلون ويبالغون في الجدال ، يصرون على الضلال ، فلم يكن ثمة سبيل إلا بارجاع الأمر إلى الله تعالى حتى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين. ومن هنا فقـد أمـر الله تعـالى رسـوله أن يعـرض عليـهم مسـألة الإبتهـال إلى الله كـي يجعـل لعنتـه على الكاذبين ، ويعلن صدق الصادقين ».

. «وهل كان تحدياً صارخاً؟ ».

ـ لقد كـان هذا التحدى الحسي الكبير يشكل حداً ومنعطفاً تاريخياً كبيراً للدعوة الإسلامية وموقفها من أعدائها ... لأ نه الدليل الحاسم الذي لا يمكن تكذيبه ».

. « ولماذا طلبت الآية دعوة المتباهلين إلى الحضور؟ ».

ـ « فإنه ولكي يبدو بوضوح ، اطمئنان صاحب الدعوة المباهل ، بدعوته وصدقه ، طلبت الآية أن يحضر كل من المتباهلين خاصته من أهله وولده ،ليبدو الحق جلياً وينكشف صدق النوايا ، في حين يكون الاحجام عن ذلك دليل التزلزل والارتياب. إذ قد يحسم الأمر قبـل الوصـول إلى اللحظـة الأخيرة ، حيـث يـرى الخصـم اطمئنـان صـاحب الـدعوة بدعوتـه وتعريض نفسه وإحبائه لمثل هذا الأمر الخطير ، فيكشف له أنه على الحق ، وقد يستسلم له ويرتدع عن ضلاله ».

. « وكيف كان للآية أن تعبر عن ذلك؟ ».

ـ « لقد عبرت الآية بتعبير موجز عن هذه الدعوة فقال تعالى : ﴿تعالوا ندع ..﴾ بمعنى تعالوا كي ندعو نحن وأنتم خاصتنا وأهلينا للمشاركة في الإبتهال. ولعله لبيان شدة الاطمئنان قدمت الآية ذكر الأبناء ، ثم ذكرت النساء ، ثم ذكرت الخاصة ، باعتبار أن عناية الإنسان بحفظ ولده الصغير والغيرة على نسائه أشد منها بالنسبه لسائر خاصته ».

ـ « وهل أكدت الروايات على وقوع مثل هذه الحادثة قطعياً؟ ».

ـ « لقد اتفقت الروايات وأطبق المفسرون والمؤرخون على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا وفد النصارى إلى المباهلة ، وأحضر بنفسه أهل بيته علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ، إلا أن النصارى أحجموا عن المباهلة عندما شاهدوا هؤلاء الصفوة ، واقترحوا أن يعطوا الجزية ، فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منهم ».

ـ « وهل يمكن أن تعود الآية بالفضل الكريم على صاحب الرسالة؟ ».

ـ « إن مما لاريب فيه أن الآية تدل على فضل عظيم وكرامة باهرة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أمر اعترف به أعاظم المفسرين والمحدثين من السنة ، بعد أن اعترفوا باتفاق الرواة وصحة رواياتهم في ذلك فقد قال العلامة الجصاص في أحكام القرآن : نقل رواة السير ونقلة الأثر ـ لم يختلفوا فيه ـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة ـ رضي الله عنهم ـ ثم دعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة ، فأحجموا عنها ، وقال بعضهم لبعض : إن باهلتموه اضطرم الوادي عليكم ناراً ، ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة » [1].

---

(١) أحكام القرآن ٢ : ١٤ ، وأنظر تفسير الرازي لذيل الآية ، الكشاف الزمخشري ١ : ٣٧٠ ، روح المعاني للآلوسي ٣ : ١٦٧.

. « هل لك أن تخبرني: كيف أن للآية أن تدل على فضل أهل بيت رسول الله؟ ».

. « الآية تأمر بدعوة الأبناء والنساء والأنفس . بصيغ الجمع في الجميع . وامتثال هذا الأمر يقتضي احضار ثلاثة أفراد من كل عنوان لا أقل منها ، تحقيقاً لمعنى الجمع. لكن الذي أتى به النبي ﷺ في مقام امتثال هذا الأمر على ما يشهد به صحيح الحديث والتاريخ لم يكن كذلك ».

. « وإذن ، فإنك تعني أن لفعله كان ثمة وجه انحصار؟ ».

ـ « ليس لفعله ﷺ وجه ،إلا انحصار المصداق في ما أتى به. فالآية بالنظر إلى كيفية امتثالها بما فعل النبي ﷺ تدل على أن هؤلاء هم الذين كانوا صالحين للاشتراك معه في المباهلة وأ نهم أحب الخلق إليه ، وأعزهم عليه ، أخص خاصته لديه ، وكفى بذلك فخراً وفضلاً ».

. « وما الذي يؤكد دلالتها على ذلك؟ ».

ـ « يؤكد دلالتها على ذلك أنه ﷺ له عدة نساء ولم يأت بواحدة منهن سوى بنت له ، فعلام يحمل ذلك إلا على شدة اختصاصها به ، وحبه لها ، لأجل قربها إلى الله وكرامتها عليه؟ ».

. « كذلك؟ ».

. « كما إن انطباق عنوان : النفس على علي بن أبي طالب ، لاغير يدل على أعظم وأكرم مزية ، حيث نزل منزلة نفس النبي ﷺ ».

. « ويؤيده ما رواه الفريقان عن رسول الله ﷺ ، حيث قال لعلي بن أبي طالب : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ».

. « وقوله : « أنت مني وأنا منك ».

. « وقوله : « علي نفسي » فمن رأيته يقول في نفسه شيئاً؟! ولقد احتج مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . عليه السلام . بهذه الفضيلة يوم الشورى ، واعترف القوم بها ولم ينكروا عليه ،وقد بلغ الأمر من الوضوح مبلغاً لم يبق فيه مجال للإنكار .. واعترف ابن تيمية بصحة الحديث القائل بأن نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية هو علي عليه السلام ، إلا أنه جعل ملاك التنزيل هو القرابة. ولما التفت إلى انتقاضه بعمه العباس حيث إن العم أقرب من ابن العم قال : إن العباس لم يكن من السابقين ، ولا كان له اختصاص بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم كعلي. فاضطر إلى الاعتراف بأن مناط تنزيل علي . عليه السلام . منزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ليس هو القرابة فقط ، بل سبقه إلى الإسلام واختصاصه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وهل يكون اختصاصه بالأمر من قبل الله إلا لأجل أفضليته من غيره ، وأقربيته إلى الله سبحانه كما أن في قوله تعالى : ﴿ **ندع أبناءنا ..** ﴾ إشارة إلى أن لغيره صلى الله عليه وآله وسلم شأناً في الدعوة إلى المباهلة ، حيث أضاف الأبناء والنساء إلى ضمير المتكلم مع الغير مع أن المحاجة كانت مع النبي صلى الله عليه وآله خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فمن حاجك** ﴾. وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى في سورة هود الآية : ١٧ ، حيث جاء فيها : ﴿ **ويتلوه شاهدٌ منه** ﴾، كذلك قوله تعالى في الآية ١٠٨ من سورة يوسف : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾. كما يؤيده ما ورد فيها من الروايات ، وهو مقتضى اطلاق التنزيل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي . كرم الله وجهه . : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ». كما أن قوله تعالى : ﴿ **فنجعل لعنت الله على الكاذبين** ﴾ ، ليؤيد بأن المراد بالكاذبين هنا ، ليس كل من هو كاذب في كل أخبار ودعوي ، بل المراد هم الكاذبون المفروضون في أحد طرفي المحاجة والمباهلة ، فلا محالة يكون

المدعي في كلا الجانبين أكثر من واحد ،وإلا لكان حق الكلام أن يقال مثلاً : فنجعل لعنة الله على من هو كاذب ، حتى يصح انطباقه على الفرد أيضاً . فالمشتركون مع النبي ﷺ في المباهلة شركاء في الدعوى.

وإن من الواضح البين أنه مع الاعتراف بصحة الروايات لا يبقى مجال لإنكار دلالة الآية على فضل أهل البيت ».

الفصل الثاني عشر

عبد الرزاق وتداعيات الأيام وذكرى الأنصهار في الإمامة

وفي ظهيرة أحد أيام الشتاء الماطرة ، كانت خطوط المطر تسترسل متوالية وهي تنصب دونما توقف. ظلت صفحات سيبها تمارس ضغطها المتناوب يتراشق على صفحات زجاج النوافذ المحيطة بي ، وهي التي صرت أراها تواصل رشقاتها الصارخة حتى تستكين قطراتها المنطبعةبأمواهها على سطوح ذلك البلور الذي رأيته يزداد صفاء شيئاً فشيئاً ، فأخذت الأصوات تزدحم حتى اكتظت جدران النوافذ بقطرات منتفخة سرعان ما كانت تصير إلى الانبعاج ، حتى كانت قد استباحتها كيما تعض على سحبها ، وهي تنشد الوصول إلى ميقاتي عبر هذه الألوان المتفتقة في رأسي. فصرت أهوى الانسحاب الانعكاسي إلى منتجع أطوف عنده بكل مراتع الماضي ، وأروقة الفائت من الليالي والأيام حتى طلت التشوف إلى مطالع الشمس القريبة من خيال الوهم الذي لا يسبح عند ضفافه سوى شوق الذكريات والغرد وصوت الأشجان العذب ، حينما طرت إلى دفق الرؤى المتصارخ عند غدير تلك الأوقات المنصرمة لأعود أرتل في ظلال أمواجها ، أرق أنواع القصيد! إذ حانت مني التفاتة حتى تمثلت لي أشباح أهلي ورنوت إليها ، فما كانت لألوان رسومها أن تروم التزيل إلا أن تمور في خاطري ، وبلج إلى محيط سمائي وأنواء آفاقي المتعبة بتفكرات ظلت أوداجي تنوء بهضمها كمن قد صارت

تتعرض إلى الاغراء والمخاتلة ، وذلك في إثر وقع ما برحت أعلق عليه أهمية وأخرى.

تذكرت أبي ، واستذكرت أحاديث أمي ، ورنوت إلى أختي ، وعدت أنظر في وجه أخي ، وأخي الآخر ، وظللت أحاور قسمات وجه أختي الكبرى حتى عدت أتطلع إلى سحنة بثة أختي الصغرى. وهناك قفزت مقلتاي لتداعب معالم وجه أخي الآخر والآخر ، كما لو كنت أجوب أطراف السماء حتى صرت أجوب شوارع وأزقة مدينتي .. وذلك بعد أن طوفت في أروقة المنزل ، وانقلبت أتلو لحن الشغف الحثيث بكل لون جدار وصورة ، وذكرى ولحن حركة ، ونوع أثاث وصبغة ملاءات واضفاءة مريلة حتى دلفت إلى مستودع أسرار وجودي التي استكان عندها خاطري ، وسما في وجد أطرافها عنق آمالي الذي ما غادرت ولحد الآن سحبه ، تلك الزوايا التي ارتقت جدران غرفتي ، إذ ما فتئت أرقب أطياف الأمس فيها ، وأعيد أغذو سماء حاضري الجدباء بكل ما احتملته ذاكرتي العجفاء ، وانطلقت به فوق ظهورها وهي تجلو الغمام ، وتنوي الاسراع دون التوقف ، ريثما أصل إلى نقطة تضيء لي كل المقاصد ، أرضف من حنينها أضواء سحب عائمة فوق ظلال المجرات التي أثقلت كاهلي ، وأعيت خاطري حتى شدهت بالي ، وتولهت بأيامها كالمتدله بغنجها ودلالها ..

إلا أني وقعت وبالتالي على مرادى الخفي ، فكانت تسترسل ألحاني مع أوراق تلك الأيام ، بينما جعلت ذاكرتي تنوء بذكر الشيعة وأهلها ، وألوان الخوف من كل ما يميل إلى التطبع بصيغهم البحتة ، والتأقلم في أجواء انطباعاتهم المترامية فوق أديم لا أجهل منه سوى جله ، ولا أعلم عنه سوى

خله الذي جعل يسقيني الزعاف من حموضته التي ظلت تصادر على مكابدة معدتي لها ، واحتراق جوفي ، وتغضن بشرتي ، واختلاف قسماتي وانقلاب رسمي ، وانسلاخ محياي الذي ظل يعايش الكبت والغثيان من مجرد التفكير بشيء اسمه التشيع. لماذا؟ لأ ني ما كنت لأسمع عنهم ، ولا عن اعتقاداتهم إلا ما يسيء إليهم ويزري بها! وما كنت لأبحر في خضم تيارات عقائدهم أو أركب كتف أمواج تعاليمهم الدينية والهج بالسقاية من ركب معالمهم الشرعية وأفانينهم القدسية .. فلا أطري ، ولا أبالغ ، بل لا أراهن ولا أغبن .. إنما الحقيقة هي التي غدت رائجة ، ترعف بكل غيثها المسموم وريعها الزعاف ، كأن المطر قد غدا قانياً ، ولون السحاب قد صار داجياً ، وألوان الذهب قد انقلبت صاغرة ، وهي تنكب على الولوع في احتساء ما تبقى من كأس أيامي المرهقة دون انقضاء ولا ملل. فهل يمكنني أن أشعر بالندم على ما ضيعته في أمسي وكل ما انقضى من وطر في البارحة من الزمان ، أو ما زهدت به في أمي ، إذ لم أكن أتوسل بأحدهم ، كيما يجيبني على أسئلتي ، وكيف لي أن أسائلهم ، وهم الذين ظلوا يجهلون كل ما يمور في عقول وفكر علماء الشيعة. بل ما يجول في مخيلة وصدور أقل الشيعة قدراً ومستوى .. بل عوام الشيعة! لأ نا جميعاً كنا وما زلنا ، نلهو بين أعطاف الحياة ، ونبذل أثمن الأوقات في سبيل اجتلاب أرخص معادن النزهات ومقامات السعادة .. ولو كان في رحالنا الشيء عنهم ، فإنه ما كان ينقضي إلا بالتندر على تعاليمهم والازدراء لعقائدهم ، فضلاً عن امتهان مشاربهم اللينية وصولاً إلى الطريف من القول والاستمتاع بنوادر ما يحكى عنهم ، عبوراً إلى الظريف من الاشاحة بالوجوه عن كل ما يرن جرسه طبقاً لهذه الألحان الشيعية أو يتناسب ذوقه مع نزعات تلك الضروب من

الصنوج العاتية ..

ولو كنا قد منحنا ثنتين من الأخوات لاثنين من الأخوة الشيعة ، فإنه ما كان لنا أن نشغل أوقاتنا ، ولا نتعب أفكارنا ، ولا للحظة واحدة ، في اسهاب الحديث ، ونأخذ بأطرافه ونعمل على مجاذبتهم ألوانه أو التعرف على نوع عقائدهم ، ولون تلك المساحيق والمعاجين التي تنضح بها معالم مذهبهم وروح عقيدتهم ..بل إنهما هما الآخران كانا في شغل شاغل عن مثل هذا الحديث حتى صرت أدور في حلقة قادتني بالتالي إلى الوقوع على دائرة أسباب تردي أوضاع الشيعة وانقلاب أحوالهم مع أنهم ينطوون . وبتصورهم . على أعظم العقائد الدينية في العالم ، ذلك أنهم ضنوا بما لديهم على الآخرين ، بل إنهم زهدوا بما احتوته نفوسهم ، وضمته خلائجهم على أنفسهم ، وفلذات أكبادهم حتى جعلت أرواحهم تفارق لسعة الاتقاد المذهبية ، لتختلط بعدئذ بمباهج الحياة ومتارف الدنيا المزدهية بالألوان الخلابة ، وأفنان الفنون الجذابة التي بدت أنها تنسي الكثير منهم وزن المهام الملقاة على عواتقهم في إعلاء الرسالة المحمدية الأصيلة.

ولو يسمعني أحدهم أحكي بهذا ، لقال عني أنيقد ولدت شيعياً ، أباً عن جد ، ولست سنياً ، بل لست أتعبد على نسج المذهب الحنفي والذي ما كنت لأعلم أني أتعبد على سياقه ، واستقي من تعاليمه إلا بصورة غير مباشرة ، بل إني أذكر عن تعاليم وقواعد مذهب أبي حنفية إلا ما كنت أجد أبي يفعله حتى صرت إلى تقليده ، ومن دون مراجعة رسالته أو شيئاً مما كتب عنه أو نقل ، ولم أجشم النفس ولا حتى التعرف على حياته أو أعليمته. وكان هذا كله يشككني في طبيعة الدين وثقل تعاليمه على العقل ، وقلة نبوغ علمائه ، وعدم

جدوى تحركاتهم من أجل إثبات أنهم قادرون على إدارة زمام أمور الدولة ، وتولي المناصب الحكومية واعتلاء دفة الحكم والتربع على سدته .. كنت أشك في اقتدارهم ، لا يخالجني أيما تفكير في مقدرتهم وعنفوان صلابتهم .. لذلك كنت أجد نفسي في غنى عن تعاليم نفس مذهبي ، أو بالأحرى ما كنت أدري بضرورة تقليد أحد أصحاب هذه المذاهب. بل كنت أتعبد على ما أجده لدى أبي وإخوتي حتى إني ما كنت أرى الإسلام ليعدو فهم معانيه أكثر من نيل هذا الحظ اليسير وحسب! أما المذاهب فهي الدين وحده وليس سوى الدين أي دين يعلو اختلاف الرأي في حناياه أو تصطفق أبواب الافتراق في الفتوى ما بين مصاريع بواباته ومطاوي عضادات دعاماته .. فإذا كنت أجدني أقف حيال ديني مثل هذا الموقف ، فما كان ليراني أدهش أي شخص ، وذلك حينما يلفيني لا أحفظ عن الشيعة ، إلا ما يعلق في مخيلتي من صور رهيبة ومحجة ليس إلا .. كأني لا أحمل منهم سوى التنفر من وجوداتهم ووجوههم ، وطريقة معيشتهم ، وكيفيات عباداتهم وألوان طقوسهم ومناسك أيامهم ، ورحلات مجالسهم ، وأصوات مناقبهم وكبحات مثالبهم.

كنت لا أعلم سوى أني أحيا في ظل حياة تنتظر مني المزيد من تقضي الأيام حتى تكشف عن جدوى الانتظار وحب القيلولة المتمرس على مغالبة ضروب النعاس ، وصنوف الوسن الحاد .. لذلك كدت أصير إلى ضفاف مذهبي من فلسفة ديني. ، فكيف لا أقف ولأعتى وأقوى من هذا ، حيال مذهب الشيعة حتى أواكب مسيرة أمواج المياه الضحلة عند الشواطئ والضفاف الراجفة بلسعات المد والجزر ليس إلا .. فأما الابحار في معاني المذهب الحنفي والغوص في عباب مياه المذهب الشيعي واستخراج لآلئه ، واستنفاد خرائده.

فهو ما كان يجديني أيما نفع ، لأ ني ما كنت قد وقفت على أضحية التعلق بأهداب الدين كل هذا التعلق ، ولو كنت أحس أني في قبالة تعاليمه منتظماً كالعقد في الجيد ، والحبة في السلسلة ، متوالياً مع النظم الأعرافية ، ولو كان لي أن أشذ عن تقبل الكثير مما له أن يندرج في المحرمات حتى كأني أشب عن طوقها دون المراعاة لها ، وأنا أصير إلى الجذلان أقرب مني إلى التعبان الذي له أن يعاني من غبن الأيام وعقد الزمان البالي ، والمتراكمة في محو ظهيرته كل ازدراء للتعاليم التي كنت لا أشك أنها تنبت في صدري كيراع الشوك المتقافز إلى عين المرء دون سواها من أعضاء بدنه. كنت لا ألوي على شيء سوى تنكب زمان الحرية دون أيما قيد ووازع ديني. فكيف كان لي أن أركن إلى تفصيل المذاهب السنية ، أو كان لأحدهم أن ينبهني إلى طرائق الدين ووحي المذهب الشيعي الذي ما كنت أسمع عنه إلا باسم المذهب الجعفري ، وما كنت أتصور أصحابه إلا متزمتين ، أكثر مما أجد أصحابنا يشعرون المرء بروح التزمت القاهر والتعصب القاتل! حتى إن أحدنا ليستشعر التقزز من وحي الدين أصلاً ، وكأ ني كنت أحيا في عهود متناقضة ، تحتلب ألوان السقيم من دون أن أجرأ على محاسبة نفسي واستجوابها .. كيف لي أن أعيش ، هل أعيش في خضم دين ، يفرض عناوين القاءاته علي ، ويرسم وجوه علائقه في أطياف مقلتي حتى يترعهما بالانقياد لكل ما أعلن عنه ، والاستباق صوب كل ما ثابر لأجله ، والانصياع لكل ما جاء به؟ وما كان لمثلي أن يقارن بين النعم التي غدا يجدها تتقلب هي بين أذرعه (ومن قبل أن يتقلب بين طياتها ، ويتقافز بين مطاويها ..) وبين مصاديقها الدينية ومطلقاتها الشرعية ، هل هي وفيما لو عرضت على عقائد الدين ، وتعاليم الشرع ، ستخضع إلى الاختيار والفحص

والامتحان ، ليختزل الدين منها ما أراد ، ويشطب منها ما لا يريد حتى كأنه يصادر على عقابي ، واستجلاء كل شبابي المتطرف ، ليصنع منه وقفاً على صور اشباع كل أهدافه ، والامتلاء حتى الرأس بكل ضيق يمكن له أن يصدني عن بلوغ سعاداتي المادية أو حتى استمتاعاتي المغالية .. إذ ما كنت أدقق في الأمور ، ولا كنت أتعقب كل ما أفعله ، أو أراه يجري ، فأبلغ بنفسي درجة تحاول فيها أن تسأل : كيف لها معالجة فلان قضية؟ أو كيف لها أن تدرج على هضم تلك المسألة؟ أو هل لها أن تطوي كشحاً عن فعل كذا من الأمور ، أو أن ترى إلى الحسان يتحركن في الطرقات ، أو أن تسترسل في الاستماع إلى كافة أنواع الأغنيات ، وهي تبالغ في أن تترع سمعها ، أو أن تدعني أسائل الرب والخالق : ترى هل يسمح لي أن لا أهتم بالدين إلا بظاهره؟ وما كان غير ذلك هو لا يحفل إلا بصدق النية ، فإن طهرت ، طهر ما سواها ، وما كان الله ليحاسب عباده على ما يفعلون ، إن صادقت نياتهم على كل طريق من كؤوس البراءة .. ولوأني كنت أجد نفسي فقيراً إلى علوم الدين ، ولست بالذي انطوى على عقلية فتاكة في هذا المضمار ، إذ ما كان لي أن أفهم الكثير من المسائل ، ولا كان لمثلي إلا أن يجهل العديد من اقدار الشرع وأقوات العقيدة الحقة .. ومداخل التاريخ الإسلامي.

فلم أسمع عنه إلا القليل ، فضلاً عما كان يتلى على مسامعنا في قاعات الفصول الدراسية ، وما كنت أحفظه واتتبع قراءته في دروسي المنهجية .. كما أني ما كنت لأشرع في التاريخ أيما لون من المرارة والمأساة ، وأن كل ما سطر في كتب التاريخ هو الصحيح ، ليس إلا ، وأن كل ما عبرت عنه أوراقه وصحائفه ولو احتملت كل الأذى والقهر للشعوب والأنفس ، فإنها لتعد من

ضمن الافعال التي ليس لها أن تغضب الرب ، وتثير حفيظة أملاك السماء ، لأن للحاكم المسلم مطلق الصلاحية في التصرف بأحوال رعيته ، والتحكم بسائر شؤون أفراد شعبه ، وليس لعوام الجمهور إلا أن يتحلقوا حول تعاليمه ، وينطقوا بما يقول ويردد ، من بعد أن يقبلوا بها كما يقبلوا بمتن ونصوص المعصومين من الرسل والأنبياء ..فضلاً عن الإذعان لمقالاته. كما تدغن قلوبهم إلى كلام الخالق وآيات قرآنه ..

إذن فما كان لي أن أقف موقف الباحث عن أسس دينه ، ويتحقق من صحتها ، فلقد تكفل بها الآباء عنا ، ولو أنا لم نكن نمني النفس في سؤالهم عن ذلك ، أو نكلف الرأس عناء الاستفهام عن ذلك ، لأنا كنا نحس أنهم يشاهدون علماء مذهبنا ، وما كان من أولئك إلا أن يتنكبوا كل المعاجم والمراجع الكتبية ، ولا ينطقون على المنابر العالية إلا بما حفلت به صدور آبائنا ، وحفظته أذهانهم ، عن ظهر قلب ، من كل ما وجدوه محفوراً في الكتب .. فما كان لنا بالتالي أن نلفي أيما ضرورة تنبلج لزهوات أرواحنا حتى تصارعنا وتستاقنا إلى ضرورة التنقيب عن كل شيء والكشف والبحث في كل ما أودع وفات الكتب ورصت حروفه في داخل صحائفها ، وانتعشت عبائره بين أسطر مخضرمة في ألوان طباعاتها القديمة والجديدة ، عبقة بكل أفانين الروايات التي كنت أخالها مقدسة. وما كان لنا إلا أن نتعقب ، وكما له أن يحصل لأبي كذلك حين يكون له أن يتفحصه من أحاديث الدعاء وطلب الرزق ، وروايات الأخلاق في بعض الكتب التي كان قد ابتاعها بطريق الصدفة ، أو أتفق لنا أن حصلنا عليها كهدية كنا قد تلقيناها من أحدهم ، أو جعلنا أطراف الحظر تنال منها ما يناله منها غيرنا حينما يبتاعها رغماً عنه ، وذلك عندما تركبه لحاظ

هوس جارف ، ما كان هو إلا أشبه بسيل عرم لا يبغي منه سوى شراء هذا الشيء أو الكتاب ، لأن نفسه كانت قد علقت بالحصول عليه ليس إلا .. وإذن ، فلقد غدت علوم الدين وبالنسبة لي كعلوم الفلسفة! إذ لا يسعني الوقوف إلا عند شواطئ سواحلها ، وبذلك ما كنت إلا لأخطئ الطريق ، فكيف كنت أجد لزاماً علي وفي مثل تلك الظروف أن أنظر في عقيدة الشيعة ، وأبحر في عباب أمواج علومهم وعقائدهم ، كيما أستجلي غيوم الحقيقة ، وأقع على كأسي المترع عزة وجلالاً ! وأنا ما زلت لم أقدم على فعل مثله في إزاء ديني ومذهبي. فلم أكن عندها لأحفل بإنفاق مثل هذا الوقت لمثل هذه الأعراف .. بل ما كنت أجهن يسرف في مثل ذلك إلا مهذاراً ، مبدداً لوقته الثمين ، مضيعاً لاحلى أيام شبابه وأجمل سني عمره! وذلك حينما كنت أرى منه ما أرى من إبحاره في غمار مطالعاته المكثفة لمختلف لكتب الجامعية والدراسية ومراجعها العلمية ، وانكبابه على غيرها في داخل ردهات وقاعات المكتبة العامة في الجامعة نفسها .. تحلقاً منه حول مجال استنطاق أقصى ما يكون من دقائق العلوم والاستحواذ على أكثر ما له أن يناله في اختصاصه .. وذلك حينما كنا في الجامعة إذ ما كان لنا إلا أن نلهو ، ولا نتبع آثار المطالعات الخارجية. فكيف كان لي أن أتبع أثر المطالعات والأبحاث العقائدية؟ وكيف كان لي أن أتميز أثر مثل هذه القراءات والمتابعات الدينية والخاصة بمذهب هو غير مذهبي. بل إن له أن يشوب فكري بأكثر من شائبة وأخرى إلى أن واجهني صاحبي عبد الرزاق في ذات يوم ، وهو الذي كان زميلي على مقاعد الدراسة الجامعية .. وذلك حينما انتابت ذهني مسألة الاصطلاح حول إمامة علي بن أبي طالب .. حتى استرعتني كلياً ! وهل أنه إمام حقاً ؟ وهل أن الإمام

شيء غير عادي حتى أصاب بالرعب من اسمه ، وكأ نه لا يجدر إلا بالله وحده! وكيف يمكنه أن يلتصق بالله؟ أي ماذا سيكون معنى هذه الكلمة حينما يكون لها أن ترتبط بكلمة الله؟! إذ إنه ما كان مني أن أسمع كلمة الإمام حتى ارعب ، وأقول : إن الشيعة قد جنحت إلى الكفر. وإن كنت اسمع عنهم ، بأ نهم يلصقون كلمة عليه السلام بأسامي أئمتهم حتى يصيروا يلحقونها بها كواحدة من المستلزمات المسلمات ، فإنه كان يستبد بي لهب الفزع حتى أحدث نفسي بأ نهم قد غلوا ، وتجاوزوا حدود الكفر بأقصى معانيه وأبعد حدوده .. إلا أنيالآن ما كنت لأستنطق حجب المجهول وأستار الماضي ، إلا بشيء يبحث له عن متنفس من الجواب الناجع ، والذي له أن يلحق بأضواء أسئلته التي جعلت تترى دون هوادة ، وهل لأيما أحد أن يشك بعد ذلك في مثل هذا الأمر؟! حيث كان صاحبي هنا الآخر الذي زاملته في هذه البناية قد صرح لي ، بأن هذا السلام هو أبسط المؤهلات التي يمكن أن تحترم بها الآخرين. فهل لك أن تدع السلام على من تعرفه ، وذلك حينما تراه ، أو على جمع خاصة عندما يكونون من المعارف ، وذلك حينما تدخل عليهم؟ كذلك هو الحال مع .. السلام هذا ..

الفصل الثالث عشر

الحوادث المؤلمة

عدت بذاكرتي من جديد إلى صاحبي الجامعي عبد الرزاق وهو يحدثني عما وقع بين المسلمين من مآسي.

. « وإذا اردنا أن نولي وجوهنا شطر الحوادث التي حدثت بين المسلمين ».

. « السنة والشيعة؟ ».

. « فإن ذلك أدهى وأمر ،وأشد وقعاً ،وأعظم خطراً ».

ـ « لقد وقعت بين السنة والشيعة حوادث مؤلمة أدت إلى إثارة نيران الفتن ، وإراقة الدماء ، وحرق المساكين ».

. « وليس بودنا أن نذكر هنا كل ما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين من أمور ».

ـ « لو طرحت على بساط البحث والمناقشة العلمية لزال كل شيء ، وكان الحكم للحق وحده ، والحق أحق أن يتبع ».

. « هذا أمر طبيعي! ».

. « ولأن الخلاف كان لا يتعدى حدود النزاع في مسألة الأمة وغيرها من المسائل التي حدث الخلاف بين الطائفتين فيها ».

. « وكيف تطور الوضع؟ ».

. « لقد تطور الوضع إلى حالة تحزب ضد الشيعة ، واتجاه معاكس ».

. « وكيف تم مثل ذلك؟ ».

. « لقد حاكوا لهم التهم ، وحملوا عليهم بكل ما هو شائن من دون التفات إلى حق العلم ، أو خضوع للحق ».

. « وهل لك أن تشرح لي ملابسات ظروف كل ذلك؟ ».

. « يطول بنا الحديث حول ذلك ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد ، والشيء الذي أود أن أشير إليه هو : أن الأمر بلغ أشده حتى أدى إلى ثورات دموية مؤسفة ».

. «؟!».

. « وفتن ذهب تحت هياجها خلق كثير ».

. « ولعل من أعظم ذلك يوم كان الشيعة يقومون بإقامة شعائرهم الدينية ».

. « بالضبط! ».

ـ « كيوم عاشوراء ، ويوم الغدير كذلك ، فإن ذلك كله يدعو إلى الإنكار من إخوانهم السنيين ».

. « ولماذا؟ ».

. « لأ نهم يدعون أن النياحة في محرم ، وإقامة الزينة يوم الغدير بدعة ».

. « وهل كان يصاحب ذلك مشاجرات؟ ».

. « لقد كان يصحب هذا الإنكار إعتداء أدى إلى إراقة الدماء بين الفريقين ».

. « وهل قتل فيها عدد غفير؟ ».

. « لقد قتل فيها الخلق الكثير! ».

. « كل هذا أين وجدته؟ ».

. « لقد طالعته في كتاب البداية النهاية لابن كثير [1] ».

. « البداية والنهاية! ».

. « ومع هذا فإن السنة قاموا بما قامت به الشيعة من النياحة على مصعب بن الزبير مقابلة للحسين ».

. « كرد على الشيعة وبالمثل؟ ».

. « وأقاموا الزينة يوم الغار مقابل يوم الغدير وقد مرت الإشارة لذلك ».

. « لا حول ولا قوة إلا بالله ».

ـ « كما أنهم أقاموا النياحة على كثير من الناس ، وقد رأوا أن ذلك من الأمور المستحسنة ».

. « وأين وصل بهم الحد؟ ».

ـ « حتى قال محمد بن يحيى النيسابوري ـ حين بلغه موت أحمد بن حنبل ـ : ينبغي لأهل كل دار في بغداد أن يقميوا على أحمد بن حنبل النياحة في دورهم ».

. « أين قرأت هذا؟ ».

. « قرأته في طبقات الحنابلة [2] ».

ـ « وأقيمت النياحة على أحمد بن حنبل ، وعظم الحزن عليه ، ولازموا قبره مدة من الزمن ،إظهاراً للتفجع ، وأقيمت مجالس العزاء عليه، كما أقيمت النياحة على غيره من الرجال ».

. « هل لك أن تذكر لي من الأمثلة على ذلك؟ ».

---

(١) البداية والنهاية ١١ : ٢٣٥.

(٢) طبقات الحنابلة ٢ : ٥١.

. « هاك : يموت أبو الفتح إسماعيل بن السلطان محمود سنة ٥٦٧ هـ فتقام عليه المآتم ، ويناح عليه نوح الثكلى ، ويكثر البكاء في الطريق ،وتفرش بالرماد إظهاراً للحزن ، وتعظيماً للمصاب ».

. « أين ورد هذا الخبر؟ ».

. « ورد في شذرات الذهب ج ٦ ص ١١٢ ».

. « والآخر؟ ».

. « ويموت ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ فتحضر جنازته خمسون ألف امرأة ينحن عليه ».

. « أووه! ».

. «ومائتا ألف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجاً بالبكاء والعويل ، لما غسل جمع ماء غسله ».

. «؟!».

. «فشربوه تبركاً به ».

. « لا .. إن هذا شيء لا يطاق تحمله حقاً والرضا به! ».

. «واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به تبركاً ».

. « ».

. « ودفع بالطاقية التي على رأسه خمس مائة درهم ، والخيط الذي في رقبته فيه الزئبق لدفع القمل دفع فيه مائة وخمسون ديناراً ، وسارت جنائز أهل السنة ، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه وينوحون عليه ».

. « والنساء؟ ».

. « ثم أذن للنساء ففعلن مثل ذلك ».

. « وأين كان كل هذا؟ ».

. « عثرت عليه في تاريخ ابن كثير [1] ».

. « وهل واصلوا إقامة مراسيم العزاء على روحه؟ ».

ـ « أووه ، لقد أقيمت عليه المآتم ودامت النياحة ورثاه خلق كثير منهم شمس الدين الذهبي وغيره ».

. « وأين ذكر هذا؟ ».

. « ذكر في العقود الدرية في مناقب ابن تيمية [2] ».

. « وهل لديك المزيد؟ ».

ـ « وكيف لا ، استمع إلى هذه : يموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة ٤٨١ هـ فمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرساً ».

. « والنساء؟ ».

. « والنساء ينحن عليه في الأسواق ، وسود أهل البلاد أبوابهم ».

. « ولا بد أن مثل ذلك يتعدى إلى شيخ الحرمين كذلك؟ ».

. « ولم لا ، فإنه يموت شيخ الحرمين ، فتطوف تلامذته في الشوارع ينوحون عليه نوح النساء ».

. « ومن الطبيعي أن يشذوا عن القاعدة ».

. « لقد كسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة كاملة ».

. « وأين وضعت اليد عليه؟ ».

---

(١) البداية والنهاية ١٤ : ١٣٨.

(٢) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية : ٣٩٩.

. « في طبقات الشافعية [1] ».

. «طبقات الشافعية؟ حقاً؟! ».

ـ « وأبو عمر الحنبلي المتوفى سنة ٦٠٧ هـ يعظم عليه البكاء والعويل يتناحون عليه رجالا ونساء ، وغسل في المسجد ، ونشف ماء غسله بخمر النساء ».

. « بخمر النساء؟ ».

. « أجل ، وبعمائم الرجال ـ للتبرك به طبعاً ـ ويتسابقون إلى تمزيق كفنه يتبركون به ، وكادت تبدو عورته ».

. «حقاً؟ ».

. « وذلك لولا محافظة الدولة على كرامته. فدفعت الناس عنه بالسيف ».

. « وبعد ذلك؟ ».

. « قال ابن العماد : ولولا الدولة لما وصل من كفنه إلى قبره شيء ».

. « إلى هذا الحد ، .. أقول : أين قرأت كل هذا؟ أخبرني؟! ».

. « وجدته في شذرات الذهب [2] ،ويمكنك مر اجعته إن لم تطمئن! ».

. « وغير ذلك؟ ».

ـ « وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسي سنة ٥٢٩ هـ ينحن عليه يلطمن وهن منشرات الشعور ينشدن المراثي في الطرقات ».

. « وإذن ، فهم يعتقدون بكل هذا الذي يفعلونه وذلك بحكم التكرار والتواصل! ».

---

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٥٩.

(٢) شذرات الذهب ٣ : ٣٠.

. « أما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بأن شقوا الثياب عليه ».

. « وهذا الآخر ، من أين لك به؟ ».

. « إنه في تاريخ دول الإسلام للذهبي [1] ».

. « وغير هؤلاء ممن يطول بنا الحديث عنهم وما حدث من مظاهر الحزن والأسى يوم وفاتهم وبعده ».

. « فما هي إذن أسباب تلك المؤاخذات؟ ».

ـ « ونحن إذا نظرنا إلى أسباب تلك المؤاخذات التي تؤاخذها الشيعة استوجبت حدوث تلك الحوادث ، نجد الأسباب تعود إلى متابعة أغراض السلطة ، حتى تحكم العداء للشيعة ».

. « وأصبح الابتعاد عن تهمة التشيع ».

. « .. أجل .. أمر لازم حتى حرموا التشبه بهم ».

. « وما يمكن أن يكون في جعبتك من الأخبار التي لها صلة بالموضوع؟ ».

ـ « ذكر الزرقاني في المواهب اللدنية في صفة عمة النبي على رواية علي في اسدالها على منكبه حين عممه رسول الله ».

. « طيب! ».

ـ « ثم ذكر قول الحافظ العراقي أن ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية ، فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم ».

. « أووه! ».

---

(١) تاريخ دول الإسلام ١ : ١٨٢.

. « فهذا الشيخ يفتي بترك التشبه في اتخاذ العمة التي كان رسول الله يلبسها ».

ـ «وهذا هو بحد ذاته ليعد شاهداً من آلاف الشواهد التي عامل بها رجال أولئك العصر شيعة آل محمد ».

ـ « ولا غرابة في ذلك ، فإن تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة ، وهل وراء ذلك إلا ازهاق الأرواح ، ونهب الأموال أو السجن أو التبعيد؟ ».

. « لذلك التجأ الأكثر إلى التظاهر في الوقيعة بهم ».

. « بالضبط! فأدى الأمر إلى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيع حتى في الرؤيا ».

. «أضف إلى حديثنا مزيداً من الأخبار الداعمة؟ ».

ـ « يحدثنا الخطيب البغدادي أن رجلاً رأى علياً (كرم الله وجهه) في المنام فلم يجسر على الدنو منه ».

. « ولماذا؟ ».

. « فسأله صاحبه فقال : أخشى أن قربت إليه أسأله أن أتهم بالتشيع ».

. « إلى هذا المبلغ! ».

. « وأكثر ، وهكذا كانت السلطة الجائرة قد أرادت تفريق كلمة المسلمين ، وايقاد نار العداء فيما بينهم ، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة ، رغبات في نفوسهم ، لا تنال مع الوحدة والاتحاد ، وتبادل الثقة والإخاء ».

. « ولم يكن في الأمة كلها أيما رجال يدعون إلى الحق؟ ».

ـ « كيف لا ، لقد كان في الأمة رجال يدعون إلى الحق ، وينبهونهم على هذه الأخطاء ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة ».

. « كيف؟ ».

ـ « لأن الفوضى تحكمت في المجتمع ، ودبت روح الاختلاف في النفوس ، وطغت موجة التعصب ، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل أن سلط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة ».

. « حتى ».

. « حتى ألبسوهم الذل ، وحكموا فيهم السيف ، وسقوا من دمائهم الأرض ».

. «ولربما أقاموا من رؤوسهم تلالاً ».

. « بالضبط ، فتمكن من قلوب المسلمين الرعب ».

ـ «وحتماً كان لهم أن تسلب منهم تلك القوة والشجاعة ،والتفاني في سبيل نشر كلمة التوحيد ، يوم ساروا تحت راية الإسلام ، وهم يستهينون بالحياة ، ويستقلبون الموت ، ويتمنون الشهادة ، حتى أخضعوا جبابرة الأرض ودانت لهم البلاد ».

ـ « وليس ذلك فقط وحسب! وإذا بهم بعد تلك العزة ، يستولي عليهم الذل ، ويدخل في قلوبهم الرعب ، ولا يدافعون عن أنفسهم ».

. « هل لك أن تستشهد؟ ».

. « كان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر ».

. «حقاً؟ ».

. «ودخلت امرأة داراً وقتلت جماعة من أهلها ، ولم يدفعوها عن أنفسهم ».

. «؟!».

. « ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى

أفناهم ، ولم تمد إليه يد بسوء ».

. « أووه! ».

ـ «وأخذ رجل من التتر رجلاً من المسلمين ولم يجد ما يقتله فيه ، فقال له : ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ،فوضع رأسه وبقى نائماً حتى جاء التتري وقتله ».

. « أمور لا تصدق! ».

. «وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات ويميت قلبه أسفاً وحزناً ».

. « بالفعل ».

. « وها نحن اليوم أمام تيار المبادىء الفاسدة ، والآراء الهدامة ، والعقائد السخيفة ، وإن خطرها على المسلمين لأعظم خطر يخاف عاقبته ».

. « ولا بد أن تخشى مغبته ، وذلك إن لم ينهج المسلمون لمكافحتها بتفهيم التعاليم الإسلامية والقيام بتطبيقها عملياً ، وأن يتحدوا لابعاد المتدخلين بين صفوف المسلمين ، لهدم المجتمع الإسلامي ، وتشويه تعاليمه الدينية الأخلاقية ».

. « واستبداله بتعاليم إباحية ، ولا يدفع ذلك الخطر إلا باتحاد الكلمة وفهم الإسلام فهماً صحيحاً ، وان تستقى تعاليمه من ينبوعه الذي أراد الله ان نأخذ منه ونتبع قول الحق ».

. « وأكثر ».

. « وأئمة الصدق ».

. « من تقصد؟ ».

الفصل الرابع عشر

طاعة أولي الأمر ولفحات الحقيقة

وفي يوم آخر تابعت الحديث معه ، فكان يقول لي ، وذلك بعد أن سألته أن يعرض علي بعض الآيات القرآنية والتي لها أن تدلل على ولاية علي بن أبي طالب :

. « مثل آية أولي الأمر ».

فقلت :

. « لم أسمع بهذا الاسم من قبل ، وأي الآيات هي؟ ».

قال :

ـ « هي : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ ».

. « في أي السور تقع هذه الآية؟ ».

. « النساء : ٥٩ ».

. « وعلى ماذا يركز القرآن فيها؟ ».

. « يركز القرآن الكريم على وجود منصبين للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ».

. « وماهما؟ ».

. « الأول : منصب ابلاغ التشريع وما يوحيه الله إليه ، وأداء رسالة الله ، بيان

الأحكام والمبادئ الإسلامية في مختلف المجالات ».

. « من مثل؟ ».

. « من مثل قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾. وذلك في سورة النحل : ٤٤ ».

. « والثاني؟ ».

. « الثاني : منصب القيادة والحكم بين الناس ، الذي يتطلب اتباع الأمة له في أوامره ونواهيه وتصويب آرائه والتسليم له ».

. « شاهده؟ ».

. « قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ كما في سورة النساء ، الآية : ١٠٥ ».

. « وهنا ، على أي المسائل ، يمكن أن يؤكد القرآن؟ ».

. « والقرآن إذ يركز على وجود هذين المنصبين له ﷺ يؤكد على لزوم طاعة الأمة الإسلامية له في كلا المجالين ، فيقول تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ ، باعتبار أن طاعته ﷺ هي طاعة الله تعالى في الواقع ».

. « وتكرار ﴿ **أطيعوا** ﴾؟ ».

ـ « أما تكرار ﴿ **أطيعوا** ﴾ فليس للتأكيد ـ كما قال به بعض المفسرين ـ وإنما يشعر بلزوم طاعة النبي ﷺ في المجال الثاني أيضاً ».

. « واللزوم هنا؟ ».

ـ « إن هذه الآية الكريمة لتأمر ـ بكل وضوح ـ جميع أهل الإيمان بإطاعة الله تبارك وتعالى في أوامره ونواهيه ، وإطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر في مختلف أوامرهم ونواهيهم مطلقاً ».

. « وهل كرر القرآن الأمر بإطاعة الله عز وجل مقرونة باطاعة رسوله ﷺ؟ ».

ـ « لقد كرر القرآن الكريم لتوضيح أن طاعته ﷺ هي طاعة الله تعالى ، إن وجوب إطاعتهما هو على نسق واحد ».

. « أين؟ ».

. « وذلك في آيات كثيرة مثل : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ وردت في سورة آل عمران ، الآية : ١٣٢ وآية : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ ، آل عمران : ٣٢ و : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، الأنفال : ١ و : ﴿**أطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون** ﴾ ، المجادلة : ١٣ و : ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ ، النور : ٥٤ .. و : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ ، سورة محمد : ٣٢ وغير ذلك من الآيات الكريمة ».

ـ « وإذا كانت إطاعته ﷺ قد انفردت في بعض الآيات كما قال تعالى : ﴿ **أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** ﴾ (النور : ٥٦)؟ ».

. « إن ذلك لا يعني افتراقها عن طاعة الله عز وجل ، فإن الآية الكريمة الأخرى تصرح بالوحدة بينهما حيث يقول تعالى في سورة النساء ، الآية ٨٠ : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾. وهكذا نقطع من خلال ملاحظة هذه الآيات إن طاعته ﷺ هي طاعة الله ومن سنخها ».

. « وأين يقع معيار الطاعة المطلقة؟ ».

. «فإنه لما كانت طاعة الله مطلقاً في أوامره ونواهيه هي طاعة معصوم

بالضرورة، كانت طاعة رسول الله ﷺ مطلقاً في أوامره ونواهيه الحكومية وبياناته المفسرة لمجمل الكتاب ، طاعة معصوم أيضاً لوجود تلك العينية بين الطاعتين ... وهي حقيقة قرآنية جلية لا مجال لإنكارها لشدة وضوحها ».

. « وطاعة أولي الأمر؟ ».

ـ « ولما كان (أولو الأمر) قد ذكروا مع الرسول ﷺ فإن الآية الكريمة تدل على فرض طاعتهم نظير ما للرسول من إطاعة في مجال الولاية والحكومة ، من لزوم قبول رأيهم وطاعة أوامرهم ، لأ نهم ولاة أمر الناس وحكامهم ».

. « أتقصد أن هناك اتحاد في مثل هذه الطاعة؟ ».

ـ « إن مما يمكن أن يلاحظ في هذه الآية ، هو أنها تؤكد وحدة اطاعة الرسول ﷺ وإطاعة ولي الأمر ، إذ جعل الله تعالى لنفسه إطاعة للرسول ﷺ وأولي الأمر إطاعة ، فتكون إطاعة أولي الأمر إطاعة للرسول ، فهى إذن إطاعة للمعصوم ».

. «وبذلك تكون واجبة مطلقاً؟ ».

. « أجل ، وذلك بحكم الالتحام بين طاعتهم وطاعة الرسول ﷺ التي تعنى طاعة الله تعالى ، وبهذا تكون الآية دالة على عصمة أولي الأمر ، لإقتران طاعتهم بطاعة الله تعالى ».

. « بماذا يمكن أن يؤيد هذا المعنى؟ ».

ـ « إنه يمكن أن يدعم بعدة نقاط ، النقطة الأولى : إن الله تعالى أمر باطاعة أولي الأمر من جهة ، ونهى عن اتباع خطوات الشيطان من جهة أخرى. فإذا افترضنا أن ولي الأمر لم يكن معصوماً لزم أن يكون اتباعه في مورد خطئه اتباعاً للشيطان. ولا يمكن الأمر بشيء قد نهي عنه ، لأ نه يلزم منه التناقض، كما أنه

يتنافى مع الاطلاق في ﴿ **أطيعوا الله** ﴾ ».

. « والثانية؟ ».

ـ « النقطة الثانية : إن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر على الاطلاق كطاعته وطاعة الرسول ، وهذا الاطلاق لا ينسجم إلا مع عصمة أولي الأمر ، لأن غير المعصوم قد يأمر بمعصية فيحرم طاعته في ذلك ، وعند ذلك لو قلنا بأن الإطاعة ما زالت واجبة اجتمع الضدان (الوجوب والحرمة) وهو أمر باطل ».

. «إن الأمر في هذه الآية وإن كان مطلقاً لكنه مقيد بمثل الآية الشريفة ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ (الاعراف : ٢٨) وقول الرسول ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، فإذا أمر أولو الأمر بمعصية حرم اتباع أمرهم ولم يشمله وجوب الطاعة ، فلا يوجد أي تضاد ».

. « إن هذا الادعاء مردود ، حيث إن العارف باللغة يجد تعارضاً بين القولين التاليين : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾، كما هو وارد في سورة النساء ، الآية ٨٠) ، و : لا تطع الرسول في ما خالف الله!! ».

. « كيف؟ ».

. «إن هذا التنافي الواضح ينشأ من دلالة القول الأول ضمناً على صحة كل ما يأمر به الرسول وموافقته لأمر الله تماماً ، وهذا لا ينسجم مع دلالة القول الثاني على إمكان مخالفة رسول الله مما يجعله مناقضاً لمضمون القول الأول ».

. « والنتيجة؟ ».

. « النتيجة هي : أن الآية تنزل إطاعة الرسول منزلة إطاعة الله : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾. وهذا التنزيل لا يقبل أي تخصيص أو تقييد بلا ريب. ولما كانت إطاعة أولي الأمر تشترك مع إطاعة الرسول في السياق تتساوى معها

في الإطلاق ،فهي لا تقبل تقييداً كذلك ».

. « طيب والنقطة الثالثة؟ ».

. « أما النقطة الثالثة فهي : لا معنى مطلقاً لأن نتصور الآية تأمر بإطاعة أولي الأمر في خصوص ما عدا المعاصي ،فإن ذلك لا ينسجم أبداً مع ما هو الظاهر منها من كونها تركز على تعظيم الرسول وأولي الأمر وجعلهما في مستوى واحد من اللزوم. فإن تعظيم العاصي . ولا سيما المنغمس بأنواع الفواحش . قبيح ».

. « وأكثر من هذا؟ ».

. « هذا بالإضافة إلى أن وجوب الطاعة لمن يأمر بالطاعات ».

. « أقول .. وإذن فهل تجب طاعة كل آمر بالمعروف وناه عن المنكر؟ ».

. « وأنا أقول حين جوابك ، فلماذا لم يذكر هؤلاء هنا وخص الأمر بهم دون غيرهم؟ ».

. «؟!».

ـ « كل هذا يؤكد أن المستفاد من الآية هو عصمة الرسول وأولي الأمر لأ نهم لا يأمرون ولا ينهون إلا بالحق ».

. « والقرينة العقلية؟ ».

. « وبعد هذا كله ، فإنه لا مجال لأن يقال بأن عدم جواز طاعة المخلوق في معصية الخالق أمر عقلي مسلم مرتكز في ذهن العقلاء ، فهو يشكل قرينة عقلية متصلة بالكلام تمنع من إطلاق قوله تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر** ﴾ ، وتجعله دالا على لزوم إطاعة الرسول وأولي الأمر في غير المعاصي ».

. «وهل ثمة مجال للقول بأن ذكر أولي الأمر وتخصيصهم إنما هو

لمصلحة اجتماعية ، هي حفظ وحدة المجتمع وصيانته من اختلاف الكلمة؟ رغم أنه من المحتمل أن يخطئوا ، لأن هذه المصلحة تعوض وتسد نقص الأخطاء ».

. « إن مثل هذا لا يعد إلا توهماً باطلاً وذلك طبقاً لما أوضحته لك ».

. « وهل يمكن للقرآن أن يمنح الشخص مثل هذه الاحتمالات؟ ».

. « إن القرآن الكريم وأسلوبه في التعبير لا يساعد على هذه الاحتمالات ، فإن القرآن يلتزم بالتقييد في ما هو أهون من ذلك بكثير وأوضح ».

. « مثال؟ ».

ـ « كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت ، الآية : ٨ ، وذلك حين التعرض لبر الوالدين : ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما** ﴾ ».

. « وهل اعترف أحد كبار المفكرين الإسلاميين بدلالة الآية على العصمة؟ ».

ـ « لقد اعترف إمام المشككين الفخر الرازي بدلالة الآية على عصمة الرسول وأولي الأمر ، فقال في المسألة الثالثة في ذيل الآية : اعلم أن قوله عليه السلام ﴿ **أولي الأمر منكم** ﴾ ، يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة ».

. « وماذا كان دليله؟ ».

ـ « تابع كلامه بالقول : .. والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ ،إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته ،فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ ، والخطأ لكونه خطأ نهي عنه. فهذا يقتضي اجتماع الأمر والنهى في الفعل

الواحد باعتبار واحد ، وإنه محال. فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم ،وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ. فثبت أن أولي الأمر المذكور في الآية لابد وأن يكون معصوماً ».

. « وهل يمكن تبين رأيه بدقة أكثر؟ ».

ـ « لقد قال في موضع آخر : .. فكان حمل الآية على الإجماع أولى ، لأ نه أدخل الرسول وأولي الأمر في لفظ واحد ، وهو قوله : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ فكان حمل أولي الأمر الذي هو مقرون الرسول على المعصوم أولى من حمله على العاجز والفاسق الخ ».

. « وهل غامر غيره في بحث هذه المسألة؟ ».

. « لقد صحح المطالب كل من النيشابوري والشيخ محمد عبده. على ما حكاه مقرر بحثه في المنار بقوله : فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا علي أمر من مصالح الأمة. إلى أن قال. فطاعتهم واجبة ، ويصح أن يقال هم المعصومون في هذا الإجماع. وإن أضاف إليه المقرر ما يوهم خلافه ».

. « من هم أولو الأمر؟ ».

ـ «وأولو الأمر طائفة من الأمة يتملكون شأناً هاماً هو : ولاية أمرها ، والإشراف على تسيير دفة الحكم فيها ، ولهم أن يأمروا بما يرون فيه مصلحة الأمة وسيرها الطبيعي ».

ـ « ولا ريب في دلالة الآية الكريمة على وجودهم في الأمة ، وإلا لكان الأمر باطاعتهم لغواً. ولكن من هم هؤلاء؟ وهل كان أحدهم موجوداً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟وهل كان هذا. لو وجد. يتقلد منصباً ويتولى شأناً من

الشؤون أو كان على الأقل مؤهلاً لتولي هذا الشأن؟ ».

. « هذه أسئله لا تجيب عليها الآية الشريفة ، ولذا كان اللازم الرجوع الى من أسلمت له مهمة بيان الكتاب وتفصيل مجمله ، وذلك كما في أمثال هذا المورد من عدد الصلوات وركعاتها ومناسك الحج وغيرها ».

. « ثم إن أولي الأمر : اسم جمع يدل على كثرة المسمين به ».

. « إلا أنه لا مانع من أن يراد به آحاد يتقلدون الأمر واحداً بعد الآخر ».

. « هل يمكنك أن تأتيني بنظائر لهذا الاستعمال؟ ».

ـ « إن لهذا الاستعمال نظائر عديدة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى في سورة القلم : ٨ ﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولا تطيعوا أمر المسرفين** ﴾ وذلك في سورة الشعراء ، الآية : ١٥١ ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا** ﴾ كما في الاحزاب : ٦٧ .. وأمثال ذلك ».

. « والمقصود به أن الاستعمال على نحو القضية الحقيقة ـ كما يعبر المناطقة ـ أي على نحو اصدار حكم على موضوع معين مفروض ، فمتى ما تحقق ذلك الموضوع في الخارج تحقق الحكم. وهنا يقال : إنه متى ما تحقق ولي الأمر ووجد خارجاً تجب طاعته. وليس هذا المعنى خلافاً للظاهر من التعبير القرآني ».

ـ « ومن هنا نعرف فساد ما توهمه الفخر الرازى من أن أولي الأمر جمع فلا بد من إرادة جماعة ، أي إرادة هيئة مكونة من أفراد مجتمعة ، أما إرادة فرد واحد منها فهو خلاف الظاهر ».

. «؟!».

. « نعم ، إذا استعمل لفظ الجمع في المفرد لا غير ـ على نحو القضية

الشخصية. فهو خلاف الظاهر بلا ريب ، وليس الأمر هنا كذلك ».

. « وتعبير : ﴿ **منكم** ﴾ ، في الآية الكريمة؟ ».

ـ « أما تعبير ﴿ **منكم** ﴾ في الآية ، فهو نظير تعبير ﴿ **منهم** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم** ﴾. ولعل ذكر هذين التعبيرين لأجل توضيح حقيقة وجوب طاعتهم رغم أنهم (منكم) ، وذلك باعتبار وجود مزية لهم على الآخرين ».

. «؟!».

ـ « فليس بسديد ما قيل من أن تعبير (منكم) إنما جاء للتنبيه على أنهم أناس عاديون مثلكم بلا أي مزية كالعصمة وشبهها ».

. « وهل المراد بهم أهل الحل والعقد؟ ».

ـ « بعد أن اعترف الرازي بلزوم عصمة أولي الأمر واستظهر من لفظ الجمع أن المقصود هم جماعة ، فسر أولي الأمر بأ نهم أهل الحل والعقد من العلماء ، وبنى عليه حجية الإجماع معبراً عنه بإجماع الأمة تارة ، وإجماع أهل الحل والعقد أخرى ».

. « إذن .. فهم أولي الحل والعقد؟ ».

. « اسمع! إلا أن هذا الرأي تكتنفه تساؤلات كثيرة وثغرات تجعله رأياً هزيلاً باطلاً ».

. « وكيف؟ ».

ـ « إذ يتساءل قبل كل شيء عن المقصود بهذا التفسير ،وهل أن المراد هو عصمة كل فرد فرد من أهل الحل والعقد؟ وهو واضح البطلان ولا يدعيه أحد ».

. « أو أن المراد هو عصمة هذه الجماعة بما هي جماعة بلا أن يتصف

الأفراد بالعصمة؟ ».

ـ «فهذا أيضاً باطل لا معنى له ، فإن تصورهم كجماعة مستقلة عن أفرادها أمر اعتباري ذهني محض ، وهذا الأمر الاعتباري الذهني لا يقبل أن يتصف بصفة حقيقة خارجية هي العصمة!! ».

. « وكيف؟ ».

ـ « إن الهيئة المشكلة منهم لا يمكن أن تتصف بالعصمة مع افتراض عدم عصمة هؤلاء الأفراد ».

. « وقد يحصل الادعاء بهذا الصدد ، أن أهل الحل والعقد إذا اجتمعوا على أمر كان اجتماعهم ملازماً للصواب والحق عادة ، وذلك نظير أخبار جماعة كثيرة عن حادثة ، حيث يلازم ذلك صحة الخبر إذا بلغ أخبارهم حد التواتر ».

فقال لي :

ـ « إلا أن مثل ذلك هو غير تام ،لأ نه أولاً : لو فرض وجود هذا التلازم فهو لا يختص بهذه الأمة ».

بينما عدت اجتر منه عصارات ذهنه المركزة ، فعدت إلى مطالبته.

. «وثانياً؟ ».

ـ «وثانياً : لأ نه لا ملازمة بين اجتماع طائفة من الناس على شيء ومطابقة ذلك الشيء للواقع الخارجي ، فكم من أمر اجتمع عليه أهل الحل والعقد بان خطؤه بعد حين ».

. « وقد يدعى أن عصمة هؤلاء بتأييد إلهى وعناية منه تعالى وسعي منهم في اجتناب المعاصي وأعمال السوء ».

. «ولكن هذا الادعاء باطل أيضاً بالضرورة ، فما أكثر الهيئات الاجتماعية

الإسلامية التي لم تعصم من الخطأ والزلل في قراراتها المجمع عليها مما جر على المسلمين أحياناً مآس ومفاسد كبرى ».

. « واذن فأهل الحل والعقد أين يكونون؟ ».

الفصل الخامس عشر

الولاية والخلفاء

. « والحقيقة هي أنهلو كانت هذه الكرامة لأهل الحل والعقد من الأمة المسلمة واقعاً ، لكان من المنطقي أن نشاهد تأكيد القرآن الكريم عليها واهتمام النبي ﷺ ببيانها ، ولدارت حولها أسئلة كثيرة من قبل المسلمين محاولة استيضاح حدودها وشرائطها وتفصيلاتها والموقف من ملابساتها المتوقعة ».

. «ونحن نرى أن المسلمين تساءلوا عن كثير من الأمور التي هي أقل خطراً منها ، بل لا تقاس قيمتها إلى هذه الكرامة المدعاة ».

. « أجل ، إنك تؤكد مزاعمي ،إلا أننا نجد أن كل ذلك يحدث مطلقاً ، وبقي هذا النظام الذي ادعيت له هذه الكرامة نظاماً غامضاً يفتقد أي صورة محدودة له ولو اجمالاً ، مما يؤكد لنا بوضوح أن هذا الادعاء ما هو إلا مجرد خرافة ، وأن الإسلام لا يمكنه أن يضع مثل هذا النظام وبهذا الشكل من الغموض والابهام ».

. « فكل هذه الاحتمالات باطلة لا أساس لها ، ويتعين بالتالي ما قالت به الإمامية من أن المراد هم أفراد معصومون من هذه الأمة منزهون في أفعالهم وأقوالهم عن الخطأ والزلل مما يفرض على الأمة طاعتهم واتباع منهجم والانضواء تحت لوائهم ».

. « بالتأكيد! ».

. « ومعرفة من هم هؤلاء كيف تتم؟ ».

. « أما معرفة من هم هؤلاء فهي موكولة إلى الله ورسوله ، وقد عينتهم آيات مثل آية التطهير وآية الولاية : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله ..** ﴾ كما شخصتهم أحاديث جمة مثل حديث الثقلين وحديث الغدير ».

. « وما يمكن أن تكون الأمور التي يرجع بها إلى أولي الأمر ».

. « إنه ولأجل تعيين الأمور التي يرجع بها إلى أولي الأمر أقول : إن الآية عبرت بأ نه : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ ، وكلمة : (شيء) ، هي لتعم بظاهرها كل ما تنازعت الأمة واختلفت فيه ، سواء كان حكماً من الأحكام التشريعية الكلية ».

. «؟!».

. « .. أو كان من القضايا والمنازعات التي تحتاج في حلها إلى الترافع والتحاكم ، إلا أن الآية لما ذكرت الرد إلى الله والرسول بالخصوص بلا ذكر لأولي الأمر فإنها أوضحت أن المراد من الشيء المتنازع فيه هو تلك الأحكام الكلية التي يمتلك الرسول فيها حيثية التبليغ ».

. « الأحكام الكلية؟ ».

ـ « أجل! وإلا فالموضوعات كما يمكن ردها إلى الرسول بما له من الرأي يمكن ردها أيضاً إلى أولي الأمر بما لهم ذلك ».

ـ « ومن الممكن أن نقول : إن عدم ذكر أولي الأمر مرة ثانية كان للاختصار والوضوح ، فكان ذكر الله والرسول من باب التمثيل لمن يرجع إليه في الأحكام والمواضيع المتنازع فيها لا من باب الحصر. ولذا لا نحتاج إلى أن نقيد الاطلاق في كلمة : (شيء) ، بخصوص الأحكام الكلية ».

. « إنه من الممكن ».

ولقد كان وجد في نفسي روحاً متطلعة إلى الحقيقة أكثر منها باحثة عن التعصب واللجاجة ، كما كنت قد تبينت مثل ذلك وآنسته في نفسي أنا الآخر.

. « .. ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة النساء ، ٨٣ : ﴿ **وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾! ».

. « وكيف؟ ».

. « فإنه لم يذكر لفظ الجلالة مع الرسول وأولي الأمر هنا ، وليس ذلك إلا للاختصار والوضوح والتمثيل للمرجع بذكر الرسول وأولي الأمر .. إلا أن ».

. « إلا أن ..! إلا أن ماذا؟ ».

. « إلا أن يقال : إن هذه الأمور العادية ليست مما يرجع فيها إلى الله لمعرفتها ، وهذه هي النكتة في عدم ذكر لفظ الجلالة في هذه الآية ».

. « وهل للروايات أن تعين أولي الأمر؟ ».

ـ « قد جاءت الروايات الكثيرة التي تؤيد ما قالت به الإمامية من تفسير للآية ، وذلك عن طريق الفريقين : السنة والشيعة ».

. « هات ما عندك من طريق السنة؟ ».

. « فمن طريق السنة ، ما عن تفسير مجاهد أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين حين خلفه رسول الله ﷺ بالمدينة فقال : يا رسول الله ، أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال : ﴿ **اخلفني في قومي وأصلح** ﴾. ﴿ **وأولي الأمر منكم** ﴾ ، قال : علي بن أبي طالب ، ولاه الله أمر الأمة بعد محمد ﷺ . وحين خلفه رسول الله ﷺ فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه ».

. « أين ذكر مثل هذا؟ ».

. « ذكر في غاية المرام : ص ٢٦٣ ، ب ٥٨ ، ح ١ ».

. « ناولني المزيد؟ ».

. « عن الحمويني . وهو من أعيان علماء العامة . في حديث : قال (يعني علي بن أبي طالب) : أنشدكم الله ، أتعلمون حيث نزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ ، وحيث نزلت : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ ، وحيث نزلت : ﴿ **لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً** ﴾؟ قال الناس : يا رسول الله أخاصة في بعض المؤمنين أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلمهم ولاة أمرهم وأن يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجهم ، ونصبني للناس بغدير خم ».

. «؟!».

. « إلى أن قال : ثم خطب فقال : « أيها الناس ، أتعلمون أن الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا : بلى يا رسول الله. قال : قم يا علي ، فقمت ، فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقام سلمان فقال : يا رسول الله ، ولاء ماذا؟ فقال : ولاء كولائي ، من كنت أولى به من نفسه فعلي أولي به من نفسه. فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾. فكبر رسول الله ﷺ وقال : الله أكبر ، تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي. فقام أبو بكر وعمر فقالا : يا رسول الله ، هذه الآيات خاصة في علي؟ قال : بلى ، فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة : قالا : يا رسول

الله ، بينهم لنا. قال : علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن من بعدي ، ثم ابني الحسن ، ثم ابني الحسين ، ثم تسعة من ولد ابني الحسين واحداً بعد واحد ، القرآن معهم وهم مع القرآن ، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا علي الحوض ، فقالوا : اللهم نعم ، قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت ».

. « أين ورد هذا كله؟ ».

. « ورد في غاية المرام : ص ٢٦٤ ، ب ٥٨ ، ح ٤ ».

. «لطفاً تابع الحديث؟ ».

. « .. فلو سكت رسول الله ، فلم يبين من أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان . الحديث ».

. «؟!».

. « وهو كما قلت لك في غاية المرام ، وهذا في ص ٢٦٥ ، ح٣ ».

. « زدني؟! ».

. « ومنها : عن جابر بن يزيد الجعفي قال : سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ : فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال : « هم خلفائي يا جابر ، وأ ئمة المسلمين من بعدي ، أولهم علي ابن أبي طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر ، ستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرأه مني السلام ، ثم ».

. « يعرفهم بالأسماء؟ ».

. « أجل ».

. « عجيب! أكمل؟ ».

ـ « .. ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ثم سميي وكنيي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي. ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان ».

ـ « وبعد ماذا يقول الخبر؟ ».

ـ « يقول : قال جابر : فقلت له : يا رسول الله ، فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال : « أي والذي بعثني بالنبوة ، إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولائه في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلاها سحاب. يا جابر ، هذا من مكنون سر الله ومخزون علمه ، فاكتمه إلا عن أهله ».

ـ « وأين ورد كل ذلك .. لقد جعلتني أذهل حقاً؟! ».

ـ « كذلك في غاية المرام : ص ٢٦٧ ، ح ١٠ ».

ـ « وإذن ».

ـ «وقد روي هذا المضمون عن الفريقين متواتراً ».

ـ « وآية الولاية ، لقد سمعت البعض يتحدث عنها ، فما هي؟ ».

ـ « إنما يقول الله تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ ».

ـ « أين تقع؟ ».

ـ « في المائدة : ٥٥ ـ ٥٦ ».

ـ « ما معنى الولاية؟ ».

ـ « الأصل في معنى (الولاية) على ما يظهر من تتبع موارد الاستعمال كلمات اللغويين هو القرب والدنو ، ويلازمه الاتصال والتأثير ، قد يقارنه التصرف والتدبير ، والمحبة والنصرة إلى غير ذلك ».

. « أين الاستدلالات؟ ».

. «قال في أساس البلاغة : وليه ولياً : دنا منه ، وأوليته : أدنيته ، وفي القاموس الولي : القرب والدنو ، والولي : اسم منه ، والمحب ، والصديق والنصير. قال الراغب : الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً ».

. « ليس بينهما ما ليس منهما ».

. « أجل ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ».

. «؟!».

ـ « والذي يساعد عليه الاعتبار أن مادة الكلمة وضعت أول مرة للقرب الحسي الخاص ، ثم توسع فيها فاستعملت في ما يشابهه من المعاني المعقولة ».

. « وكيف؟ ».

ـ « فإن الألفاظ إنما وضعت تدريجاً لمسيس الحاجة إلى التفاهم حول ما يعرف الإنسان ».

. « معرفة الإنسان؟ ».

. « ولا ريب أن معرفة الإنسان بالأمور المحسوسة إنما حصلت قبل معرفته بالمعقولات. والقرب في غير المحسوسات قد يكون حقيقاً كقرب العلة من المعلول ، وقد كون اعتبارياً اعتبر لترتيب آثاره على ما هو الشأن في المفاهيم الاعتبارية ».

. « إنما يمكن أن يلاحظ القرب ».

. « .. فالقرب قد يلاحظ بين فردين مشتركين في أسرة واحدة فيفيد معنى ذي الرحم أو الوارث ، وقد يلاحظ بين شخصين أجنبيين بلا ملاحظة مزية لاحدهما على الآخر فيفيد معنى المعين والناصر ويستتبع المحبة والمودة ».

ـ «وقد يلاحظ فيه المزية لأحدهما المعين فيفيد معنى ولي الأمر والمتصرف بالتدبير كولي الطفل والسيد ».

ـ « بالتأكيد ، وقد يلاحظ بين مجتمعين وهو الذي يعبر عنه بالعلاقة الودية ، والمصحح لاعتباره إنما هو التعاون والتناصر ، وقد يلاحظ بين شخص ومجتمع وهو لا يفيد إلا معنى تدبير الأمر والسلطان ، وإن استلزم الود والعون ».

. « خلاصة الأمر فالقرب يستعمل في المكان والزمان ».

ـ « وعليه ، فكما أن نفس القرب يستعمل في المكان والزمان وفي الوجود الحقيقي والمنزلة الاعتبارية بلا تكثر في معناه ، فكذلك الولاية لها معنى وحداني سار في جميع مشتقاتها ، ولها مصاديق حقيقية واعتبارية ».

. « ومحسوسة ومعقولة؟ ».

. « أجل! ».

. «وهل يوجب اختلاف المصاديق في الخصوصيات تكثراً ما في معناها؟ ».

ـ « إن اختلاف المصادق في الخصوصيات لا يوجب تكثراً في معناها بحيث تصير مشتركة بينها بالاشتراك اللفظي. وكما أن خصوصيات مصاديق القرب إنما تعرف بالمناسبات والقرائن فكذلك خصوصيات مصاديق الولاية ».

. « مثل الركوع؟ ».

ـ « فالركوع هو الانحناء وانخفاض الرأس ، ويستعمل للتواضع والتخضع ، وبمعنى انخفاض الحال وانحطاطها. قال في القاموس : ركع الشيخ : انحنى كبراً ، أو كبا على وجهه ، وافتقر بعد غني ، وانحطت حاله. وكل شيء يخفض رأسه فهو راكع. وفي المفردات الركوع : الانحناء ».

. « وإذن فهو تارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي ، تارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها ».

. « فالظاهر أنه وضع في بدء الأمر للانحناء الحسي ، ثم استعمل في التواضع والتذليل بعناية ، وفي الاعسار والافتقار بعناية أخرى ».

. « وهل استعملت الولاية بصيغها المختلفة في القرآن؟ ».

. « أجل استعملت في القرآن الكريم ، وذلك في موارد كثيرة : فاستعمل (الولى) و (الوالى) و (المولى) في الله تعالى : وسمى الملائكة (أولياء) المؤمنين ».

. « والشياطين؟ ».

. « وسمي الطاغوت والشياطين كذلك (أولياء) الكافرين ، وذكر أن المؤمنين بعضهم (أولياء) بعض ».

. « والظالمين؟ ».

. « وكذلك الظالمون ».

. « والكافرين؟ ».

. « كذلك ، كان قد نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين (أولياء) ».

. « وهل تنتفي الولاية عن المؤمنين في بعض المواطن؟ ».

. « لقد نفيت (ولاية) المؤمنين عن الذين لم يهاجروا من المؤمنين مع الأمر

بنصرهم عند الاستنصار. واستعمل (الولي) أيضاً في الوارث فهو ولي الدم والصديق ».

. « هل لك أن تأتيني بنماذج من الآيات؟ ».

. « إليك نماذج منها : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا** ﴾ البقرة : ٢٥٧. ﴿ **والله ولي المتقين** ﴾ الجاثية : ١٩. ﴿ **وما لهم من دونه من وال** ﴾ الرعد : ١١. ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾ العنكبوت : ٢٢. ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾ الكهف : ١٧. ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ محمد : ١١ ».

. « إنها كثيرة؟ ».

. «كثيرة جداً .. : ﴿ **هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقباً** ﴾ الكهف : ٤٤. ﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي** ﴾ الشورى : ٩. ﴿ **الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ الزمر : ٣. ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً** ﴾ العنكبوت : ٤١ ».

. « همم! ».

. « ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ الأعراف : ٣. وقال سبحانه حكاية عن الملائكة : ﴿ **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ فصلت : ٣١. وقال عز وجل في الشياطين : ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ الأعراف : ٢٧. وقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت** ﴾ البقرة : ٢٥٧. ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ النساء : ٧٦. ﴿ **يا أبت إني أخاف أن يمسك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً** ﴾ مريم : ٤٥ ».

. «؟!».

ـ « وقال تبارك وتعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾. التوبة : ٧١.

﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ والله بما تعملون بصيرٌ ﴾ الأنفال : ٧٢ ، ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ الأنفال : ٧٣ ».

. « إنها لعديدة حقاً؟ ».

ـ « ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ الجاثية : ١٩. وقال عز اسمه : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ آل عمران : ٢٨. ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ النساء : ١٣٩. ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرةٌ فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ المائدة : ٥١ . ٥٢ ».

. « أووه! ».

. « ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾ المائدة : ٥٧. ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ الممتحنة : ١. ﴿ يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ التوبه : ٢٣. وقال تعالى ذكره : ﴿ فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ مريم : ٥ . ٦. ﴿ ومن قتل مظوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ الإسراء : ٣٣. ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولي حميم ﴾ فصلت : ٣٤ ».

. « وهل يمكن الادعاء بأن ثمة انحصار في الولاية؟ ».

. « قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ﴾ ».

. « سألتك؟! ».

. « وأنا أجيبك .. هذا الخطاب الإلهي يتوجه إلى الأمة الإسلامية ليحدد لها أولياءها بالخصوص. وإن الواضح جداً هنا أن المولى غير المولى عليه ».

. « وعليه؟! ».

ـ « فالذين آمنوا ـ في تعبير الآية ـ هم غير المخاطبين المولى عليهم. سياق هذه الآية ليس كسياق آية : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾. وهو أمر لا يخفى على العارف بأساليب الكلام ».

ـ « وعليه فـ ﴿الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ هم أفراد معينون لهم شأن وامتياز عن الآخرين. وذلك إما لأن هذه الصفات المذكورة تتجلى بكل واقعها فيهم ، أو لأ نهم سبقوا غيرهم إليها ».

. « وإذن فهذه الرابطة المعبر عنها بالولاية هي لتختلف ».

ـ «بالتأكيد ، فإن من الواضح جداً أن حقيقة هذه العلاقة المعبر عنها بالولاية بين الله ورسوله وهؤلاء الذين آمنوا وبين أفراد الأمة الإسلامية ليست كالرابطة المتقابلة بين فردين أو جماعتين من الأمة ».

. « كيف؟ ».

ـ « .. أي رابطة الحب والتعاون والتناصر ، وإنما هي علاقة خاصة يكون أحد الطرفين فيها مؤثراً في الآخر دون العكس ، وليست هي إلا الأولوية في التصرف ».

. « وإن اختلفت؟ ».

. «وإن اختلفت بالنسبة إلى الله تعالى وإلى غيره أصالة وتبعاً ، وشدة وضعفاً ».

. « ».

ـ «فولاية الله تعالى هي الأصيلة في حين إن ولاية الرسول ومن يتلوه هي ولاية مستمدة من ولاية الله تعالى ».

. « فمن هم المراد بهم الذين آمنوا؟ ».

ـ « إذا لاحظنا هذا الذي قلناه وأدركنا الربط بين الحكم الوارد في هذه الآية ومدى تناسبه مع موضوعه ، وركزنا على جعل ولاية الذين آمنوا ـ هؤلاء ـ في سياق ولاية الله تعالى ورسوله ، عرفنا بدقة أن المراد هم أولو الأمر ».

. « أولو الأمر؟ ».

ـ « أجل أولو الأمر ، الذين افترض الله تعالى طاعتهم على المؤمنين وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ».

. « وما يمكن أن يشتمل عليه مدى هذه الولاية؟ ».

ـ « لقد جاءت الولاية المعطاة لهؤلاء مطلقة في الآية بلا أي تقييد بجانب معين من الجوانب ، ولذا فيلتزم بهذا الاطلاق إلا ما خرج بالدليل القطعي ، هو الاستقلال بالولاية التكوينية والتشريعية. فولايتهم على أي حال تبعية متفرعة

على ولاية الله تعالى الأصلية المستقلة ».

. « من هم هؤلاء الذين آمنوا؟ ».

. « ومن الواضح أن هذا اللفظ لم يعين بالتحديد من هم هؤلاء . بأشخاصهم . ولذا وجب الرجوع إلى النبي الأكرم ﷺ وهو المرجع الوحيد في معرفة مجملات الكتاب وتفاصيل الأحكام ».

. « قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾. (النحل : ٤٤) قد بين ذلك بأحسن بيان وبلغ رسالة ربه بأحسن بلاغ. وقد روى الفريقان بياناته بما لا يبقى معه مجال ريب لمن ألقى السمع وهو شهيد ».

. « وكتب الحديث والتفسير ، ماذا يمكن أن يكون دورها في هذا المضمار؟ أو كيف لها أن تسهم في الكشف عن مثل هذه الحقائق؟ ».

. «إن كتب العلماء في الحديث والتفسير والتاريخ ، لتشكل حجة لكل من يطلب الحق ، وتضاد كل معاند. فإنها تنتج العلم القطعي بمراد الآية وأ نها نزلت في شأن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين تصدق بخاتمة الشريف وهو راكع يصلي في المسجد ».

. « وهل سجل الشعراء مثل هذه الحادثة ، باعتبارهم صحفيوا الأزمنة القديمة ».

. « لقد مدح (حسان بن ثابت) علي بن أبي طالب ، وذلك لأجل هذه المكرمة في أبيات شعرية ».

. « من نقلها عنه من المؤرخين والقدامى؟ ».

. « نقلها عنه الخوارزمي ، وشيخ الإسلام الحمويني ، وصدر الحفاظ الكنجي ، وسبط ابن الجوزي ، وجمال الدين الزرندي . على ما حكاه العلامة

الأميني في الغدير (ج ٢ ص ٥٩) . وقد ذكرها الالوسي في تفسيره فى ذيل الآية الشريفة ».

. « وغيرهم؟ ».

. « كذلك : فمنهم أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره ، والطبري في تفسيره (ج٦ ، ص ١٦٥) والرازي في تفسيره (ج٣ ، ص ٤٣١) والخازن في تفسيره (ج١ ، ص ٤٩٦) عن عدة من الصحابة والتابعين. ومنهم من صرح بصحتها. وقد أنهى أسماء الناقلين في (موسوعة الغدير) إلى ستة وستين رجلاً (ج ٣ ، ص ١٥٦ . ١٦٢) وأما روايات الشيعة في ذلك فهي ربما تبلغ حد التواتر ».

. « وإذن ففي كل ذلك يمكن أن يكمن العجب كل العجب؟ ».

ـ « وإن تعجب فعجب قول من قال : إن قصة الخاتم ونزول الآية فيها موضوعة مختلقة بإجماع العلماء (!) فهؤلاء الأكابر إما أنهم لا يعدون عنده من العلماء ، أو أنه لم يقف على كلماتهم ولم يطلع على كتبهم وموساعتهم!! لكن قتل الله العصيبة فإنها تعمي وتصم : ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين** ﴾ ».

. « ماذا تعني؟ ».

الفصل السادس عشر

فعلية وصف أولي الأمر

. « استمع .. فإليك بعض ما ورد في الباب ».

. « عن السنة؟ ».

. « فعن السنة روايات كثيرة! ».

. « هاتها! هات ما عندك؟ ».

ـ « منها : ما أخرجه الثعلبي في تفسيره باسناده عن أبي ذر الغفارى قال : أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال : اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي عليه السلام في الصلاة راكعاً ، فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم ، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد. فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء وقال : « اللهم إن أخي موسى سألك فقال : ﴿ **رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدةً من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري** ﴾. فأنزلت عليه قرآناً : ﴿ **سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما** ﴾. اللهم وإني محمد نبيك وصفيك. اللهم واشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري ».

. «؟!».

ـ « .. قال أبوذر رضي الله عنه فما استتم دعاءه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عز وجل قال : يا محمد اقرأ : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ ».

. « أين وردت هذه الرواية؟ ».

ـ « راجع غاية المرام ص ١٠٢ ب١٨ ح١ ، الغدير : ج٢ ، ص ٥ ، عمدة ابن البطريق : الفصل ١٥ ص ٥٩ ».

. « ».

ـ « كذلك : ما روي عن موفق بن أحمد في جواب مكاتبة معاوية إلى عمرو ابن العاص : لقد علمت يا معاوية ما أنزل في كتابه في علي من الآيات المتلوات في فضائله التي لا يشركه فيها أحد، كقوله تعالى : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ ، ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ ، ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله** ﴾ .. قد قال الله تعالى : ﴿**رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ ، وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ **قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ ».

. « أين ذكر مثل هذا؟ ».

. « ذكره صاحب غاية المرام في كتابه : ص ١٠٥ ، ح١٠ ».

. « وهل رواها غيره؟ ».

. « لقد روى المغازلي في هذا المعنى أربع روايات فراجع مناقبه (ص ١١١ ـ ١١٢ ح ٣٥٤ إلى ٣٥٧) وغاية المرام (ص ١٠٤) ».

. « وهل ثمة شبهات يمكن لها أن تحوم حول هذا التفسير؟ ».

. « أجل ، فهناك شبهات أذكرها ، ثم أعقبها بما يناسب المقام من الرد ».

. « هاتها؟ ».

. « فالشبهة الأولى : هي منافاة السياق لهذا التفسير ، فإن هذه الآية وردت في سياق نهي المؤمنين عن ولاية اليهود والنصارى والمسارعة إليهم خشية أن تصيبهم دائرة ، وهذه الولاية هي ولاية النصرة والمعونة ».

. « ووحدة السياق؟ ».

ـ « لذا ، فإن وحدة السياق تقتضي أن يكون المراد بولاية الله تعالى ورسوله والذين آمنوا هو ولاية النصرة والمعونه أيضاً ».

. « والجواب؟ ».

ـ « الجواب عليها يشتمل على :أولاً : فإن وحدة سياق هذه الآية مع التي تسبقها غير محرزة ، ذلك أن ظاهر جل الروايات هو نزول هذه الآية بمفردها لا في سياق ما قبلها ، فلا يمكن التعويل على السياق. على أن الأدب القرآني لا يناسب عد الرسول ﷺ ناصراً للمؤمنين ، فإنه ﷺ هو الأصل في كل كرامة ، وكذا من هو في حكم الرسول ».

. «وثانياً؟ ».

. «أما ثانياً : فإننا إذا تصورنا الولاية طبق ما سبق لم نخرق السياق على فرض وجوده ، لأن مخالفة السياق إنما تأتي إذا افترضنا تعدد معنى الولاية وكونها تأتي بمعنى النصرة تارة ، وبمعنى تدبير الأمر أخرى بحيث يكونللفظ مشتركاً لفظياً بين المعنيين ،وقد علمنا سابقاً أن الأمر ليس كذلك ».

. « وعليه؟ ».

. « وعليه ، فإن الآيات السابقة لهذه الآية تنهى عن الركون إلى أهل الكتاب

والتقرب إليهم رجاء عونهم وابتغاء العزة من قبلهم وخشية صولتهم ، وتعلن أن تولي هؤلاء لا يغني من الله شيئاً ، فعسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما فعلوا نادمين ».

. « ... ».

. «فالعزة لله جميعاً ، وها هو قد جعلها لرسوله وللمؤمنين ، وضمن لهم النصر والغلبة ، وأكد على أن جند الله لهم المنصورون ، وأن حزب الله لهم الغالبون ، وأن أعداءهم هم المهزومون ، لأ نهم يتولون الشيطان ويسلمونه أزمتهم ، وأن من يتولى أهل الكتاب فإنه منهم ».

. « ».

ـ « .وكيف يمكن تولي قوم اتخذوا الدين هزؤاً ولعباً وقد غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير؟ وكيف يمكن للمؤمنين أن يتولوهم ويقيموا أواصر المودة و يستنصروهم وهم الأعداء الألداء؟ ».

. « فالولي المطلق هو الله تعالى؟ ».

ـ « فإذا لم يكن للإنسان بد من اتخاذ ولي ينظر في أمره ويصلح شأنه وينصره على أعدائه ، أو فقل : يسد حاجاته إلى القيادة في مختلف الأمور ، فليكن الله تعالى هو الولي : وما لهم من دونه من ولي و لا نصير ، ذلك أن الله هو المطلق الكامل القادر على تحقيق كل ذلك ومنح الأمة النصرة ، ومن هنا كان الدخول في حزب الله واعتناق ولايته هو الطريق الوحيد للعزة والكمال ».

. « وبعدئذ لتصير حالات اشتقاق من ولايته المطلقة! اليس كذلك؟ ».

ـ « فمن ظلال ولاية الله تعالى ولاية الرسول ﷺ خلفائه ، لأ نهم المعينون للقيام بأمر الناس بإذن الله ، وهم الذين يهدون بالحق ويحكمون بالقسط ، وبهم

يجمع شمل الأمة ، وتتحد كلمتها ، وتقوى أواصرها وباتباعهم تسير الأمة سيراً سجحاً نحو الغاية والعزة بالدخول في حزب الله ﴿**ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾ ».

. « والحاصل؟ ».

. « لهذا ، فحتى لو قبلنا وجود سياق من هذا القبيل فإنه لا يعني ولا يلزم بأن يكون القرب الواجب تحصيله من الذين آمنوا هو نفس القرب المنهي عنه من أهل الكتاب ، بحيث لا يتصور أي اختلاف بحسب المراتب والمزايا ».

ـ « فيكفي إذن ـ للاحتفاظ بوحدة السياق ـ أن يكون المعنيان مشتركين في أصل القرب والاتصال الذي يستتبع نوعاً من التصرف والتدخل في الأمور ».

. « بالتأكيد ، وهذا المعنى المشترك متوفر في ولاية الكفار بنحو بسيط ، في ولاية الله تعالى بنحو حاد شديد : ﴿ **هنالك الولاية لله الحق** ﴾ ».

. « وخلاصة الأمر؟ ».

. « خلاصة الأمر ، هي أن الله تعالى نهى المؤمنين عن التقرب إلى الكفار التودد إليهم وأمرهم بالتقرب إليه تعالى وإلى رسوله ومن هو بمنزلته. وليس التقرب إلى الكفار إلا بعقد المعاهدات الودية وتوثيق العلاقات المتبادلة ».

. « أما التقرب إلى الله تعالى فكيف يكون؟ ».

. « إنه لا يكون إلا بالتسليم المطلق لقضائه التكويني وأوامره التشريعية والعمل بها ، والاتكال عليه وطلب العزة منه، كما أن التقرب إلى الرسول يتم بقبول رسالته واطاعته في ما بلغه عن الله وما أمر بإذن الله ، هكذا يكون التقرب إلى ولاة الأمر بطاعتهم والانضواء تحت لوائهم ، عدم الاستقلال في الأمور

دونهم ».

. « وكل هذه الأمور تطبيقات للولاية؟ ».

. « نعم! ».

. « واختلاف الأحكام في هذا التطبيق عنه في غيره؟ ».

. « هو ناتج من اختلاف من تكون له الولاية ».

. « ومن يمكنه أن يعين هذه الخصوصيات؟ ».

ـ « إن الذي يعين هذه الخصوصيات هو الفهم العرفي لما تقتضيه المناسبات والقرائن ».

. « وما هي الشبهة الثانية؟ ».

ـ « أما الثانية فهي : أن التعبير عن الواحد بلفظ الجمع خلاف الظاهر ، وهو أمر يستلزمه هذا التفسير المذكور ».

. « وجوابها؟ ».

. «جوابها : أنه يجب أن نميز بين استعمال لفظ الجمع في المفرد وبين انطباق العنوان الجمعي على الواحد الذي تحقق من أفراد العنوان الجمعي مع إمكان انطباق هذا العنوان على أفراد آخرين يفرض تحققهم ».

. « كيف؟ ».

ـ « فلقد ورد في الآية السابقة لهذه الآية قوله تعالى : ﴿ **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرةٌ** ﴾ .. مع أن القائل ـ على ما رواه القوم ـ هو عبد الله بن أبي ، ولم يقع هذا التفسير موقع الإشكال من قبل أحد. كما أنهم رووا في قوله تعالى : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** ﴾. إن القائل هو عبدالله بن أبيأيضاً ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **تلقون إليهم بالمودة** ﴾. إن

المراد هو حاطب بن أبي بلتعة وقد ذكر في (الغدير)عشرين مورداً من هذا القبيل ، فيمكنك مراجعة (ج ٣ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٧) ».

. « وبماذا يمكن أن يتميز هؤلاء الذين رووا تلك الروايات؟ ».

. « إن ما يمكن أن يلاحظ وبوضوح ، هو أن الذين رووا تلك الروايات التي مرت كان جلهم من العرب العرباء الذين لم تختلط لغتهم بعد ، وأ نهم نقلوا تلك الروايات بدون أي ارتياب في انطباق عنوان (الذين آمنوا) هنا على الإمام علي عليه السلام .. مما يجعلنا نعرض عن تشكيكات البعض ممن اختلطت لغتهم العربية أو من حذا حذوهم من غير العرب ».

. « وما هو السر في الاتيان بلفظ الجمع في هذه الموارد دون تعيين الشخص؟ ».

ـ « هه ، فلعل السر في الاتيان بمثل هذا اللفظ الجمع ، وفى كل هذه الموارد دون تعيين الشخص ، هو التنبيه على عدم انحصار الملاك في القائل الخاص أو الفرد المتحقق بالفعل ، وإمكان تحقق أفراد آخرين معه أو بعده ».

. « والوضع العام هل يحكم بمثل ذلك؟ ».

. « على أن من يدرس الوضع العام والجو الذي نزلت فيه الآية يمكنه أن يلاحظ أن تخصيص الذكر بالإمام عليه السلام يتضمن ـ في ما يتضمن ـ تهييجاً للاضغان الكامنة وإثارة للحمية الجاهلية وللتقولات الباطلة ، بخلاف ما لو ذكر بعنوان جمعي يرجى معه تحقق أفراد كثيرين له ».

. « والشبهة الثالثة؟ ».

. « كيف اعتقدت أن ثمة شبهة ثالثة؟ ».

. « ... ».

ـ « أجل ، فأما الثالثة ، فإن ما يظهر من الآية عند اطلاقها وصف : أولي الأمر ، هو فعلية هذا الوصف ،مع أن علياً عليه السلام لم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولي الأمر فعلاً ».

. « والإجابة عليها؟ ».

ـ « أما الإجابة على هذه الشبهة ، فهي تكمن في ملاحظة إثبات الآية الشريفة للولاية بلفظ المفرد (وليكم) لله تعالى ولرسوله ولمن يليه ، وذلك يعني أن هناك ولاية أصيلة واحدة هي لله تعالى ، أما ولاية الرسول وأولي الأمر من الأمة فهي من توابع تلك الولاية الإلهية ، ومع هذا فتكفي أن تكون الولاية الأصيلة فعلية ».

. « وكيف لنا أن نستظهر الفعلية؟ ».

ـ « إننا ، وإنما نستظهر الفعلية فيما إذا كان الحكم قد جيء به على نحو القضية الخارجية ،أي يراد اثباته لموضوع خارجي متحقق بعينه فعلاً . أما لو كان الحكم قد جيء به بنحو القضية الحقيقية التي لا ينظر فيها إلى تحقق الموضوع خارجاً وإنما يفترض وجوده ، فلا تستظهر الفعلية من ذلك الحكم في هذه الآية على نحو القضية الحقيقية لا الخارجية ».

. « وهل من رابعة؟ ».

ـ « أجل فالشبهة الرابعة هي تلخص في أن اطلاق لفظ (الزكاة) على الصدقة المندوبة هو خلاف الظاهر ».

. « ».

ـ « وهذه الشبهة هي أهون الشبه فإن الزكاة المصطلحة في عرف المتشرعين إنما هي اصطلاح مستحدث ، في حين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام

جرياً على ما يقتضيه عرف المحاورة ».

ـ « ولكن وحسبما يحتفظ به ذهني ،فإن الزكاة قد استعملت كثيراً ومن قبل أن تشرع! أليس كذلك؟ ».

قال :

. « صحيح ،ولقد استعمل لفظ الزكاة كثيراً قبل أن تشرع الزكاة المصطلحة عندنا ، فقال تعالى : ﴿**وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً** ﴾ مريم : ٣١. قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾ الأنبياء : ٧٣ وغير ذلك. ولا شك في أن المراد بها هو مطلق الإنفاق لوجه الله تعالى ».

. « ».

. « والشبهة الخامسة؟ ».

. « الشبهة الخامسة! ..؟ ».

. « وهي أنه : لماذا لم يحتج الإمام علي عليه السلام بها؟ ».

. « صحيح؟ ».

. «انتبه قليلاً ثم تبين! فلقد قال الرازي بعد كلام طويل له خرج فيه عن حد الخلق والانصاف : ولو كانت هذه الآية دالة على إمامته لاحتج بها. ليس للقوم أن يقولوا إنه ترك للتقية ، فإنهم ينقلون عنه أنه تمسك يوم الشورى بخبر الغدير والمباهلة وجميع فضائله ومناقبه ، ولم يتمسك البتة بهذه الآية ».

. « والجواب؟ ».

. « وجواب هذه الشبهة أن علياً كان قد احتج بهذه الآية مراراً ، فقد روى أصحابنا . رضي الله عنهم . في حديث مناشدته لأبي بكر أنه قال : فأنشدك بالله ألي الولاية من الله مع رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال : بل لك ، وفي

حديث مناشدته يوم الشورى : فهل فيكم أحد آتى الزكاة وهو راكع فنزلت فيه : ﴿ **إنما وليكم الله** ﴾ .. غيري؟ قالوا : لا ».

. « أين ذكرت مثل هذا الأخبار؟ ».

. « لقد ذكرت في غاية المرام : ص ١٠٨ ».

. « عمن وردت؟ ».

. « عن ابن بابويه بإسناده عن أبي سعيد الوراق ».

عندها قلت له :

. « عبد الرزاق؟ والفقه ماذا تقول عنه؟ ».

قال :

. « سأعرض لك الفقه ،وأحاججك منطقياً ، والتمس عندك ومن بعد ذلك معرض الحل والنتيجة ، وأخبرني بعدها : ما الذي ستعثر عليه خلال حديثي؟ أو أية نتيجة يمكن لك أن تستلها وتستخلصها منه؟! ».

. « لم أفهم ما الذي تريد عرضه علي؟! ».

ـ «سأعرض عليك شيئاً مما يمكن أن ينم على وضوح ما في بعض الأخبار من خصوصيات التفسير التي تنعكس نتائجها بالتالي على سياقات الفقه الحية ».

. « من أي المصادر .. السنية أم الشيعية؟ ».

. « سأخاطب فيك الحس الداخلي وأعالج فيك لمسات القلب الصادقة ».

. « وإذن ، فالأخبار تتعدى حدود المذهبية ، وتتجاوز حدود الطائفية ».

. «فمثلاً .. عن عبيد بن زرارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله** ﴾ قال : العمل الذي أقربه ، من ذلك أن يترك الصلاة من غير سقم ولا شغل ».

. « وهل كان ثمة محاكاة لمعان متعددة أو إشارات لدلالات أخرى من خلال توظيف ألفاظ لا تقصدها بالذات؟ ».

. « لقد سمى الله تعالى الصلاة إيماناً في قوله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ البقرة : ١٤٣ ولعله عليه السلام خصها بالذكر لذلك ».

. « وأين ولاية علي بن أبي طالب في هذا المضمار؟ ».

. « من آمن ثم أطاع أهل الشرك. وعن أبي حمزة قال : سألت أبا جعفر عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ قال : تفسيرها في بطن القرآن : ومن يكفر بولاية علي وعلي هو الإيمان ».

. « وتفسيرها؟ ».

ـ « أما تفسيرها فهو من البطن المقابل للظهر بالمعنى الذي ينطبق فيه الكلام على المحكم والمتشابه ، ويمكن أن يكون من الجري والتطبيق على المصداق ، وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام إيماناً حينما برز إلى عمر وبن عبدود يوم الخندق حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم : « برز الإيمان كله إلى الكفر كله ». وفي هذا المعنى بعض روايات أخر ».

الفصل السابع عشر

الحنين ما بين فراق الأحبة وغربة الإمامة

كانت رسائل الأهل تصلني بين الحين والآخر ، بينما عز علي أن لا يكون بمستطاعي أن أبوح لهم بما نبغ في صدري ، وعلق في دخائلي ، لأ ني ما كنت أهوى أن أثقل عليهم ، واجعلهم يقاسون أشد مما يقاسونه من فراقي عنهم ، وبعدي ، وأنا الذي لم يعد بمستطاعه نسيانهم .. فما كان بميسورى أن أسلاهم حتى وجدت في هذا الموضوع ما يسليني ويسري عن همومي وأتراحي التي كان لها ان تلتمع بين الحين والآخر حتى أن لها أن تخبو دون أن يخمد عنوانها .. وذلك لأ ني وجدت أنه من غير العسير على المرء ان يحمل جل وقته على الإنفاق فيها ، لو أراد أن يدفع عنهم تباريح أيامه الحزينة ، وصروف دهره الكئيبة حتى قيض لي الله فحوى الأمر بعدوى الاهتمام بمثل هذه الأبحاث ، وجعلت أصوغ مفردات العقل ، وأفند الآن الفكر كيما استاق وحي شآبيب الطلعات ، وأرخي بها صوب سماويات الذهن حتى تئن وتضطرب عند اختلاج غمامها الأجدب ، وقزعاتها المتخاتلة ، وهي تصوب بأفانين رقصاتها إلى أفنان تلك الأعناق الفضية التي غذت عمرها من ريع الأيام الآتية حينما جلت عنها غبرة الليالي الحالكات ، وهي تتحسس أريج إزهار ذلك الأفق الفضية وترقب ألوانه المتماوجة ما بين أنواء المجد الملكوتي .. وكيف لها أن تتفتق عنها صبابة حالمة ، كأنها ضروب من فحوى النسك ومعنى

التبتل! وذلك حينما تصير كل الأطوار المتقلبة صوب تلك الأعمدة المتراكمة عند خطوط النهايات التي ليس لها أن تنحد ..وعندما تزداد طهراً ونقاء يبسم كلما عامت إشراقاته وتمارت صفوف بهائه وهي تزهو جذلانة مختالة .. غير أني ما كنت لأنسى كيف أني كنت أول الطريق الحق على كل من استبصر من إخواني ، ولقد كنت أرى بعضهم تلفحهم ريح غريبة حتى إذا ما تسامر عندها وجدته قد ترك مذهبه واعتنق المذهب الشيعي ، كأنما سحره ساحر ، وأخذه آخذ ، هل أقول إنه قد صبأ؟! وأنا الذي لم أكن أرى أنه يتمتع بأيما قدر كاف من الذكاء والخبرة ، بل بأيما لون من ألوان الموهبة الناضحة بالأبهة والعقلانية .. ولكن! كيف لهذا أن يحدث مع قاسم وطلال وكلاهما قد تسمرا عقارب المعالم المعرفتية ، وتربعا على عرش أفانين العلوم وغذيا ألحان الفنون الذوقية حتى غمرا نشيج الطبيعة بما يسكر المخاخ قبل الرؤوس بكل ما يحلو ويطيب .. فكيف لمثلهما أن يستبصرا إذن؟ ففي الأمر ما يستدعي الانتباه ، ويستوجب إيفاء الاهتمام ورشق ذبذبات هذه الصبوة كيما تتسع رحى جمجمتي بما يستلزم معه ضيق كل وهدة نقد أو أويقة ضالالة ربما تثني من هو في مثل حالي عن مثل هذا العزم حتى وجدت أنهن غير اللائق أن أكون رشيداً في معلوماتي ، قادراً في شهادتي الدراسية ، لا أقدر مع كل هذا وفي الوقت نفسه على مبارحة يأسي والعبور من على قناة هذا الإبهام وهذه التساؤلات الغامضة. فكيف يجوز لنا نحن أهل السنة أن ننتقل من مذهب إلى آخر ، وكيف نسول لأنفسنا حرية الحركة ما بين الحنفي والمالكي وصولاً إلى الشافعي وانتقالاً إلى الحنبلي .. فلم يحرم أحد مثل هذه التنقلات والتحركات ، بل لم أسمع حتى من هؤلاء الجحاجيح الذين تسترسل خطاهم بين أنظاري

القلقة .. ما يمكن له أن يترجم مثل هذا ، أو ينم عليه!

بل لم يكن بوسعي أن أتميز لون مذهبي .. إنما كنت أتعبد ، ولم يكن أحد ليسألني ما هو مذهبك؟ .. ولو كنت أقول شافعي أنا ، أو حنفي أنا ، أو مالكي كنت ، أو حتى حنبلي! لما كان لأيما أحد أن يرشقني بوابل من ألحاظ الشزر وألوان الامتهان ، أو أن يمطرني بصب من نظرات الويل والأسف والتي لها أن تتبعها أكوار من فوهات الحمم الناضحة بسحب البركان ومواد الانفجار ، لا تضوع إلا بلغة ملؤها الحرمان ، سادرة في غي جملة من الحماقات ، هي ليس لها أن تنتهي حتى ينتهي يوما الدهر ، ويؤوب الناس أجمع إلى لذعة الحمام بينما لو نطقت بالجعفري أو الشيعي ، لكانت أعين القوم تدور حزناً وأسى ً ، وكأ نها لتبعث على ذكر الموت ، وهل هو شيء أعز عند الله من ذكر الموت الذي يدع النفس تؤوب إلى بارئها ، وتثوب إلى خالقها ، وذلك ريثما تعود إلى رشدها ، فتستفيق وهي لما تنهل كل ما أرادت نهله ، آسفة على ما ضيعته من سني عمرها ، وطحنته في بيداء ، كانت قد خالتها غياضاً غناء ، بيد أنها ما كانت لتتكشف لها حالئذ وعند مطارف الموت ، إلا بيداء قفرة ، خلو من أهلها ، مدقعة من أيما لون حياة ، قد استلها الفقر كل ألوان الحياة حتى استحالت جدباء غبراء ، مكلومة من شدة الجراح الموغرة في جسدها ، سقيمة من قوة الآلام البغيضة.

ولكن ، كلمة إمام ، هذه الكلمة ، كيف عدت استقي من وحي مناقشاتي ، إذ أثارتني حينما عرضت بها على صاحبي في الجامعة عبد الرزاق حتى أقر معتقداً بامامة علي بن أبي طالب .. فعدت الآن أسائل نفسي :

. « فكيف لا يغدو كذلك ، ونحن قد جعلنا من رؤساء المذاهب أجمع

أئمة؟ وكيف لها ، وها هو من يؤم الناس في الصلاة يطلق عليه إمام الجماعة؟ ».

حتى جعل آخر يذكرني وهو ماجد! ماجد الذي وجدته لا يحمل تلك الشهادات الدراسية العالية ، بل استحقرت إمكانية إجراء أيما مناظرة معه ، أو مساءلة. بدرني بالقول :

. « ألا يقول القرآن : ﴿**يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ..** ﴾ فهو قد شمل كافة الناس بقوادهم حينما أطلق على الأخيرين بلفظ الإمام. كما أنه لما نجد أنه من البدهي أن لا يكون جمع الناس مؤمنين ، بل أكثرهم كافرين .. فما كان ذلك سيدعونا إلا إلى التسليم ، بأن الإمام هو لا يشمل فقط القائد المؤمن ، بل له أن يصطلح عليه بقائد الكفرة كذلك ، أي من يضلهم حتى الناس بنهجه ، ويقتفي البشر رأيه ليتقصون بعد ذلك طريقه والعمل بسلوكه ، وما قاله أو أتاهم به .. لأن الله تعالى ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم** ﴾! فهذا تصريح شامل يعتني ببيان مثل ذلك خير بيان. فلم تستكثرها على الخليفة الرابع؟! ».

سألني وأنا الذي صرت أبحث لعيني عن مرتع ومحل ، أناهض ومن خلالهما ، وعند أي منهما نظراتي ، وأنزع بهما صوبهما كيما لا تقع تلويحاته المطرقة تلك في أحداقي الملتهبة.

لقد أيقنت بعدها أن كافة علومي وما توصلت إلى حمله من معارف وتلقيته في صفوف الكلية ، وعرفته وأدركته في قاعات الجامعة ، كله ما كان بوسعه ولا بميسوره أن ينجدني من هذه الأزمة ، ولا أن يخلصني من هذه المعمعة والتي غدا لها دبدبات خارقة .. تتعاهدني بين الفينة والأخرى كأنها

لجج ليل غامر ، ليس له أن يبارحني موجه ، ولا أن تنقضي لياليه المسهدات ، سادراً في غيه ، دارجاً على غير هواي كأنه أراد ممالأتي وملاحاتي ليس إلا! مع أنه هو الذي ما كان ليمثل لي وفي السابق ، وفيما مضي ، إلا كل عنوان لكل مماحة ومناشدة لقضاء أمتع الأوقات ، وانفاقه في سماع شدو الألحان ، وعذب الأغاني الرابحة في سوقي الرائجة في بين عمائم أيامي الغادية كؤوسها مترعة ، بين موهن الليل ، وعذب الأريج الخالي من كل وشيجة تخرجه عن رقيق وصاله ، ورشيق إنسامه.

بدأت أخاف مثل هذا التراكم من أوجاع الرأس حتى مللت التفكير في غيب هذه الاطلاعات والابحاث. لقد ساورتني الشكوك في كل ما أوتيته من قوة وعزم. لقد ملأني رعب قاس ، كأنما أضطرم بين أحشائي ، ألم بي كأنه يريد افتراسي حتى ظل ينتابني مرة بعد أخرى .. بينما كنت أتعب نفسي في معاندته ، إلا أنه تمكن مني! وبت أسائل أهلي من البعد إلى البعد .. وأنا الذي ما كان لتخفى عني اهتماماتهم ، أو سحابات تعلقاتهم التي ما كان لها أن يتمسح بجبيني شيء من هذه العوالق الذهنية الخطيرة والتي لها أن تغير مجرى حياة المرء بين ليلة وضحاها.

بادرتني فكرة ما ، أو بالأحرى انتبهت إلى تاريخ البشرية وإلى ما كنت أعيشه وتعيشه ذهنيتي ، وأسمعه وأراه ، وما زلت أعتقد به ، من كل ما له أن يتعلق بمجتمع النساء وتأثيرهن على قلوب أقوى الرجال الشجعان وأعتى الأبطال الأشاوس! وكيف كان للنساء أن يلعبن وعلى مر التاريخ ، دوراً مؤثراً! وكيف كان لهن أن يدرجن على إرعاب كل من كان يهوى الحياة ، وإغراقه في عرض دوامة من سلسلة موجية هي أخطر ، تلهبه أسواط القتل وما

هو بمقتول ، تفيء إليه تياراتها الصارخة ، كلما ألم به فكر يقول له : بأن صارخة هذه الأكتاف آن لها أن تزول ، وتذهب ضرباتها إلى الجحيم .. إلا أن دواعي مجنونة كان لها أن تتنفس الصعداء ، تثير الأجواء ، تقضي عليه كل القضاء ، وذلك حينما قلن له أن الوقت ما زال في أوله ، وأن للنساء ضربات أوجع في سابقاتها ، وأنهن أولاتي الذين ليمكرن المكر الذي من شدة انغلاق آثاره ، فإنه لتزول منه الجبال الرواسي نفسها ، وتجعلهصعيداً جرزاً .

كنت أرى إلى مثل هذه الذكريات الأليمة ، وأتطلع إلى مجد النساء الذي كان له أن يصارع كل أمواج الحاضر والماضي والمستقبل. وكنت أذكر وما زلت ، أترع بمثل هذه الأوراق التي تملأها ألوان من البطولات النسوية والقهروت الأنثوي .. وهي . أعني المرأة . إذ ما زالت تدور حوالي لتتوزع خطاها أمام ناظري ، وهي التي ما برحت تعكف على إرساء أطواد غرورها في بواخر الرجال ، وذلك كلما عنت الوجوه لها ، دون الحي! وهي تلين لنظراتها وتسترشد بمفاكهاتها التي تغزل عيون الرجال من أورادها كل قرعة وقرعة ، وذلك كلما قرع الثغر الثغر ، وجعلت القرارات تنشد غير ما يطفح به العقل ، وترسمه رؤى الذهن الرشيد ، بل تصير تنحو غير السبيل التي ارتآها الرب العزيز لعباده من خلقه من الائبين إلى مجد عليائه واللائذين بكتف ستره ورأفته .. حتى كنت أرى الرجال من ذوي البأس الشديد يكادون يخضعون هم بالقول إلى ربات الحجال ، ويقمن كل ما يرين إلى ضرورة إقامته ، ولا ينسفن إلا ما ارتأين نسفه ليكون بعدها رميماً كالهشيم تذروه الرياح! فقلت في نفسي :

. « فلو كان لمثل هاتيك النسوة أن يعتملن مجدهن حين يكون له أن تركم

أشلاؤه على اقتفاء أثر أولاد الرسول كما يدعي الشيعة؟ فهل كان للرجال أن يعاندوا كل هذه المعاندات ، ويأولون أحلام الشيعة ، وكلام رجالاتهم ، ليعملوا بعد ذلك على المكيدة عليهم ، والدس ، وإثارة النعرات المذهبية ،وإذكاء نار الطائفية الشعواء وصولاً إلى رميهم بألوان التهم وقذفهم بأنواع الأباطيل. لا أقول ذلك دفاعاً عن الشيعة ، أو عن جماعتي ، إنما صرت ومن بعد شديد غيظي ومناوءتي لنفسي ، ومن بعد أن كنت أناوئ هذه العصابة والشيعة ، وأحارب أفكارها ، إلى التريث في مجمل الأمور ، ريثما تنبلج لي سماء الأفق صاحية ، مشرقة بشمسها الفضية وهي تجلجل بأصوات إشراقاتها .. وكأ نما كان للسان الأفعى نفس تلك النبرة التي يحكيها دم ضحيتها ، حينما تفرزه أنياب فكها في أوصاله لتتفرس مذاقات سمومها كل مطاعم تلك الأحشاء المتوارية خلف أوجاع ناهضة وآلام صارخة. فكأن تحمل مثل ذلك ، يناهز أن يعني لى ذات هذا الملمح حتى تصير آثاره تتجلى واضحة في كل اهتماماتي ، كأنه ليس لي أيما حل آخر ألهج بأطرافه أو أيمم وجهي قصد سمته دون سائر الأقطار ،لتكون تخومه هي وديان نضالي ورسوم جولاتي وأنا الذي ما عرفت يوماً أيما طعم للمغامرة أو التضحية ،فها أنا ذا أجد نفسي وجهاً لوجه أمام حرب لم يشهدها أحد من قبل ».

(هكذا خلت حالي) أروم مجاهداتها ، وفي ظل ذلك الأحد الآخر هو ممن كنت أصادقه في الماضي ، وهو ممن جعل يعد من ضمن أترابي وأقراني. فأيما فوز أنالني إياه علياء هذه الدنيا؟ أو أيما زخرف من سنا المجد تبعني إليه طعم الوجد الذي أثكل صبابة الشوق في وجد عيوني حتى درجت لا تنثني المقل

فيها عن ملامة سيب الاماق المنحدر عبر عذارف تلك القسمات ، وصدغ تلك المعاني الكالحة ، وهي تستبيح عرضات الليالي الذائبة أمواجها ما بين عيون المدينة ، وأضوائها المتلاشية خلف ركام من الرماد الضبابي الذي ما كان يلفه سوى عرس أخفى ثيابه هو الآخر وراء زرقة جعلت تتنفس الصعداء كلما جعل الفجر يلفح عذارى المصر بخيوطه العالقية بألوان الضياءات التي بدت ترسمها منارات الموانئ ، وهي تودع السفن الراحلة كما صرت أودع أفكاري إلى حيثما اودعها ملجأ تؤوب إليه كل حرائر الأزمان ، وبكل ما تئن تحت طائله وترزح تحت ثقله مما جعلت ترسف في أغلاله ، وترفل بين معطياته الحية القادمية .. كذلك أنا الآخر فعلت ، حاولت أن أحيي وطناً آخر في نفسي ، حاولت أن أميت كل عصبية جائرة ، فلكل الخلق نفس عظيم في انتقاء الزوجات والأزواج في انتقاء فرص العمل ، في اختيار نوع الاختصاص الدراسي ، في استراق أحسن الخلس وافتراصها ، حتى الفنان له أن يختار ما يرسم ، وما يريد أن تعكسه لوحته ، حتى المخرج السينمائي له أن يخص نفسه بطبيعة لون خاص في التفكير والعمل غيره عن الآخرين ، والمهندس في تصميم عمارته ، والطبيب في نوع جراحته ومعالجته ، والكل تراه يعمل بملء إرادته واختياره ، والكل لا يصادر إلا على حرية مثل هذه الاختيارات الدنيوية.

إذن! فلماذا نحرم أنفسنا حرية الانتقادات الأخروية ، وما كانت الدنيوية منها لتكون غير معابر باهتة تنسحب على مراقي تؤدي بالتالي إلى الثانية ليس إلا .. فما كانت الأولى إلا وسيلة للثانية ، و ما كانت الأخيرة إلا غاية للأولى.

فإنه من الغبن أن نفرط بالغاية لأجل الوسيلة ، ومن هو ذا الذي يملك لنفسه ضراً أو نفعاً . وما كان رسول الله ليملك مثلها حتى يمكنه أن ينجينا في يوم غد في فتنة ضروس يمتد أوار اشتعالها ونار احتدامها إلى برازخ القبر وظلمات اللحود الغائصة في أتون الخوف والرعب .. إني لا أرى حالي هو أقل من حالي حتى جعلت زوجه تروم به كل مداخل الجحيم ، وهو يقبل على اشراقاتها المصطنعة من أجل تحقيق كل مآربها دون أيما تفكير أو وجل من البارئ .. إن هذه الدنيا أصبحت لي كعنق فتاة بيضاء ، جعلت تندي جبينها بما صار يلفح عنقها الغض الأملس .. وهي تساجلني بوقع شفاهها ، وتخاتلني ببريق عينيها ، وصفاء مقلها الناصعة بألوان الإثارة ولسعات الفتنة اللاهبة فوق خديها المنتفخين حتى تنازلني دون أن تتوقع أيما صدود من عندي أو حتى مقاومة ، لتهذر معي ريثما تجود أعضاؤها الأخرى على قلق أيامي ..وتسلب من هو في مثل حالي كل اختياراته ، ليصحو بعدها وقد التقم نزراً يسيراً من ظل هذه الحياة الزائلة الرتيبة .. بينما فقد وبذلك كل ما صبت إليه قلوب المحبين الوالهة بحب الإله الذي لا تخالطه أيما عظمة يمكن لها أن تربو عليه فتربأ عندها نفوس العباد عن التنحي عنها ، وتشيح بنفسها بعيداً عن خلالها التي لا تزول قط .. لأ نه ليس للمرأة أن ترافق الرجل في رحلته إلى العالم الآخر ..إلا أن لعمله هذا أن يرافقه ، ما دام هو خلقاً لله ، وما زال هو كذلك إلى أبد الدهور حتى ولو أبت أهواؤه أن يكون عبداً له .. لذا ، وجدت من اللائق أن أنبذ أيما تعصب يمكن أن تثيره خلجاتي ، وتشعرني إياه فلتات انتماءاتي المذهبية وهي التي باتت تقلقني أكثر مما جعلت عيون أصدقائي وإخواني من أهل

السنة الذين جعلوا يحقدون على قاسم وطلال وماجد وغيرهم من الإخوة المستبصرين الذين كنت أجد فيهم بذور التشيع ، وفي إخواني الحاقدين عليهم كالأنظمة التي طاردت بذرات التشيع وعلى مر السنين ومراحل العمر ».

الفصل الثامن عشر

المذهب الجعفري ما بين ضغوط السلطات

وضروب المذاهب

جلست ذات أصيل أتعرض لمناقشة أحدهم، كان هو الأستاذ الجامعي عبد السلام الربيعي .. حيث كان قد حاز على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد في بريطانيا وذلك في اختصاص الهندسة المعمارية .ولقد رأيته مستبصراً منذ أمد ليس ببعيد جداً .. فكان قد ترك مذهب أهل السنة وبالأخص مذهبه الشافعي وانتمى إلى مذهب أهل البيت ، مذهب الأئمة الاثني عشرية .. سألته ، وذلك حينما ابتدرته بالكلام وأنا أقول له :

. « كيف انغرست بذرة التشيع ، بل كيف اعتمل نموها؟ ».

فقال :

. « مهما يكن من أمر فقد نشأ مذهب أهل البيت وتكون في عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم فهو أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام ، يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنباً إلى جنب وسواء بسواء ، ولم يزل غارسها صلى الله عليه وآله وسلم يتعاهدها بالسقي والعناية حتى ثبتت ونمت في حياته ، ثم أثمرت بعد وفاته ، حيث كان يتعاهدها أهل بيته وخلص أصحابه ، وقد قام كل بما يجب عليه من رعايتها ، وتحمل من نكبات واضطهاد في سبيل حفظها من تلك السلطات التي كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد عليهم السلام ».

بينما تابع حديثه بشغف لم يكن ليكتنزه مع أي أحد ، ولكنه لما آنس في نفسي مشاعر ودية لمعرفة وتتبع أسباب الحقيقة كان له أن يصرح بكل ما لديه ، ويبوح بكل ما عنده :

ـ « وقد وقفوا أمام تلك التيارات وقفة إخلاص وإيمان وثبات على مبدأ الحق ، ولم يأبهوا يوماً ما إلى سلطة أو سياسة ، ومرت تلك الأدوار العصيبة المظلمة ، ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامي الفروع يسقى من ماء غير آسن ، حتى أفرعت دوحته وامتدت أغصانه وأينع ثمره بحفيد النبي الكريم ووارث علمه الإمام جعفر بن محمد الصادق ».

فقلت له :

. « والإمام الصادق ، ما كان دوره على وجه التحديد؟ ».

فقال :

. « كان الإمام الصادق مهتماً في تلك الفترة المارة الذكر ببث العلوم ونشر المعارف الإسلامية بين طبقات المجتمع ، فأقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه ، ويقتبسون من أنوار معارفه ، وأقبلت وفود طلاب العلم من الأقطار الإسلامية ، حتى أصبح عدد تلاميذه والمنتمون إلى مدرسته أربعة آلاف ، منهم أئمة مذاهب ».

. « أئمة مذاهب؟ ».

سألته مع أني كنت أعلم العلم السابق بذلك ، إلا أني أحسست بأن تعبيره كان يمتد أكثر من هذا وأقصى بعداً . فقال :

. « أجل ، كأبي حنيفة ، ومالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، وابن عيينة ، والأعمش ، وغيرهم وكذلك منهم رؤساء طوائف وأعلام الحديث والفقه ».

. « والتآليف في عصره ، ما كان وضعها؟ ».

ـ « وكثر التأليف في عصره ، دون فقه أهل البيت وحديثهم بصورة واسعة ، حتى أحصى ما دونوه في عصره فكان أربعمائة مؤلف لأربعمائة مؤلف ممن سمعوا الحديث منه ، فدونوه وعرفت بالأصول الأربعمائة.

. « فبالجملة فإن مذهب أهل البيت عليهم السلام هو أقدم المذاهب ، وقد تخطى في العصر الأموي تلك العقبات التي حاول الأمويون بها أن يعرقلوا سيره ، ويقفوا في طريق انتشاره ، فضلاً عن مقاومة العباسيين له ، ومعارضتهم لانتشاره ».

. « بأي نتيجة يمكنك أن تخرج ، فيما لو درست كتب المؤرخين ..؟ ».

. « مثل من؟ ».

. « مثل ابن خلدون؟ ».

ـ « أود هنا أن أعود للإشارة عما تجناه ابن خلدون على الحقائق التاريخية إذ يصف هذا المذهب بالبدعة حيث يقول في مقدمته : وشذ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها ، وفقه انفردوا به ».

. « ذكر مثل ذلك في مقدمته؟ ».

. « نعم .. في الصفحة : ٢٧٤ ».

بينما استطرد وهو يقول :

. « وليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب ويضمر لهم كل سوء ، وليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت من أئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم ، ويتجاهل مكانتهم ،هذا مع جهله بمذهبهم فإنه لم يقرأ كتب المذهب وإنما قرأ كتب الخصم ، ولم يتصل بزعمائه ، وإنما اتصل بأعدائه ، فراق له ما سمع من قالة السوء ، واستعذب ما قرأ في كتب المناوئين

لآل محمد وشيعتهم ».

. « ولكن ابن خلدون ليعد من المؤرخين الكبار؟! ».

. « ولعل هالة الإكبار والتقدير لابن خلدون التي أحاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب أبعدتهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها والتعرف على ما تضمنته مقدمته من أخطاء ومخالفات للحقيقة ».

فأمعن حينها النظر في وجهي ، ثم أردف كلامه وهو يقول :

. «ولقد رأينا دوماً أن ابن خلدون موضع إجلال أكثر الباحثين والكتاب ،سيراً على طريقة السلف ، ونجد برغم ما تضمنته مقدمته من علوم في الاجتماع والعمران. إلا أن ذلك لا يبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب وحضارتهم ، فيجردهم من ذلك ويسلبهم فضائلهم فيصفهم بأ نهم أمة متوحشة ، وهم أهل نهب وعبث ، بل هم أداة خراب للأوطان التي يتغلبون عليها إلى غير ذلك مما يدلنا بكل وضوح على تعصبه أو تجاهله كما يصفه لنا الأستاذ موسى سلامة ».

. « وماذا قال الأستاذ سلامة؟ ».

ـ « إنه قال : والخطأ البارز في ابن خلدون ، هو تنقصه حضارة العرب ، فإنه هنا أعمى كامل العمي ،لا يرى بصيصاً من نور ... ، هذا مع أني أحتفظ له بخيانات شخصية وثقافية ،فإنه مثلاً خان معظم الأمراء والملوك الذين خدمهم ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفا وعزاه إلى نفسه ».

وهنا عاد إلى القول :

ـ « ولا أدل على تجاهله أو تحامله من كلمته هذه في مذهب أهل البيت وصفه لهم بالشذوذ. ولو كان له قليلاً من التأمل لما قال هذا القول الذي لم

يتوصل إليه بالنتائج العملية ، وهذه الكلمة هي التي بعثتني على خوض غمرات البحث والتعريف على المذاهب ، وعوامل انتشارها ، أسرار نجاح المذاهب الأربعة وأسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين ، فاتضح لنا أن ذلك مستند إلى دواعي السلطة ، وإغراء المادة ، التي من أجلها نسي ابن خلدون نفسه ، فجرى قلمه بظلم الحق والحقيقة ».

ـ « وكيف يمكن أن تنظر إلى مثل هذه الأسباب في صدور مثل هذه الآراء من مثل هكذا مؤرخ كبير؟ ».

ـ « إنه لا يستبعد ذلك من إنسان تربع على سدة قضاء دولة لا ترغب في إظهار فضل آل محمد عليهم السلام ، أسوة بأخواتها التي سارت على ذلك من قبل ، فهو عبد لسلطانه ، وأسير لشيطانه ».

. « وبنظرك ، هل يمكن أن ينبعث مثل هذا الرأي عن نزق وخبث أم ينطلق من شقة جهل وعدم إحاطة؟ ».

ـ « إن رأي ابن خلدون هذا لا ينبعث إلا عن جهل ، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق ، فيجهل مواقف آل محمد في الدفاع عن الإسلام ، وتفانيهم فى نشر تعاليمه وتعليم الناس أحكام الإسلام وفرائضه ، ومحاربة ذوي العقائد الفاسدة ، وقيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بما لا مجال للشك في ذلك ، ولكن ابن خلدون لتحامله فإنه كان قد نقل كثيراً من الأشياء مبتعداً عن طريق الواقع ، وقد صبها في قالب رغباته وتساهل في إبداء الحقيقة ، وجعلها في طيات الخفاء والكتمان ».

. « وكيف يمكنك أن تميز العلاقة بين المذهب الجعفري والدولة العباسية؟ ».

. « كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجئ المفكرين إلى كبت الشعور ، وتلجم الألسن عن قول الحق ، ومن التجأ إلى المعارضة فقد عرض نفسه إلى السخط وجعلها هدفاً للنقمة ، وبذلك ضاعت أكثر الحقائق ، وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدمهم لعدم الحرية في الرأي والعقيدة ».

. « وبنظرك .. فلولا ذلك لما كان لتلك الحوادث التي أخرت المسلمين أن تحدث أو تقع؟! ».

. « بالتأكيد! لقد كان أولئك الحكام يلتجئون دائماً إلى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الأمة ، ويثيرون الشحناء ويشغلون الأفكار ، لاستخدام الأكثر لمصالحهم الذاتية ، وقد أجهدوا أنفسهم بربط العقائد في دستورهم الذي يتماشى مع رغباتهم ».

. « ما هي أهم مشكلة يمكن أن تتحدد في تاريخ الإسلام؟ ».

. « إن أهم مشكلة في تاريخ الإسلام هي مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالإمامة بأ نه منصب إلهي كالنبوة. فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه ».

. « وإذن فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ ».

. « أجل! والشيعة تعتقد أن تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلي وولده والإمامة متسلسلة في اثني عشر إماماً كما نص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك. ولا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير علي وبنيه عليهم السلام ، ولا يسعني التعرض لبحث الإمامة ولكني أريد الإشارة بهذه العجالة إلى الأدوار التاريخية التي سار فيها شيعة آل محمد في المحافظة على وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التمسك بالكتاب والعترة ».

. « وأصحاب محمد ﷺ ، ما كان دورهم في هذا المجال؟ ».

ـ « لقد قام أصحاب رسول الله في نشر تلك الدعوة في الصدر الأول وتحملوا ما تحملوا في سبيل ذلك ، وفي أيام الدور الأموي والعصر العباسي حتى شهدوا وبأم أعينهم ما لقيه آل محمد وشيعتهم من الاضطهاد والمحنة. ومع ذلك كان لهم الدور في استنباط النشاط والوعي الفكري والعقلي والعمل على إبقاء شعلة الدين وهاجة ».

. « أخبرني ، فما كانت نتائج تلك الحركة الفكرية؟ ».

ـ « لقد كان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق والنهضة العلمية التي ازدهرت في عصر الإمام الصادق عليه السلام هو انتشار مذهب أهل البيت في الأقطار الإسلامية ».

. « وما كان تأثير الدولة العباسية؟ ».

. « كانت الدولة العباسية في طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار ، إذ ليس في إمكانها التظاهر في المعارضة ، لأ نهم في حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت والاستعانة بزعماء الشيعة لتثبت أركان الدولة ».

. « وهل كان ثمة شهرة لأيما مذهب دون آخر؟ ».

. « لم تكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق عليه السلام والتاريخ يدلنا بوضوح على ذلك ».

. « والمذهب المالكي؟ ».

. « أما مالك بن أنس فقد كان في حياة الإمام الصادق عليه السلام كأحد رجال المدينة ، ولم ينتشر ذكره إلا في سنة ١٤٨ هـ وهي سنة وفاة الإمام الصادق ، وكان ضربه بالسياط واهانته في سنة ١٤٦ هـ أي قبل وفاة الإمام الصادق بأقل من

سنتين ، وبعد سنة ١٤٨ هـ وجه المنصور نظره نحو مالك وأمره أن يضع كتاباً يحمل الناس عليه ويوزع نسخاً في الأمصار ولا يكون غيره ».

. « وما كان غرض المنصور الفعلي من ذلك؟ ».

. « لقد كان غرض المنصور من ذلك هو معارضة انتشار مذهب أهل البيت ، لأ نه ثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد وقيام ولده الأمام موسى بن جعفر بعده ، والتفاف الناس حوله حتى لقبوه بالعالم وهو هو في زهده وورعه وعلمه ».

. « وهل استسلم مالك لمثل هذه العروض والاغراءات؟ ».

. « لم يغب عن مالك مغزى هذا التكليف فأجابه : يا أميرالمؤمنين لا تفعل ، أما هذا الصقع فقد كفيتكه ، وأما الشام ففيه الرجل الذي علمته (يعنى الأوزاعي) وأما أهل العراق فهم أهل العراق ».

. « وإذن فالحبل يمتد أبعد! ».

ـ «فكان المنصور يشد أزر الأوزاعي ويراسله ويلحظ مالكاً ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التي أصبحت كأبواب دور الملوك ، بذل جهده بالإنتصار إلى أهل الرأي وهو يأمل من وراء ذلك كله تغليب مذهبه على مبادئ أهل البيت ».

. « ولما اشتد جانب الدولة ، ترى ما الذي كان له أن يحصل؟ ».

. « ولما اشتد جانب الدولة العباسية وقوي ساعدها ، أظهر المنصور ما كان يضمره ، فأعلن مقاومة أهل البيت ومعارضة انتشار مذهبهم ، وشدد النكير على أهله ».

. « وكيف كانت معارضة المنصور والرشيد لمذهب أهل البيت؟ ».

. « كان المنصور يأمل بالإمام أبي حنيفة عندما رعاه بعنايته ونصره وقدمه على كثير من الفقهاء أن يوجد منه شخصية علمية تقف أمام انتشار مذهب يهددها ويشكل وخطراً عليها ».

. « وكيف كان المذهب في عصر المأمون؟ ».

ـ « وفي أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفري في الأقطار بل امتدت دعوة التشيع إلى رجال الدولة أنفسهم منهم الوزراء والأمراء وقواد الجيش والكتاب ، ورؤساء الدواوين ، الأمر الذي دعا المأمون إلى التظاهر بالتشيع ، والميل إلى العلويين ».

. « ولماذا فعل مثل ذلك؟ ».

ـ « لأ نه خشي على زوال ملكه فدعا الإمام على بن موسى الرضا إلى البيعة ، والتنازل عن العرش ،ولكن الإمام رد هذه الدعوة علماً منه بأ نها مفتعلة ، ولكنه تفادى إيقاع نفسه في التهلكة بقبول ولاية العهد قبولاً شكلياً لا أكثر ولا أقل ».

. « وقبل ولاية العهد؟ ».

. « وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد ، وأكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة في الإمامة ، وقد نجح بما دبره في سياسته ودهائه ، إذ استمال قلوب الشيعة وأمن ثورة العلويين المتوقعة ، وفاخر علماء الأديان الأخرى بالرضا ».

. « وفي عصر خلافة المعتصم، كيف كانت الأوضاع؟ ».

ـ «وفي أيام المعتصم التجأ الشيعة إلى التكتم نوعاً ما ،ونراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة ، وقوة لم تستطع الدولة معارضتها ، وذلك عندما استخرجوا جنازة الإمام الجواد في سنة ٢٢٠هـ عندما حاول دفنه سراً ، ولا يسمح لأحد في تشييعه ».

. «حقاً إنها لمهزلة! ».

ـ « ولكن الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب الذي يربو عددهم على اثني عشر الف والسيوف على عواتقهم ، فشيعوا جنازة الإمام رغم معارضة السلطة ».

. « وهل قويت المعارضة في أيام المتوكل؟ ».

ـ « لقد اشتد الأمر وعظمت المحنة في أيام المتوكل العباسي ، فكان بغض علي وشيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب ، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعلي عليه السلام ذكر في الوجود ، ولشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته ، مستقل بمواهبه ، منصل عن الدولة. وقد تتبع العلويين حتى حط من كرامة أهل البيت. ولم يسمح لأي أحد أن يذكرهم بخير ».

. « المتوكل يفعل كل هذه الأفاعيل؟ ».

ـ « ولم لا ،وقد فعل أتعس منها آباؤه الأشاوس و الذين ظلت كتبنا الدراسية تمجد أفعالهم وتشيد بصنائعهم .. ونحن كالغفل لا ندري أين ضاعت مستندات تاريخنا ووثائق أيامنا .. فيدلنا عصر المتوكل ومن خلال كل ما يمكن ملاحظته في زمانه ، على شدة بغضه وتحامله على أهل البيت وأنصارهم .. أو حتى من ينبس ببنت شفة بشيء من مناقبهم! ».

. « هل يمكن أن تمثل لي بمثال ما؟ ».

. « إن نصر بن علي الجهضمي حدث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال : « من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة » ، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلمهجعفر بن عبد الواحد بأن نصراً لم يكن شيعياً وإنما هو من أهل السنة ، فضرب خمسمائة سوط

وعفي عن الباقي ».

ـ « ويحدثنا المقريزي : إن يزيد بن عبد الله أمير مصر ،أمر بضرب جندي تأديباً لشيء صدر منه ، وعندما أحس الجندي بألم الضرب ، أقسم على الأمير بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه ،فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطاً جزاء لهذا القسم ، وكتب إلى المتوكل في بغداد يخبره بخبر الجندي ، فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مئة سوط وحمله إلى بغداد » [1].

بينما تابع حديثه وهو يقول :

. « ولعل النطع والسيف كانت خاتمة المطاف لذلك الجندي. وأمر بضرب أحمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ألف سوط ، لإتهامه بسب الشيخين حتى مات ».

. «؟!».

ـ «قال في الحضارة الإسلامية نقلاً عن المنتظم : وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم علي ، بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبابكر وعمر ».

. « إنها صور ماكرة لعوب! ».

. « وما أكثر من عوقب بهذه الوسيلة. ولكن أنصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعلي وشيعته يقربهم إليه زلفاً . نالوا بذلك إربهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة ».

. « وإذن ، فعصر المتوكل ».

---

(١) تاريخ بغداد ٤ : ١٥٣.

ـ « .. خلاصة القول ، فإن المتوكل اشتد في العداء لأهل البيت والنيل منهم ، واستقدم أبا الحسن الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامراء في سنة ٢٣٦ وعامله بالشدة والأذى وقد توصل المنحرفون عن آل علي إلى إساءة الإمام الهادي عليه السلام فسعوا به إلى المتوكل وأخبروه أن فيمنزله سلاحاً وكتباً من شيعته ،فهجموا على داره ليلاً ولم يعثروا على أي شيء من ذلك ، وما زال الإمام الهادي عليه السلام مقيماً في سامراء إلى أن مات مسموماً سنة ٢٥٤ هـ ، وكانت مدة إقامته فيها ١٨ سنة ».

. « وكيف كان للشيعة أن تتحرك لنصرة أهل البيت؟ ».

ـ « لقد مرت الأدوار ، وتعاقبت الأيام ، والشيعة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب ، ويتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن، كل ذلك في سبيل نصرة آل محمد عليهم السلام ونشر مذهبهم على وجه البسيطة ، وما دفعهم إلى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد ، وامتثالهم لأوامر النبي في المحافظة عليهم ووصاياه المتكررة باتباعهم. ويكفيك ،مضافاً إلى كل ما سمعت من الأدلة القاطعة ، نص الوراثة. فإنه ليعد وحده حجة الله البالغة والأكيدة! ».

. « حديث الوراثة حدثني به رجاء ً ؟ ».

ـ « لا ريب في أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أورث علياً من العلم والحكمة ، ما أورث الأنبياء أوصياءهم ، حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب ».

ـ « حتى كان للشيعة أن يذودوا عن هذا الباب لأ نه يؤدي إلى الرسول نفسه .. أليس هكذا اعتقادهم؟ ».

. « بلا شك ، ولقد بذل الشيعة كل ما في وسعهم لنصرة أهل البيت الذين

عنهم يأخذونتعاليم دينهم ، وكانوا في هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر ، فلا يقعد بهم خوف ظالم ، ولا تحول دونهم ودون الاتصال بهم تلك الارهابات التي اتخذها أعداء آل محمد وسيلة لفصل الأمة عنهم ، فهم من زمان علي بن أبي طالب إلى زمان الإمام الحسن العسكري ، يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى ».

. « وكيف كان زمان إمام الشيعة الحادي عشر؟ ».

. « كان الإمام العسكري قد جلبه المتوكل مع أبيه علي الهادي إلى سامراء ، وما زال مع أبيه إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى وبقي العسكري مدة إمامته القصيرة في سامراء (ست سنين) في نكد وأذى ، وانفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الإساءة والغض من مقامه ، والتضييق عليه بالسجن إلى أن اغتاله المعتمد العباسي بالسم في سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٦٠ هـ ».

. « أووه ..! ».

. « .. ودفن مع أبيه في دارهما حيث قبرهما الآن ، وكان عمره الشريف ثمان وعشرين سنة ».

. « وكيف كان انتشار مذهب أهل البيت في ذلك العهد؟ ».

. « وفي ذلك العهد ، كان مذهب أهل البيت ينتشر في البلاد الإسلامية ، أصبحت قم من عواصم العلم للشيعة وفيما من رواة حديث أهل البيت عدد كثير ، ومن المؤلفين في الحديث والفقه وفنون العلم جم غفير ، وكذلك الكوفة وبغداد والمدائن وسامراء والشام عاصمة الأمويين كما سيأتي بيانه ».

. « أقول : هل تعتقد بأن الشيعة التزمت حب أهل البيت والتعبد على

طريقتهم لتعصب ما ومضادة مع الحكومات القائمة على مر الدهور والأعصار؟ ».

ـ « إن تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت ، لا لتحزب أو تعصب ، ولا لطعن في مذاهب المسلمين أو حط من كرامة أحد من أئمة المذاهب ، ولكن الأدلة الشرعية أخذت بأعناقهم ، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلة القاطعة وتعبداً بسنة سيد النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. ولو وجدوا طريقاً للأخذ عن غيرهم لاتبعوه ، ولم يتحملوا المحن في سبيل اتباعهم ، ولكن لا طريق إلى ذلك بل وجدوا الحق معهم والحق أحق أن يتبع ، ولأ نهم عليهم السلام كانوا يمثلون الرسول في خلقه وهديه وورعه وزهده ، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون أوامره ويسارعون إلى تنفيذه ، واطلعوا على أسرار أحكامه ، ودقائق أطواره والقرآن قد أشاد بفضلهم كثيراً ».

. « وكيف كان وقع نشاطات أئمة الشيعة النفسي بين الناس؟ ».

ـ « لقد بذلوا جهدهم في هداية الناس ، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم إلى طرق السعادة ، وقد نشروا العلم والعدل ، وقاوموا الجهل والظلم ، وليس هذا مجرد فرض وانما هو أمر واقع وحقيقة ظاهرة لا يمكن إنكارها ، ووجد الناس فيهم أئمة هدى : (لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثيرة ورعاته قليل) ».

. « وإذن ، كان للامتداد الديني أسبابه في النهوض بمثل هذا التعلق الجماهيري؟ ».

. « أجل ، بالتأكيد! فهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومهبط الوحي ، لم تسمح الأدلة بمخالفتهم والأخذ عن غيرهم. وهم عدل القرآن وسفينة نوح باتباع علم الهداية والرشاد. ولقد قال ﷺ : « أنا دار الحكمة وعلي بابها ، » وقال : « علي باب علمي ، ومبين من بعدي لأمتي ما أرسلت به ، حبه إيمان ، وبغضه نفاق .. « وقال كذلك في حديث زيد بى أبي أوفى : « وأنت أخي ووارثي ، قال : وما أرث منك؟ قال ﷺ : ما ورث الأنبياء من قبلي ». ونص ﷺ في حديث بريدة على أن وارثه علي بن أبي طالب. وحسبك حديث الدار يوم الانذار ، وكان علي يقول في حياة رسول الله : « والله إني لأخوه ، ووليه وابن عمه ، ووارث علمه ، فمن أحق به مني؟! ».

. « هل هذه الكلمة بعين لفظها ثابتة عن علي بن أبي طالب؟ ».

. « أجل ، إنها ثابتة! ».

. « كيف تثبت إنها كذلك؟ ».

. « أخرجها الحاكم في صفحة ١٢٥ من الجزء ٣ من المستدرك بالسند الصحيح على شرط البخاري ومسلم ، واعترف الذهبي في تلخيصه بذلك ».

. «حقاً ! ».

ـ « وقيل له مرة: كيف ورثت ابن عمك دون عمك؟ فقال : جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم رهط، كلهم يأكل الجذعة ، ويشرب الفرق ،فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ، فقال ﷺ : يا بني عبد المطلب إني بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي ، وصاحبي ، ووارثي؟ فلم يقم إليه أحد ، فقمت إليه وكنت من أصغر القوم. فقال لي : اجلس ، ثم قالها ثلاث مرات

كل ذلك أقوم إليه فيقول لي : اجلس حتى كان في الثالثة ، ضرب بيده على يدي ، فلذلك ورثت ابن عمي دون عمي » [1].

. « وإذن ، فكذلك كان قد ورث علي رسول الله؟ ».

. « استمع إلى هذا ، لقد سئل قثم بن العباس فقيل له: كيف ورث علي رسول الله دونكم ، فقال :لأ نه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً . قلت: كان الناس يعلمون أن وارث رسول الله ﷺ إنما هو علي ، دون عمه العباس وغيره من بني هاشم ، وكانوا يرسلون ذلك إرسال المسلمات كما ترى ، وإنما كانوا يجهلون السبب في حصر ذلك التراث بعلي وهو ابن عم النبي دون العباس ، وهو عمه ، ودون غيره من بني أعمامه وسائر أرحامه ﷺ ،ولذلك سألوا علياً تارة ،وقثماً أخرى ، فأجابهم بما سمعت ».

. « وعليه فثمة جواب آخر ، أو إجابات أخرى غير هذه؟! ».

. « ولقد كان ذلك كله غاية ما تصل إليه مدارك أولئك السائلين ، وإلا فالجواب : إن الله عز وجل اطلع إلى أهل الأرض فاختار منهم محمداً فجعله نبياً ، ثم اطلع ثانية فاختار علياً فأوحى إلى نبيه ﷺ أن يتخذه وارثاً ووصياً ، قال الحاكم [2] . بعد أن أخرج عن قثم ما سمعته . : حدثني قاضي القضاة أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي قال : سمعت أبا عمر القاضي ، يقول : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول : وقد ذكر له قول قثم هذا ».

---

(١) الضياء المقدسي في المختارة ، وابن جرير في تهذيب الآثار ، كنزل العمال ٦ : ٤٠٨ ح٦١٥٥ ، الخصائص للنسائي : ١٨ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ٢٥٥ ، مسند أحمد ١ : ١٥٩.

(٢) المستدرك ٣ : ١٢٥.

. « فما الذي قاله؟! ».

. « .. فقال : إنما يرث الوارث بالنسب ، أو بالولاء ، ولا خلاف بين أهل العلم أن ابن العم لا يرث مع العم (قال)فقد ظهر بهذا الاجماع أن علياً ورث العلم من النبي دونهم ».

. «؟!».

ـ « والأخبار في هذا متواترة ، ولا سيما من طريق العترة الطاهرة ، وحسبك الوصية ونصوصها الجلية! ».

الفصل التاسع عشر

أئمة المذاهب ما بين المرجعية والخلافة

كنت أذكر كافة أفراد عائلتي وأصدقائي ومن معي ومن غاب عني .. وكافة أقاربي .. ومن كان معي في الجامعة .. لقد ابتغيت الولوج إلى ساحة التحدي واتخاذ القرار ، لكن الخوف صارعني ، ومالأتني أيامه النكدة حتى جعلت أنواع التحديات لا تألف سوى مناهضتي والالتحام في صفوف غريبة ورهيبة كيما تقفو أثاري وتمنعني من أيما تحرك أخاله مثبتاً لأ نها خالته غير ذلك .. فصارت ألوان احداق كل من أعرفهم تناشدني كل مراحل التأمل وعدم التسرع ، وهم الذين صاروا يتفرسون في مطالع رؤياي ، وكأنما جعلت تنبئهم بأصوات هلعة ، ومستقبل خارق للعادة مع أنه لم أكن لأشعر أنا بأي من هذا ، وأنا الذي صرت أحس بكل ما يزيدني هماً وخوفاً من اتخاذ أيما خطوة أو الإقدام على أيما حركة دون تحسب بأسبابها ، أو تحر لمجرياتها وتنقيب من آثارها المستقبلية ، فلا استشيع وأعود بعدها إلى مذهبي ، ولا اظل هكذا متسنناً ، وأنا لا ارتضي بمذهبي قلما يتسلط على وقع نبضاتي راصداً شطآن دخائلي ، كيف يغدو عليها الموج بمده وجزره ويروح .. إنما كنت أريد وبنفسي أن أفحص الأمور ، وانقب عن الذهب والفضة ، واكشف جزائر اللؤلؤ والمرجان ، كيما لا أكون بآلاء ربي كاذباً حتى يسائلني : فبأي الاء ربك تكذب يا هذا ، كما أردت أن أطوي كشحاً عن التفكير بأي عالم من علماء

مذهبي الذين لا أتشرف بلقياهم الآن البتة ، طلبت من الله النصرة ، وعزمت على أن اقرأ لوحدي وبنفسي ، فأنا العالم وأنا القارئ ، وأنا الباحث ، دون الحاجة إلى إرشاد الآخرين. فلا أنتظر الموت يأتيني تزورني رحائله ، وأنا لم أرس بسنين ، ولم ألق بمرساتها إلى ضفاف السواحل المغرقة بالنعاس والمثقلة بأحلام البحارة القدماء ..مبرراً مثل هذا ، ومعللا أنفاسي باعذار هي أوهن من خاتمتها وهي أنه يجب أن القى علماء مذهبي وأسألهم لأن الله أمرني : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** ﴾ .. فمع أن هذا الحال هو لا يعدو الأمر الإلهي إلا أن لكل حالة شرط وشروط ، ولكل مقام مقال.

فما كان هذا كله ، إلا ليستاق رحى أيامي نحو قطر سام ، كيما أغرزه في وقعة تبيح لي أن استرق الفرص الغنيمة ، كيما أسأل أهل الذكر من فوهات عيون الكتب وأمهات المجلدات والمعاجم ، لاصير بعدها إلى سؤال القلب الأم الذي وضعه الله إماماً على سائر جوارحي .. حيث ما زالت عالقة في بالي هذه الرواية التي ظللت أتأمل عندها عشرات المرات ، وأنا أسائل الفؤاد علني أبصر ما لا يبصره ملايين الناس من هؤلاء البشر .. فما كان لينتابني أيما ذعر لاستشياع الآخرين من أصحابي أو بقاء العديدين على مذهبهم. إذ خلت أن المجد لا يزحزح طود نصبه ، ولا يهزهز عروش أركانه إلا فيحاء الرقياء وميساء الافاحي والعوذات التي لا يختلس مهلة النهوض بها إلا قلب شرح الله صدره للإسلام. فما يضير بالمرء أن يتعرف على ما لدى الشيعة ، ويدرس ما يجده عندهم ، ، ويطلع على عقائدهم وتعاليمهم. وبذلك سيتم له أن يدرس قواعد وأسس دينه هو الآخر ، كالذي جعل يحيط عربته التي تقله بكل مراقبات النظر والفحص بعجلاتها وماكنتها ومحركها ، وتفقد زيتها ونفطها

وماءها وأقسام دائرتها الكهربائية ، كيما يطمئن إلى أنه ليصل دائماً ومن دون أن تعترضه أيما عوائق ، أو أخطار يمكن أن يسببها له عدم اذعانه لمثل هذه التفاصيل من نوبات أعمال الادامة .. أو كمن جعل يتفقد حال بنائه الجديد ، أو حال عمارته القديمة ، ليكون على اطلاع بكل أسباب دوامها وتلافي حصول ايما انهيار يأتي على أدوارها وطبقاتها .. أو كحال رب العائلة الذي عمد الى تفقد أحوال أفراد أسرته من الصغير إلى الكبير ، ويسبر غور تطلعاتهم ، وما يحتاجون إليه ، ومع من يختلطون؟ وأي هو الذي يعاشرون ، أو يستقبلون في منزله ، إبان غيابه ، وفي أثناء عدم وجوده ، وهكذا.

أو كحال أيما رجل أعمال في أيما ظرف جعل يراجع جداول أعماله واوراقه الحسابية والمصرفية ، أو طالب علم جعل يتحسس مستوياته العلمية ، وكتبه ومناهجه حتى طفق يراجع مواد دروسه ، ويعد لاجتياز امتحاناته النهائية وغيرها .. فلم لا أفعل مثل ذلك ، وقد تاق الزمان إلى أن يكحل عيناي برضاه ، علني أوفق إلى كسب نياشين النصر على نفسي ، كيفما أتفق الي حال الدنيا وأمر الزمان ..ذلك اني قد أديت الذي كان علي واجباً أداؤه ، فلو ساءلني أحد الملكين في عالم البرزخ ، من إمامك؟ وما دليلك عليه؟ كان لي. بعدها أن أخبره إلى ما توصل إليه عقلي ، وسعى إليه فكري الإيماني ، واسترسل معه بالحديث حتى أقضي به إلى طرائق أبحاثي ، وضروب معالجاتي لكل من هذه المشكلات العقلية والآفات الذهنية ، واطلعه على كيفية تحليقاتي المتينة ، وكيف كان لي أن أنشب مخالب نزعاتي الذهبية لأكللها بغرزاتها الفضية ، وهي تستكشف ظلم الأيام ، وتستنكف عن المضي دون رفع الهام ، كمن مد بعنقه إلى ما تحت سحائب من أعناق أغصان تبلدت

فوق رأسه .. فاينما أدار رأسه ، اضطرته إلى أن ينكس برأسه ، ويجنح بعنقه نحو الاذعان ، ويخضع دونما أن يتبين في أثيث هذه الأجنحة المورقة أيما طريق ، ليس ذلك يعنون بسبب افتقاده لمثله ، إنما افتقاده لقدرته على التصميم ، واتخاذ القرار باحتفار المجهول ، واخترام البعيد من زوايا الرؤيا ، كيما ينبجس له ضياء ، يعكس له سبلى ظليلة! وليست عسوفة أو خفيضة حتى يروم لها طريقاً ، كيما يمتحن اقصاءها ، ويرجو ضفاف تخومها حتى ولو ما كان لنجمه أن يورق بأيما لوح بشارة يمكن ان يغرقه بظلال تسابيح مشرقة ، يؤمله أن يغذو السير في اتجاهه ، ويغريه بالنفوذ إلى باحة سلطانه ، كيما يلتمس الامساك بحبات العنقود والتطاول على معدنه في عليائه .. فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى! ذلك أن الأمر كان قد صدر : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ ، وما أبرئ أيما نفس مذهب ، القيام بمهام هذا الواجب ، وهو الفحص عن حقيقة الدين ، واستجلاء معالمه ، والتحقق من صحة الاعتقاد الذي قوم بنيانه عليه ، كل من أبيه وأمه ، فهودانه أو مجسانه أو نصرانه أو جعلاه مسلماً حنفياً ، أو شيعياً ، أو حتى غيره .. فالكل عليهم أن يهضوا لملء جرابهم من غدير لا ينضب معينه أبداً ، ولا يفيض ماء جبه قط! ليسأل الله الصادقين عن صدقهم ويعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، ذلك أن الهدف هو الله ، فمن ارتضاه الله ، وجب على البشري الخليق به مثل هذه اللفحة أن يختاره ، ولا يكتفي بما اختاره له أبوه وأمه ، وقع عليه اختيار الأم ، حتى لو كثر أفرادها وتعددت فرقها ، وهي تلهج بقول يتيم ، وتعلن عن وحدة قولها. لأ ني وجدت أن الله كان قد ذم الكثرة في مواطن في قرانه ، ربما غدت بعدد المواطن الكثيرة التي نصر الله بها

الإسلام عبر معاركه .. حتى غرت المؤمنين كثرتهم ، وجعلتهم يتراجعون القهقرى ، ويفرون من لقاء الأعداء ومواجهة المشركين .. وما كان أكثرهم مؤمنين ، وأن تطع أكثر من في الأرض يضلونك عن سبيل الله ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .. هذا إن أبحنا لأنفسنا أن نفكر بمطلق العقل السليم وطلاقة سبيل الاعتقاد الحكيم ، ولا تنظر إلى الشيعة على أنهم شرذمة قليلة ، فلو القى عليهم أسورة من ذهب أو جاؤوا إلينا بالملائكة ، فما كان الرسول إلا فرداً لم يكن لينصره ، وفي بادئ دعوته الفئة القليلة. وما كان لنا أن نستهين بعقيدة أخر حتى تنجلي عبرة الخوف عن الانتماء إلى عقيدتنا نفسها التي لا نحمل عنها أيما تصور حقيقي. إذ ما كان لنا أن ننظر إليها ، ولا في يوم من الأيام بعين التمحيص ، ولا كان لنا من الوقت . وحسب انشغالاتنا واعتقاداتنا الدنيوية . الذي نضيعه في بحث صحة اعتقاداتنا ، ومراجعة كتب الصحاح ، ومجلدات التاريخ والتفسير ، وجمهرة الكتب المؤلفة والغور في أرجاء بطونها ، وسبر ملامحها الأصلية وأعماقها الغنمة حتى كأنه حرم على أيما أحد منا أن يدخل في غمارها ، ويدرس أحوال أوطانها ، ويقتحم أقطارها ، ويمشط مناحيها. فلو فعل أحدنا مثل ذلك ، لتوقع أن يوصل بالعار ، ويحلق رأسه ، ويطاف به في الأسواق ، ويعلن عنه كفرد ظل الطريق ، وأساء القصد ، وأراد الإقلاع عن دين المعبود ، وتصحيح التاريخ ، وسلب الزمان هويته ، وانتهاك حرمة الصحابة .. ومن هم الصحابة والتابعين سوى أناس مثلنا ، فليسوا هم بالمعصومين .. كانوا قد تعرضوا إلى اختبار الإله ، وفتنة إبليس أكثر منا ، لأ نهم عاشروا الرسول ، ورافقوا الأصحاب ، وتابعوا المتأخرين منهم حتى غدا أيما خطأ أو تقصير يبدر منهم يحتمل الأكثر

والاعظم من العقاب والجزء من قبل الخالق القهار ، ذلك أن الحجة كانت قد القيت عليهم بأعظم مما القيت علينا ، ونحن الذين نأينا في عباب الزمان ، وابتعدنا عن عقارب أيامه حتى شطت بنا المساحات ، وصرنا نؤمن بالرسول والأئمة والأصحاب غيبياً ، ومن دون أن نراهم ونقر بالدين ووجود الخالق حتى آمنا بالقرآن المنزل من دون أن نبصر للمعاجز مقالة وللوحي رسماً مع أن معجزة الواحد هي القادمة بين أيدينا ، يتحفنا باريج عبيرها واوج عروجها ، بين الفينة والأخرى ، إلا وهي جلالات القرآن وضياء كتابه الحكيم.

اعترتني غربة قاسية ، غافلني سحابها ، وهو لا يزال يتطاول فوق هضاب أنفاسي التي جعلت تعلو وتنخفض كلما استرسلت في التفكير بغربتي ، وآلمني نبض الفراق و الوحدة .. غير أني جعلت أعود النفس وأعلل القلب بضرورة مباغتة الفرص نفسها ، واستباقها واقتناص أيامها ، ومن قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال .. وما كنت لأطيق اقناع نفسي وبهذه السرعة ، وأن أحاول ارغامها على الدخول مدخلا حسناً ، وذلك أني كنت أدرك أن هذا التفكير المفرط والمرهف سوف لا يحملني سوى وباله الأليم ، وسوف لا يجر علي سوى ارهاق تلو الارهاق ، ولاكثر من ذي قبل حتى ساصير أحتمل رزئه ومن دون أيما طائل ، وانوء تحت غيظ سيوفه ومن دون أيما مبرر ، إذ ريثما أهدأ إلى ليوث عريني القابعة في وجار نفسي وعتيق دخائلي ، سيكون بمقدوري عندها أن أحرر النفس من عناق شبق ، طالما غشيتني به لواعجها الغنية بالبذخ والترف ..فأصبحت أغمرها بسيل من التطويقات رغماً عنها ..وكيفما حال الزمان بالمرء إلى اتجاه ، عقل إنه أنفس وارفع ، لأن أفضل الأعمال كان هو ما اكرهت النفس عليه ، وذلك حسب ما يعنيه قول سول العزة

محمد بن عبد الله ، مما له أن يندرج في سيل الطاعات ، ولا ينجرف نحو مشارف المعاصي وحافات الهاوية .. حيث إن حالي جعل يصرح لي بعيون وجلة ، كل ما كان للوحي الروحي ان ينطق به ويقوله ، ويحدث به ، .. وأنا الذي ما زلت أحاول تسلق جبل عاتي ، لكيما يتسنى لي معرفة آمالي بحق ، وحقيقة! أهو أبو بكر؟ أم علي؟ أم كلاهما! أم الخلفاء الراشدون أجمع؟ وهل أن الأصح هو اتباع أبي حنيفة ، أو الشافعي أو ابن حنبل أو مالك ، أم جعفر الصادق؟! .. وإن أخترت أحدهم ، فما الذي سيصير إليه مصير تلك الأزمنة التي حكمتها البلاد ، وفي عهود كل من حكام بني أمية وبني العباس؟! أيمكن أن يكونوا على حق؟ ولم لم يأت أبو حنيفة في زمان أبي بكر ، ولو فعل ، ما كان ليقوله له أبو بكر نفسه؟ وهل كان الزمان الذي سبق وجود الأئمة خلواً من التقليد؟ ولو كان لأحدهم أن يعتريني بفصيح القول إن الخلفاء كانوا يعوضون عنهم ، فهل أن معاوية بن أبي سفيان ، كان قد أعرض عنهم حين حكمه هو الآخر ، وهو الذي جعل حكومته قيصرية يورثها أولاده بعد أن يغير على حدود العراق ، ويقتل الاطفال ، ويسبي النساء ، ويهتك حرمات المسلمين .. ويغزو كما كان يغزو أبوه وأجداده من قبل في أيام الجاهلية ، فيذر البقاع عاليها سافلها ، ويدع المضارب بلقعاً قفراً من سكانها ، هشيماً تذروه الرياح حتى إذا ما استتب الحكم لولده يزيد ، جعل الأخير يتمرن على كيفية حصاد الرؤوس البشرية ، وفري الاوداج ، وحز أعناق كل فلذة وفلذة لكبد رسول الله التي ما ذل العالمين لحكمه إلا عن طريق إيمانهم بما جاء به!

ولما كان الزمان في عصور بني أمية ، يخلو من أئمة المذاهب هؤلاء .. حتى إذا ما أتى حكم العباسيين ، جعل الدهر يفصح عن حاجته إلى أئمة .. ينشغل

الناس بتقليدهم .. فمن كانوا يقلدون هؤلاء ومن قبل يا ترى؟ .. وهل يعد تعبد الناس الذين سبقت أزمنتهم أزمنة أئمة المذاهب الأربعة (فيما لو اعتقدنا بأن عدم تقليد أحد هؤلاء الأئمة غير جائز) لم يكن سليماً ، أو لم يكن صحيحاً ..إن قلت لاصحابي إن الناس كانوا قد اكتفوا بمن كان موجوداً في عهد الخلفاء الراشدين ، فهل كان لهم أن يعينوا لنا بمن اكتفوا .. وهل كان لهم ان يشخصوا لنا لم لم يستمر مثل هذا الاكتفاء .. فإن انتفى فيما بعد ، فما كان له إلا أن ينتفي فيما سبق .. لأن لمثل ذلك أن يطلق عليه قاعدة لا تقبل التوالي ولا التواصل .. غير أن الإسلام ما كان ليقبل إلا التواصل وعلى المدى وإلا لساخت الأرض بمن فيها .. لأ نه لو خليت لقلبت! وهل كان للبشرية المسلمة أن تكتفي كذلك في عهد الأمويين .. ، وإن عبرنا عن ذلك بالاثبات ، فمن كان هؤلاء الذين يكتفي بهم البشر آنذاك؟! كذلك ، ما كان لينفي هذا الاثبات إلا كل حادث كان له أن يحصل ويستجد في العصور العباسية مما له أن يمثل عدم الاكتفاء .. مع أن خطوط هذا الآخير وحسب ما يمكن أن يعنيها من يعتقد بها كان لها أن تتواصل ، .. فلماذا يعرض عنها الخلفاء العباسيون وينشدون سياسة إحداث فقهاء جدد؟! وصناعة علماء لم يسمع بهم أحد من قبل؟ وإن عبرنا عن ضرورة احتياجات الناس الملحة وذلك لتعاظم ظروف الزمان ، واختلاط الدهور ، وانبساط المستحدثات من المسائل وكثرة الفتوحات وحاجة الأمصار والأعمال الجديدة إلى تدوين لقوانين الشرع وأحوال الدين ، كيما يتبصر بها ذوي النهى والحجى ، ويعقلها أصحاب الأذهان ، ويفهم ظاهرها عوام الناس وعموم البشر والعباد من خلق الرحمن .. فكان لي أن أتساءل عندها ، فهل كان الناس ومن قبل يتعبدون ومن دون تقليد ، وإن كانوا يقلدون

الرسول ، فما كان الرسول إلا الحاكم الشرعي .. والخليفة العام المتسلط على شؤون الدولة الإسلامية ، وإذا سلمنا بشرعية الخلافة الإسلامية ، فما كان المرجع آنذاك إلا الخليفة .. لكنا نلحظ بأن الخليفة ما كان يمثل المرجعية آنذاك .. لأن الخليفة أبو بكر والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ما كانا ليعبرا عن نفسيهما بذلك حتى كان للآخير أن يعبر عن حاجته إلى مرجع ..وما كان هذا إلا علياً .. فقال : لولا علي لهلك عمر! إن هذه المسألة تحتاج إلى توقف عظيم ، لأن الخليفة الحق يجب أن يلم بمسائل السياسة والدين جامعة.

ولي أن اتساءل ثانية : فهل كان الفتح العباسي يفرض صنع أئمة يتعبد الناس طبقاً لفتاويهم؟ وهل أن الفتح الأموي ما كان يستلزم صنع مثل هؤلاء؟! وهل كان الاختلاف يدعو إلى التعبد على فقه إمام من هؤلاء الأئمة الأربعة دون آخر؟ وكيف استدعى ظهور الشافعي وأبي حنيفة ، وبروز المالكي والحنبلي دون غيرهم من أصحاب المذاهب؟ ولماذا كان ثمة اختلاف بين هؤلاء الأربعة ، ان كان لهم أن ينهلوا من دين واحد؟ وإن رفع هذا الاختلاف ، فما كان ثمة من داع يبرر الانتقال من مذهب إلى آخر ، في داخل نطاق هؤلاء الأربعة ..وإن لم يرفع مثل هذا الاختلاف ، فإنه يمكن أن ينتزع نوع تبرير هو أصعب من كل ما يمكن تصوره ، وهو أنه ما كان مثل هؤلاء إلا مجتهدين .. وعليه ، فلماذا لا ينضم اليهم جعفر الصادق ، وهو الأولى ، لأ نه ابن رسول الله ، وعليه ، فما كان تقدمه وتؤخره إلا السياسة ، لأ نه ما كان ليركن إلى أصحابها قط (حتى ولو كان لأصحاب المذاهب من له أن لا يركن إلى السياسة في بعض الأحيان ، فإنهم لربما كانوا ورقة ممتازة أحسن العباسيون توظيفها ضد الشيعة والاستفادة منها لتمشية أمورهم ودحر مناوئيهم) وليس للمعايير الكونية

والدينية دخل في ذلك .. وإلا لكان لجعفر الصادق أن يكون هو الآخر أولهم وليس خامسهم لأن أبا حنيفة كان تلميذه! ولم يتتلمذ جعفر على يدي أي منهم بل هم الذين تتلمذوا على يديه ، وإن لم يتتلمذ الشافعي على يديه مباشرة ، فقد تتلمذ على يدي أحد تلامذته! وإن كان الشافعي نفسه مثلاً ، قد سار على نهج من سبقه من الفقهاء ، فما كان لنا أن نعتبر له فقهاً مستقلاً ، وإن خالفهم ، فما هو وجه الخلاف؟ وإن رضينا بذلك ، نعم لا نقبل بامتداد خطوط الفقه حتى صرنا نقف عند حدود هؤلاء الفقهاء الأربعة ، و إن تعذر على البعض اكتشاف ذلك حينما صار لا يكف الآخرون عن الاهتمام به ، وهم لا يفتأون يلقمون فمه الاعذار تلو الأخرى ، وهي أنه قد ظهر فقهاء آخرون ، ونبغ كثير غيرهم ، سواء في أزمنة هؤلاء الفقهاء الأربعة أنفسهم ، أو قبلهم أو حتى بعدهم ، إلا أنهم لم يلقوا أذناً صاغية بمثلما لقيها هؤلاء الأربعة .. وإذن ، فان السؤال سوف يتهدد أعناق هؤلاء ، فأيما أذن صاغية لكان لهم أن يلقوها ، وهم الذين ما كانت لتختلف انتماءاتهم أو مقادير علومهم ، بل تباينت ألوان قدراتهم ، وتناؤءت لديهم بعض النظرات العلمية وتصادمت بعض آرؤاهم الفقهية مع البعض الآخر؟! لذا ، فهل كانت السلطات وراء ذلك ، وهي التي ما كانت لتترجم سوى معاني الحنق العباسي ، ومقادير الحذقة والدهاء اللذين كان ينغمس في اطارهما البلاط العباسي نفسه ، ذلك أنه وجد نفسه في صراع عظيم مع فقه الشيعة حتى جعل يكيل له الضربات تلو الأخرى ،حيث صرت إلى مطالعة ما وجدته ثابتاً في المصادر المعتبرة والموثقة لدي كذلك.

الفصل العشرون

مذهب أهل البيت ما بيع القمع والنشر

كنت أفكر كيف أن نجم المذهب الشيعي كان له أن يصير إلى الائتلاق أكثر فأكثر ، ومع كل هذه التأثيرات والضغوط المتواصلة عبر التاريخ! إنها حقاً لمعجزة ليس يقدر عليها سوى الله ، وما كان يريده الله ، فخليق بالبشرية وحري بأبناء آدم أن يطلبوه ولو حبواً على الثلج! لقد انتهز العباسيون فرصة اندحار الأمويين عن طريق اعلاناتهم الخفية لبني العباس واعلاناتهم الموهمة عن أن حكومتهم ما قامت ، وثورتهم ما اشتعلت إلا للرضا من آل محمد ..فكيف لهم أن يعلنوا عن ذلك ، ويعملوا على تقتيل أبناء علي ، ومطاردة أولادهم ، بدلاً من مودتهم؟! وإذا ما كانوا قد تجاوزا هذه الفترات ، فإنه كان لهم ان يشعروا بضرورة الافصاح عن مآربهم الحقيقية ، والاستطال والتيه في سوابح السلطنة والدنيا ، وذلك بعد أن استتب لهم الأمر ، ونفذت رماح حال الوأد السياسي إلى كل الارجاء ، وعزموا على الأمر والنهي دون أكتراث ، بعدها صنعوا ما صنعوا ، ووظفوا ما وظفوا حتى صاروا يحاربون آل علي ، ويقتلون أبناءه ، ويصرعون أحباءه من بعد أن جعلوا يجهزوا على أئمة الشيعة من ولد علي وفاطمة .. أسباط الرسول محمد! إلا أنهم ما كانوا لتمكنوا من ذلك حتى كان جعفر الصادق قد تمكن من نشر تعاليم عقائده وترجى مذهبه الذي ليس لاحد أن يفكر بأنه كان لفقهه أو عقائده ، أو أيما مقدار من مقاديره ، له أن

يفارق ، أو يخالف المذهب الذي ذهب إليه جده وأبيه من قبله ، أو نحاه علي بن أبي طالب ، أو انتهج نهجه من قبل ».

وما كان كل هذا التفكير ليعلن لدي عن استبصاري ووضوح ميلي الى التشيع وأهله ، إلا أني صرت أدرس التاريخ ، وأقرأه باذن .. ربما وعت (ومن دون أيما غرور) الأمور وتبصرت في المسائل أكثر من أذان كل من وجدتهم حولي ، وربما أدهشتني نفسي أنا الذي خلت نفسي بأ نها صارت تفهم أكثر من أفهام الشيعة أنفسهم ، أو أن تصارع حرب الأفكار والنفس ولاكثر مما جعل تتصارع في خضم وتحتدم في غمارها كل من عقول المستبصرين من حولي .. حيث كان قد تحدث الي عمر بن الحاج أحمد الدباغ الذي كان قد استبصر قبل خالد وسلام وطلال.

قال عمر :

. « ما رأيك بمذهب أهل البيت ».

لم أجب وانتظرت منه أن يحكي لي عنه .. فقال ، من بعد أن فهم لحن نظراتي ووجهة سلوكي :

. «هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ».

. « وهو أقدم المذاهب نشأة أليس كذلك؟ ».

. « ..وأقواها عاملاً ، يستمد تعاليمه من الينبوع الإسلامي الفياض : القرآن الكريم وسنة نبيه ».

اعتدل في جلسته ، وأنشأ يتابع الحديث :

. « وقد غرس النبي ﷺ بذرته ووجه الناس إليه بتعاليمه وارشاداته ،

وعمل به في زمن الصحابة ».

. « ومن قام بنشره؟ ».

ـ « لقد قام بنشره جماعة من الصحابة الافذاذ ، كأبي ذر الغفاري ، وسلمان ، والمقداد ، وعمار بن ياسر وغير هم ».

. « ولماذا أختص المذهب بالإمام جعفر الصادق؟ ».

. « أما اختصاصه بالإمام الصادق ، فإنه يرجع إلى الأسباب التي عصفت بتلك الفترة التي امتدت ما بين شيخوخة الدولة الأموية ، وطفولة الدولة العباسية ، وفيها اتسع المجال للإمام الصادق لنشر العلم وبث الأحكام الإلهية ، ونشر التعاليم النبوية التي استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله ».

. «تقصد عند رفع تلك الرقابة التي جعلها الأمويو ن ».

ـ «أجل ، تلك الرقابة التي وضعت أساساً للحيلولة بين الأمة وبين أهل البيت ، فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد واتسعت أمامه حرية القول ، وحرية النقض والابرام في شأن الحقائق الدينية من جهة ، الموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث والسنة من جهة أخرى ».

. « والطلبة؟ ».

ـ « لقد ازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته ، وكثرت الهجرة إليها ، فنسب المذهب إليه في عهد ازدهار العلم ، لأن كل ما ذهب الإمام الصادق إلى تصويبه والوثوق بصحته من الأحكام أصبح بجملته يسمى : مذهب جعفر الصادق ».

. « وهل كان مذهب جعفر الصادق هذا ، كسائر المذاهب الإسلامية في تطوره؟ ».

ـ « لم يكن المذهب الجعفري كسائر المذاهب الإسلامية في تطور نشأته وعوامل انتشاره ، بل امتاز باستقلاله عن مقومات الماده ومؤازرة السلطة ، واستطاع بمؤهلاته الذاتية اخضاع الزمن ، واجتياز العقبات التي تقف في طريق نشره ».

. « وإذن؟! ».

. « فإنه لولا فيض من القدسية في مبادئه ، وقوة روحية في تعاليمه ، وعناية قبل كل شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس ، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ولكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى ، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح ».

. « وبذلك كان للظروف دورها الخطير في انتشار المذاهب الإسلامية ، مع وجود كل تلك الممارسات القمعية ضد غير الموالين للسلطات الحاكمة؟ ».

. « لقد اتضح بالبحث عن المذاهب الإسلامية ودراساتي للظروف التي تكونت فيها ، والعوامل الرئيسية لنشر البعض وخمول البعض الآخر ، إنما هو لتدخل السلطة التنفيذية ، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها ، ومعارضة المذهب الذي لا يروق لها نشره ، وكانت الأسباب التي أدت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة ».

. « كيف نشطت الحركة العدائية لأهل البيت ولمذهبهم بالتالي؟ ».

ـ « أما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات كل امكانياتها لعرقلة نشره واتساع دائرة أتباعه ، وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت ، والوقوف في طريق انتشار مذهبهم في البلاد الإسلامية ، أما الدولة

الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة : ».

. « ما هي؟ ».

ـ «أما الأمر الأول ، فهو : العداء للبيت النبوي عداء ذاتياً متأصلاً ، توارثه الأبناء عن الآباء ولم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاماً لقوته ».

. « والأمر الثاني؟ ».

ـ « إن مذهب أهل البيت بانتشاره في عهدهم وعدم معارضتهم له ، معناه الضربة القاضية على الدولة ، للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الامويين في إشاعة العدل والمساواة بين الطبقات ، ونشر التعاليم الإسلامية ».

. « والأمر الثالث؟ ».

ـ « إنهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الإسلامية يعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت فإذا تركوا الأمور تسير بمجراها الطبيعي يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وإن كان في ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر ».

. « هل يمكنك أن تتحدث لي عن معارضة معاوية بن أبي سفيان؟ كيف كانت وبماذا أتسم طابعها؟ ».

. « وعلى أي حال فقد واجه محبو علي بن أبي طالب وأنصاره في عهد معاوية أنواع الأذى وضروب المحن ، وقد استعمل شتى الوسائل في معاقبتهم

ومنع الناس من الرواية عن علي .. فكان المحدثون يكنون عنه بأبي زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه ».

. « وإذن ، لقد أهتم معاوية بمحو اسم علي بن أبي طالب؟! ».

ـ « إن اهتمام معاوية في محو ذكر علي ، ليصور لنا ولاية زياد على الكوفة ، وتتبعه لشيعة علي تحت كل حجر ومدر ، حتى حملهم على البراءة من علي عليه السلام ولنا في قتل حجر بن عدي واصحابه رحمهم الله أكبر دليل على محاولة معاوية على ذلك ».

. « كيف وصل معاوية إلى تلك الغاية؟ أو ما هي الجهود التي بذلها في سبيل ذلك؟ ».

ـ « لا أطيل عليك الحديث حول الجهود التي بذلها معاوية في الوصول لتلك الغاية ولكنها أتعاب لم تثمر الفائدة التي كان يسعى لتحصيلها ».

. « ومع ذلك كله ، كان قد لقي المسار الدافئ لانتشاره؟ ».

. « مذهب أهل البيت؟ ».

. « أجل لا غيره! ».

. « إن أول من نشر المذهب في الديار الشامية هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ، فقد قام بدوره في نشر تعاليم الإسلام ، واظهار الانكار على معاوية لسوء سيرته ، وتصرفه بأمور الأمة بما لا يتفق ونظم الإسلام ».

. « والذي أعلمه أنه عاش في زمان معاوية حينما كان والياً على الشام ، فهل تصدى الآخير له؟ ».

. « لقد استغاث معاوية بالخليفة عثمان لإخراج أبي ذر من الشام ليصفو له

الجو ، فكان نصيب أبي ذر التبعيد عن دار الهجرة ، وموته وحيداً بالربذة ».

. « وهل استطاع معاوية ايقاف فعل الآثار التي ترتبت على نشاطات أبي ذر الحركية؟ ».

ـ « لم يقض معاوية على تلك الحركة الاصلاحية التي قام بها أبو ذر ، بل توسعت بصورة أرغمته على إثاره العصبية بين القبائل ، وبث روح التفرقة بين الناس ، وبذل كل ما في وسعه في مقابلة علي وأنصاره كما تقدم ».

. « والكوفة .. كيف كان دورها مع هذه الأحداث والأزمنة؟ ».

ـ « لقد كان للكوفة التي هي أهم مراكز الإسلام ويعترف الأمويون بخطرها على الدولة ، أن تقف موقف المعارضة والانكار للاوضاع الشاذة التي ارتكبها ولاة الأمر ويترأس المعارضة الصحابي الجليل حجر بن عدي خلصاء أصحابه ، فقاموا يطالبون بالحق ، وينتصرون للعدل ، يتألمون لهجر تعاليم الإسلام والخروج على نظامه المقدس ، وينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التي ارتكبوها ، والمخالفة لأحكام الإسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم ».

. « وكيف كان موقف الولاة الأمويين؟ ».

ـ « فكان موقف أمراء الأمويين في الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث وتأنيب واستعمال طرق الاقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحولوا عن هذا الرأي ، ويسالموا معاوية ويكونوا في جملة المؤيدين لسياسته ، ولكن الأمر يزداد شدة يوماً بعد يوم ، ويكثر الناقمون ».

. « مثال على ذلك؟ ».

. « وبالأخص عندما أعلن الوالي زياد بن سمية على المنبر الزام الناس

بالبراءة من علي ابن أبي طالب وشتمه ، وهم يرون أن علياً (رض) هو بطل الإسلام وناشر دعوته ، وأ نه أقرب الناس إلى رسول الله وأشدهم تمسكاً بسيرته واحياء سنته ».

. « وولاية زياد بن أبيه ، كيف كان دورها في هذه المجريات؟ ».

. «لما ولي زياد الكوفة استقر رأيه ورأي معاوية على الوقيعة بهم ، فزوروا شهوداً . وما أكثرهم في ذلك العهد . من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر بن عدي ».

. « حجر بن عدي؟! ».

. « أجل .. فشهدوا على حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة بن الأدبر الذي كان من فضلاء الصحابة ، ومن شيعة علي عليه السلام وحضر معه حروبه وكان على كنده يوم صفين ، وعلى الميسرة يوم النهروان ، حمله زياد بأمر معاوية في إثني عشر رجلاً موثقين في الحديد ، فقتل معاوية ستة منهم ، واستحيا ستة. وأوصى حجر من حضر من أهله ، أن لا تطلقوا نيع حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً ، فإني ملاق معاوية غداً على الجادة ».

. « وأين قتل؟ ».

. « كان قتله في مرج عذراء سنة إحدى وخمسين للهجرة هو وأصحابه بما يستطيعون أن يردوا بعض الانكار عنهم ، فكانت خاتمة مطاف حياتهم في مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة ».

. «؟!».

. « وبذلك كانت الأمة قد لقيت وفي سبيل الانتصار للحق والانضمام لجانب

أهل البيت وهم أهله ، أنواع العذاب ».

. « وأهل البيت أنفسهم ، هل كان لهم أن يتعرضوا لألوان القمع والمطاردة؟ ».

ـ « بل التقتيل كذلك .. فأهل البيت أنفسهم ، كانوا في الدور الأموي : دور الارهاب والظلم ، يلاقون أشكال المصائب وصنوف الاضطهاد على أيدي تلك الفئة التي تضمر العداء لآل محمد وتحاول القضاء عليهم بكل وسيلة ، بل تلقوا منهم ضروب التهم واغروا بهم كل من هب ودب! ».

. « فللوسط الجماهيري كان الدور الفاعل في الانتصار للحكم الأموي؟ ».

ـ « لقد تزلف الناس إليهم ، بالعداء لآل محمد عليهم السلام ، وتطوع آخرون بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة ، استجابة لاقتراح معاوية ، واتباعاً لاومراه التي أصدرها بلاطه الجائر ، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلفت بيت المال مئات الآلاف من الدنانير ، وقليلاً ما يبذلون ، فإن أولئك الدجالين يبيعونهم دينهم ، وأنهم يريدون أن يجعلوا من الفارة جملاً ، ويحاولون إدخال الأسد في البيضة ».

. « وهل أعظموا في هذه الأحاديث الموضوعة أعضاء الحكم الأموي؟ ».

ـ « لقد جعلوا ممن حارب الإسلام ، هو وأبوه من قبل ، شخصية تعترف الأمة الإسلامية بأ نها شخصية روحانية طاهرة مطهرة ، تمنحه الأمة ثقتها وتنقاد له بدافع العقيدة وهذا أمر لا يكون ».

. « تقصد معاوية وأبيه؟ ».

. « أجل ، إنهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثة النبي ﷺ وتولي سلطانه ، وهو عدوه الألد ، إنهم يريدون أن يجعلوا من أبي سفيان شخصية إسلامية تتفانى في نصرة الدين ، وهو الذي لا يجهل أحد حاله ».

. « ربما يثير هذا الكلام البعض؟ ».

. « وأنت؟ ».

ـ « إنما أنا باحث عن الحقيقة ، وليس لي أن أجرأ وأتعرض لما تقدمه لي لأني قد وصلت إلى مرحلة ، لا يسعدني أبداً النظر إلى الوراء! ».

ـ « ومن هذا وذاك فإن قبول مثل هذه الأمور تحتاج إلى قوة تسيطر على العقل ، وتطفئ شعلته ، ولا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة ، فهي في الواقع أقوى من السيف ، ولذلك أصبحت لتلك المفتريات أثرها ، وطالعها الخاص ، وإذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح ، فيصبح (أمين هذه الأمة) وخصماً لأمير المؤمنين على بن أبي طالب حتى عد علي بن أبي طالب ذلك من أعظم مصائبه فقال : أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية ».

. « علي بن أبي طالب قال ذلك؟ ».

. « أجل خليفة المسلمين الراشد وخليفتهم الرابع الذي لم يقم له المسلمين أيما أهمية ، ولو سب أيما خليفة من الخلفاء الثلاثة على المنابر كما سب وشتم علي بن أبي طالب لوقع الحابل بالنابل .. والآن حينما يتم التعرض لتاريخ معاوية وأنه قد أجرى سنة سب وشتم الخليفة الراشد الرابع. لم يكن من أحد أن يحرك ساكناً ولا حتى قلماً أو مبضع فكر يجس في خلاله منطق الضمير الإسلامي ، ويحرك عبره سكنات الحس الإنساني .. بل يمكن أن يصبح الحديث عن معاوية والتطرق إليه ، يلحق السوء بمبادئ الإسلام وشرف وعزة الحكم الالهي في

أرضه .. ونسوا وتناسوا أن كرامة الخليفة الرابع قد انتهكت .. وكيف أن حروب الردة أيام الخليفة الأول مسحت على كافة الخارجين على حكومة أبي بكر لون الاستكبار والعصيان بينما لا يمكننا أن نلاحظ مثل ذلك على الخوارج الذين خرجوا على حكومة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب .. وما أكثرهم .. فهم الخوارج في حرب الجمل والخوارج في معركة صفين والخوارج في وقعة النهروان .. وإلا فإنهم أجمع خوارج .. كما خرج المرتدين حسب الادعاء أيام أبي بكر ».

. « حسب الادعاء ».

ـ « أقول ذلك .. وستعلم في حينه أو لربما حملت إليك الأيام لوناً من ألوان العلم بذلك لأن بعض الذين أعلن عنهم كذلك أيام الخليفة أبي بكر .. كانوا قد أعلنوا أنهم لا يبايعون إلا من أقرت به آيات القرآن وصادر على ولايته وحكمه رسول الله .. وعليه .. فلقد أصبح أبو سفيان ».

. « انتظر ».

. « قلت لك ستأتيك الأيام بطائفة من معالم هذا الموضوع ، وذلك في وقت آخر .. ولو كنت قد حزت على بعضه ، فإنها ستأتيك بالمزيد منه لاحقاً .. وبذلك فلقد أصبح أبو سفيان ، بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلماً صحابياً له مكانته ومناقبه ».

. « أسألك .. ما هو وضع عم الرسول وأبي علي الإيماني .. أبو طالب؟ ».

ـ « أبو طالب هو مؤمن قريش وناصر الإسلام الأول ، وحامي دعوته ومن بذل جهده لنصرة دعوة الحق ، وتفانيه بالدفاع عن محمد ﷺ بدافع العقيدة والعاطفة وموجات الحق ، تردد أناشيده وترسمها على لوحة الخلود :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا »

. « وإذن؟! ».

ـ « لقد ساند النبي ﷺ في دعوته ، وبذل أقصى جهده في حمايته ، وأعز الله جانبه فيه ، وألجم أعداءه عن مقابلته ».

. «فكيف يسمى كافراً ».

. « وأنا الآخر أسأل ».

ـ «فكيف يسمى كافراً ولا ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وتذهب أتعابه سدى وتسند إليه كلمة الكفر؟! ».

. « هل تقصد أن السبب ».

. « أجل ، وما ذلك كله ، إلا رغبة لنوال من لا رغبة له ، إلا أن ينال من ولده علي ، وارث حكومة الرسول. فيحاول أن يخمل ذكره ».

. « فكان ثمة دور لا يستهان به لمعاوية في ذلك؟ ».

ـ «كان له كل الدور الخطير الذي ساهم في إحيائه الظالمون من بعده ، لأ نه ما كانت لترضى نفس ابن ابي سفيان ان تكون لعلي تلك السلسلة الطاهرة التي لم تنجسها الجاهلية بارجاسها ، وهو والرسول الأعظم ركيضا رحم رضيعا لبن ».

. « وتمكن من ذلك؟ ».

. « إن معاوية نفسه ليعلم من هو وابن من ، ولكنه تمكن بمكره وخداعه ، جلب ما استطاع بخيله ورجله ، في تركيزه هذه الفكرة ».

. « وما ذنب أبي طالب ».

. « إنه لا ذنب له إلا أنه لم يبق في كنانته سهما ، إلا وكان قد رماه في نصرة الدين ».

. «ولكن علياً هو سبب تلك المؤاخذات المفتعلة على أبي طالب ».

. « هل ترى غير ذلك؟ ».

. « وما ذنب علي عليه السلام ؟ ».

ـ « إلا لأ نه على الحق ومعاوية على الباطل ، فعداء معاوية لعلي عداوة جوهرية يستحيل تحويلها ، فهي عداوة الشر للخير والخبيث للطيب والباطل للحق والكفر للايمان ».

وعندها التفت إليه وكأني قد تنبهت إلى مسألة ، حسبت أن لي فيها هوى مؤقت .. إلا أني شعرت أني بحاجة ماسة إلى سماعها والعمل في خلال ذلك على اغتنام مثل هذه الفرصة ، ومحاولة مطالبة عمر بن الحاج أحمد الدباغ بها .. الآن الآن! فقلت له :

. « هل لك أن تطلعني على مجموعة من السنن المؤيدة للنصوص من الأخبار المروية من طرق أهل السنة؟ ».

فقال :

. « سأزودك بالمزيد منها .. فأولها : قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو آخذ بضبع علي : « هذا إمام البررة ، قاتل الفجرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله ثم مد بها صوته » [1].

. « والثاني؟ ».

ـ « قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أوحي الي في علي ثلاث : أنه سيد المسلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين » [2].

---

(١) المستدرك ٣ : ١٢٩ ، كنز العمال ٦ : ١٥٣ ح٢٥٢٧.

(٢) المستدرك ٣ : ١٣٨ ، كنز العمال ٦ : ١٥٧ ح٢٦٢٨.

ـ « أما الثالث : فقوله ﷺ : « أوحي الي في علي أنه سيد المسلمين ، وولي المتقين ، وقائد الغر المحجلين » [1].

. « والرابع؟ ».

. « قوله ﷺ ، لعلي : «مرحباً بسيد المسلمين وإمام المتقين ، أخرجه ابو نعيم في حلية الاولياء » [2].

. « والخامس؟ ».

. « قوله ﷺ : « أول من يدخل من هذا الباب إمام المتقين ، وسيد المسلمين ، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيين ، وقائد الغر المحجلين ، فدخل علي فقام إليه مستبشراً ، فاعتنقه وجعل يسمح عرق جبينه ، وهو يقول له : « أنت تؤدى عني ، وتسمعهم صوتي ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي » [3].

. « والسادس؟ ».

ـ « قوله ﷺ : « إن الله عهد إلي في علي أنه راية الهدى ، وإمام أوليائي ، نور من أطاعني ، وهو الكلمة التي الزمتها المتقين ، الحديث » [4].

. « والسابع؟ ».

. « أما السابع فهو قوله ﷺ ، وقد أشار بيده إلى على : « إن هذا أول من آمن بي ، وأول من يصافحنى يوم القيامة ، وهذا الصديق الاكبر ، وهذا فاروق

---

(١) كنز العمال ٦ : ١٥٧ ح٢٦٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٤٥٠ ، كنز العمال ٦ : ١٥٧ ح٢٦٢٧.

(٣) أبو نعيم في الحلية ، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢ : ٤٥٠.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي بزرة الأسلمي ، وأنس بن مالك ، ونقله المعتزلي في شرح النهج ٢ : ٤٤٩.

هذه الأمة ، يفرق بين الحق والباطل ، وهذا يعسوب المؤمنين ، الحديث » [1].

. « والثامن؟ ».

. « قوله ﷺ : يا معشر الأنصار إلا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً ، هذا علي فأحبوه بحبي ، وأكرموه بكرامتي ، فإن جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل. أخرجه الطبراني في الكبير » [2].

ـ «فانظر كيف جعل عدم ضلالهم مشروطاً بالتمسك بعلي ، فدل المفهوم على ضلال من لم يستمسك به ، وانظر أمره إياهم أن يحبوه بنفس المحبة التي يحبون بها النبي ، ويكرموه بعين الكرامة التي يكرمون النبي بها ».

. « وإذن؟ ».

ـ « وإذن ، فإن كل هذا ليس إلا لكونه ولي عهده ، وصاحب الأمر بعده ، وإذا تدبرت قوله : « فإن جبرائيل أمرني بالذى قلت لكم عن الله ، تجلت لك الحقيقة ».

. « والتاسع؟ ».

. « قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب » [3].

. « وكيف كان طعنهم؟ ».

---

(١) الطبراني في الكبير ، والبيهقي في سننه ، كنز العمال ٦ : ١٥٦.

(٢) كنز العمال ٦ : ١٥٧ ح٢٦٢٥ ، شرح النهج للمعتزلي ٢ : ٤٥٠.

(٣) الجامع الصغير للسيوطي : ١٠٧ ، المستدرك ٣ : ٢٢٦ ، وافرد الإمام أحمد بن محمد بن الصديق المغربي لتصحيح هذا الحديث كتاباً أسماه (فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي).

ـ « لقد نظرت في طعنهم ، فوجدته تحكما لم يدلوا فيه بحجة ما ، غير الوقاحة في التعصب كما صرح به الحافظ صلاح الدين العلائي ».

. « وكيف؟ ».

. « حيث نقل القول ببطلانه عن الذهبي وغيره ، فقال : ولم يأتوا في ذلك بعلة قادحة سوى دعوى الوضع دفعا بالصدر ».

. « والعاشر؟ ».

. « قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا دار الحكمة وعلى بابها » [1].

. « والحادي عشر؟ ».

ـ « قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « على باب علمي ، ومبين من بعدى لأمتي ، ما أرسلت به ، حبه إيمان ، وبغضه نفاق. الحديث » [2].

. « والحديث الثاني عشر؟ ».

. « أما هذا فقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي : « أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي » [3].

. « والثالث عشر ».

. « قوله صلى الله عليه وآله وسلم ،فيما أخرجه الدار ابن السماك عن ابي بكر مرفوعاً : « علي مني بمنزلتي من ربي » [4].

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه ، وابن جرير ، كنز العمال ٦ : ٤٠١ وقال : قال ابن جرير : هذا خبر عندنا صحيح سنده.

(٢) كنز العمال ٦ : ١٥٦ عن الديلمي.

(٣) المستدرك ٣ : ١٢٢ ، كنز العمال ٦ : ١٥٦.

(٤) الصواعق المحرقة : ١٠٦.

. « والحديث الرابع عشر؟ ».

ـ « قوله ﷺ ، فيما أخرجه الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس مرفوعاً : « علي بن أبي طالب باب حطة ،من دخل منه كان مؤمناً ،ومن خرج منه كان كافراً » [1].

. «و الآخر؟ ».

ـ « قوله ﷺ ، يوم عرفات في حجة الوداع : « علي مني وأنا من علي ، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي » [2].

. « والحديث السادس عشر؟ ».

. « قوله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني عصى الله ، ومن أطاع عليا فقد أطاعني ،ومن عصى علياً فقد عصاني » [3].

. « والذي يليه؟ ».

. « قوله ﷺ : « يا علي من فارقني فقد فارق الله ، ومن فارقك فقد فارقني » [4].

. « والثامن عشر! اسمعني إياه؟ ».

. « هو قوله ﷺ ، في حديث أم سلمه : من سب علياً فقد سبني » [5].

---

(١) كنز العمال ٦ : ١٥٣.

(٢) سنن ابن ماجه ١ : ٩٢ ، والترمذي والنسائي في سننهما ، وكنز العمال ٦ : ١٥٣ ، مسند أحمد ٤ : ١٦٤.

(٣) المستدرك ٣ : ١٢١ وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٤) المستدرك ٣ : ١٢٤وقال : صحيح الإسناد ولم يخر جاه.

(٥) المصدر السابق ٣ : ١٢١ وصححه الذهبي في التلخيص ، مسند أحمد ٦ : ٣٢٣ ، الخصائص للنسائي : ١٧.

. « والحديث التاسع عشر؟ فما هو؟ ».

ـ « أما هذا فهو قوله ﷺ: من أحب علياً فقد أحبني ، ومن أبغض علياً فقد أبغضني » [1].

. « وهل ثمة مثل هذا الحديث؟ ».

. « ومثله قول علي فيما أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ص ٤٦ من الجزء الأول من صحيحه وروى ابن عبد البر مضمونه في ترجمة علي من الاستيعاب عن طائفة من الصحابة. وقد تواتر قوله ﷺ : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، » كما اعترف بذلك صاحب الفتاوى الحامدية في رسالته الموسومة بالصلاة الفاخرة في الأحاديث المتواترة ».

. « ماذا قال؟ ».

. « قال : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ ، لا يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق ».

. « أووه .. والحديث الآخر؟ ».

. « أما هذا ، فهو قوله ﷺ : « يا علي أنت سيد في الدنيا ، وسيد في الآخرة ، حبيبك حبيبي ، وحبيبي حبيب الله ، وعدوك عدوي وعدوي عدو الله ، والويل لمن أبغضك من بعدي » [2].

. « والآخر؟ ».

. « قوله ﷺ : « يا علي طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك

---

(١) المستدرك ٣ : ١٣٠ واعترف الذهبي بصحته.

(٢) المستدرك ٣ : ١٢٨.

و كذب فيك » [1].

. « والحديث الآخر؟ ».

. « قوله ﷺ : « من أراد أن يحيا حياتي ، ويموت ميتتي ، ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي ، فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ، ولن يدخلكم في ضلالة ».

. « أعتقد أنا قد بلغنا وفي تسلسل الأحاديث التي أخبرتني بها إلى الحديث الثالث بعد العشرين .. أليس كذلك؟ ».

. « أعتقد كذلك؟ ».

. « وما هو؟ ».

ـ « هو قوله ﷺ : « أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب ، فمن تولاه تولاني ، ومن تولاني فقد تولى الله ومن أحبه فقد أحبني ، ومن أحبني فقد أحب الله ، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله عزوجل ».

. « وآخر يلحق به ».

ـ « قوله ﷺ : « من سره أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليتول علياً من بعد وليوال وليه ، وليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فإنهم عترتي ، خلقوا من طيتني ورزقوا فهمي وعلمي ، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي ».

. « والآخر؟ ».

---

(١) المستدرك ٣ : ١٣٢.

ـ « قوله ﷺ : « من أحب أن يحيا حياتي ، ويموت ميتتي ، ويدخل الجنة التي وعدني ربي ، وهي جنة الخلد ،فليتول علياً وذريته من بعده ، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم باب ضلالة ».

. « ».

ـ « أما الآخر فهو قوله ﷺ : «يا عمار إذا رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس واديا غيره فاسلك مع علي ، ودع الناس ، فإنه لن يدلك على ردي ولن يخرجك من هدى » [1].

. « والذي بعده؟ ».

. « قوله ﷺ ، في حديث أبي بكر : « كفى وكف علي في العدل سواء » [2].

. « وهل هناك المزيد من الأحاديث والروايات؟ ».

. « لا شك في هذا ، فهاك قوله ﷺ : « يا فاطمة أما ترضين أن الله عز وجل ، اطلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين ، أحدهما أبوك ، وآخر بعلك » [3].

. « وغيره؟! ».

. « قوله ﷺ : « أنا المنذر ، وعلي الهاد وبك يا علي يهتدي المهتدون من بعدي » [4].

. « وقوله ﷺ : «أنا وهذا ، يعني علياً ، حجة على أمتي يوم القيامة » [5].

---

(١) كنز العمال ٦ : ١٥٦.

(٢) كنز العمال ٦ : ١٥٣.

(٣) المستدرك ٣ : ١٢٩.

(٤) كنز العمال ٦ : ١٥٧.

(٥) كنز العمال ٦ : ١٥٧.

. « وآخر غير هذه كلها؟! ».

ـ « قوله ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه ، وإلى آدم في علمه ، إلى إبراهيم في حمله ، وإلى موسى في فطنته ، وإلى عيسى في زهده ، فلينظر إلى علي بن أبي طالب » [1].

. « والحديث الذي يلحق بهذا؟ ».

. « قوله ﷺ : « السبق ثلاثة : السابق إلى موسى ، يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى ، صاحب ياسين والسابق إلى محمد ، علي بن أبي طالب ».

. « أي رقم وصلنا إليه مع هذه الأحاديث؟ ».

ـ « لا أدري ، ولكن هاك هذا الآخر ، وهو قوله ﷺ : « الصديقون ثلاثة : حبيب النجار ، مؤمن آل ياسين ، قال : ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ ، وحزقيل ، مؤمن آل فرعون ، قال : ﴿ **أتقلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾ ، وعلي بن أبي طالب ، وهو أفضلهم » [2].

. « هل هناك أخبار أخرى؟ ».

. « قوله ﷺ لعلي : « إن الأمة ستغدر بك بعدي ، وأنت تعيش على ملتي وتقل على سنتي ، من أحبك أحبني ، ومن أبغضك أبغضني وأن هذه ستخضب من هذا ، يعني لحيته من رأسه » [3].

. « هات الآخر؟ ».

. « قوله ﷺ : « إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على

---

(١) البيهقي في سننه ، شرح النهج للمعتزلي ٢ : ٤٤٩ ، التفسير الكبير للرازي ٢ : ٢٨٨.

(٢) الصواعق المحرقة : ٧٤.

(٣) المستدرك ٣ : ١٤٧ وصححه ووافقه الذهبي.

تنزيله ، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر قال أبو بكر : أنا هو؟ قال : لا ، قال عمر : أنا هو؟ قال : لا ،ولكن خاصف النعل يعني علياً ، قال أبو سعيد الخدري : فأتيناه فبشرناه ، فلم يرفع به رأسه كأنه قد كان سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » [1].

ـ « ونحوه حديث أبي أيوب الأنصاري في خلافة عمر : « أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ». وحديث عمار بن ياسر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي ستقاتلك الفئة الباغية ، وأنت على الحق فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني » ، وحديث أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « والذي نفسي بيده ، إن فيكم لرجلاً يقاتل الناس من بعدي على تأويل القرآن ، كما قاتلت المشركين على تنزيله ».

. « أما الأخير ».

. « أووه أزفت النهاية ووصلنا إلى مفترق الطرق ...

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي أخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي ، وتخصم الناس بسبع؟ أنت أولهم إيمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، أقسمهم بالسوية ، وأعدلهم في الرعية ، وأبصرهم بالقضية وأعظمهم عند الله مزية » [2].

---

(١) المستدرك ٣ : ١٢٢ ، مسند أحمد ٣ : ٣٣ ، كنز العمال ٦ : ١٥٥.

(٢) كنز العمال ٦ : ١٥٦.

الفصل الحادي والعشرون

هل أوصى الرسول أم لم يوص

كنت أطوع النفس على قبول أئمة الشيعة ، فودعتها تصير مطواعة حتى بدأت أجلها أكثر ومن ذي قبل ، وذلك حينما اكتشفت مقدار صبرها ، وفيض هدأتها ، وبدأت أعودها على الرضى بهذه ، وذلك ريثما تأتي مسائل أعظم ، فإني كنت قد عودتها على احتمال سابقاتها ، وإذا به يلوح لي إنها تقوى على تحمل الأصعب منها والتنازل عن شيء وأشياء من غروها لقاء أن تحفل بمعان من أطيب الملامح وترتشف من لدن معين العلوم وغدير المعارف التي جعلت منها تحياها و تعيشها كما جعلت ذهني يعيش أيام التاريخ ، وكأني أنقلب زمان الأئمة الأربعة أو في عصر ما قبل صدر الإسلام ، وأيام الدعوة أو في أيام الدولة الأموية. بينما جعلت أحتمل أسئلة وأخرى ، كنت أجدها تنشب مخالبها في لحمي من قبل أن أنشب أظفار عقلي ومخالب ذهني في رحى أحشائها وعوالق بطونها .. فلم لم يوحي رسول الله لمن بعده؟ فلم لم يعين حاكماً يأتي وراءه؟ ولم كان لأبي بكر وعمر وعثمان أن يفطنوا إلى مثل هذا الأمر حتى كان لابنته عائشة هي الأخرى أن تتميز ضرورة مثل هذه الوصية ، فتبعث إلى عمر بن الخطاب قبيل وفاته لتذكره بعدم ترك أمة محمد كالغنم ومن دون راعي .. وهل كان الرسول لا يفهم فلسفة الوصية؟ وإذن فإن ديننا يحمل في قبالة كافة أديان العالم نقاط ضعفها ، لا يمكن أن سيدها أعظم عمالقة

علماء الأزهر ولا بغداد .. فأين وصية محمد؟ وهل كان له أن يقيم دينه الله ، ويدع أمته دون راع ، ليتقاسموا إرثه ومن بعدها ، في سقيفة بني ساعدة ، يكادون يحطموا أجساد بعضهم البعض حتى كأنهم أرادوا أن يعودوا إلى أيام ما قبل الإسلام ، لتحكمهم مقومات الحياة الجاهلية ، وأن الحكومة لا يتولاها سوى أقرب العشائر إلى الحاكم السابق ، والا فعلنا كذا وكذا؟. وهم الذين ما كانوا ليجدوا أن الدين المحمدي قد جاء ليفرز أواصر القبيلة ، أو سيؤكد على أن الحكم يلتزم عدم الخروج من حدود نطاق القبيلة والعشائرية أو الطائفية .. فكيف كان لهم أن ينبروا بقول مثل هذه الأقاويل؟ وكيف كان لهم أن يتقاتلوا والرسول مسجى لم يدفن بعد .. وكيف كان للرسول أن يترك أمته كهمل النعم ، فلا يوصي ، ونعترف بذلك .اشفاقاً منا على سمعة الصحابة ، ودعماً منا لصحة حكوماتهم ، وتأييداً تثمينياً من قبلنا لكل خلافاتهم وجميع الأسباب التي توسلوابها لتصدر أمر بلاد الإسلام وحكم أمة الرسول من بعده ، وذلك على حساب سمعة هذا البطل الأخير ، والذي ظل يؤكد على أن من عمل منكم عملاً فليتمه! .. فكيف كان له أن ينسى العلم بما يقول ، فيذهب دون أن يتم رسالته .. ولقد قال له الله : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ ، فأين هي هذه النعمة ، وأين هو هذا الإكمال؟ والكل يقولون إن رسول الإسلام ما كان قد أوصى .. وكأنه قد تعمد أعمال الفتنة ، لأ نه ما اراد سواها ، وما كان له ان يجيء بأي تعليمة من اله السماء ان ما جاء به هو من عنده ..ولا كان هو بالذي ينطق إلا عن الهوى ، وما كان هو وحياً يوحى حتى ليمكن أن يمتد مثل هذا النقص والانتقاص إلى رب محمد

نفسه .. فيديننا المسيحيون واليهود على عبادتنا لمثل هذا الرب الذي لم يوح إلى رسوله بضرورة الايصاء وإعلان مثل ذلك إمام الملأ أجمع .. فهل القياصرة هم أفضل من محمد ، لأ نهم كان لهم وبعقيدتهم هذه أن يحقنوا دماء أقوامهم ، ولا يدعوهم دون أن يوصوا إلى ولدهم من بعدهم .. حتى اليهود كذلك .. فما كان لأحد إحبارهم أن يترك صومعته ، إلا بعد أن يترك من يقوم على أمرها .. وكذا يفعل اليوم أخس الحكام وأحطهم درجة من الذين يحكمون أضعف بلدان العالم ..فهل كان رسولنا بدعاً من الرسل .. ولقد أوصى إبراهيم إلى إسماعيل ، وأوصى إسماعيل إلى اسحق ، وإسحاق إلى يعقوب ..أكان رسولنا أقل شأناً من هؤلاء وهو خلاصة وزبدة الرسل قاطبة وخاتم الأنبياء جميعاً حتى كان علينا أن نرتضي بما سجله التاريخ ولا نحقق في الأمر ، ولا نبحث في الأسباب بل نقول لكل من يريد الابحار في موج عباب مثل هذه القضايا ، بأن القضية قيدت ضد مجهول ، وليس لك أن تثير الإحن ، وتنقب عن مقالع تصنع الفتن .. هذا ولو كان لمثل هذا أن يجري على حساب سمعة الرسول الذي ما أرسله الله إلا ليتم مكارم الاخلاق ، ومعاصي أخلافنا اليوم ، تنسف كل النسف ، ونظل ننادي بأننا مسلمون .. فأين هي المحمدية في يومياتنا ، وكل ما نبصره من مظاهر الحياة في البلدان الإسلامية ، مع أن الكل يدعى أن دولته تدين بالدين الإسلامي الحنيف .. فاليوم كذلك هم يريدون تبرئة ساحاتهم ونسب كل ما شط ، وضعف إلى دين محمد نفسه ، وأ نه ما كان قد تمم مكارم الاخلاق ، والا لما كانت كل هذه الملاهي والخلاعة وألوان الفساد قد تفشت بأنواع ضروب الظلم وصنوف الطغيان .. حتى صار التمسح باعتاب

الأعراف الاجتماعية في الغرب صورة بديلة عن محمد لتبرير ضعف الإسلام ، وعدم قدرته ، على أن يطال ما حققته المجتمعات الغربية ، فلو كانت الأخيرة على خطأ أو ديانتها كذلك ، فما كان لها أن تتسنم عبقريات العلوم ، وتتفنن وتبرع في مختلف مجالات التطور حتى وصلوا إلى الفضاء ، والتمسوا من لمحة الثريا ، بعد أن عبوا من بطون الثرى ، واستنفدوا معادنها ، واحاطوا بثرواتها إحاطة واسعة ، مدغمة.

نهضت من فراشي ، وأنا الذي كنت قد عزمت على النوم ، توجهت إلى خالد وطلال ، أنصرف بعدها خالد إلى شغل اضطره إلى الذهاب ، فبقي طلال وأنا أسائله :

. « لم لم يوص الرسول؟ وهل كان بدعاً من الرسل حتى نقول إنه لم يوص؟) ».

نظر إلي ، وكأ نه كان يجدني أنطق بحججه ، ومن قبل أن ينطق بها هو ، ولم يرغه ما وجدني عليه ، وكأنه قد مر بمثل هذه المراحل هو الآخر ومن قبل.

تابعت حديثي وأنا أقول :

ـ « أنا لم أسمع عن شيء اسمه الوصية ، فإن كان لك منها إفاضات ، فهاتها كيما أغتنم العب منها؟ ».

نظر إلي بامعان ، وشرع يسهب في الكلام ، كأنه عزم على أن لا ينطلق حتى يضمن إذعاني له بالتالي ، قال :

. « سأزودك بنصوص ربما لم تسمع بها لليوم ، لإنك لم تتفقد كتب أهل السنة ».

. « كيف تقول هذا؟ ».

ـ « إنك لم تتفقد كتبكم بالشكل الذي يسمح لك باستيعاب مسألة الوصية .. والمصادرة عليها بأنها قضية مبدئية بديهية صودق عليها في السماوات العلى ».

. «؟!».

. « أما نصوص الوصية فهي متواترة ، وحسبك مما جاء من طريق أهل السنة ، قول النبي ﷺ ، وقد اخذ برقبة علي : « هذا أخي ووصيي ، وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ... » وأخرج محمد بن حميد الرازي ، عن سلمة الأبرش ، عن ابن إسحاق عن أبي ربيعة الأيادي ، عن ابن بريدة ، عن أبيه بريدة ، عن رسول الله ﷺ : « لكل نبي وصي ووارث ».

وهنا جعل ينظر إلي بدقة ، وكأ نه يوصيني بالانصياع لبداهة الأمور قبل الدخول في مضامير البحث والدراسة.

. « .. وإن وصيي ووارثي علي بن أبي طالب ».

. « من أورد هذا الحديث؟ ».

ـ « هذا الحديث ، .. أورده الذهبي في أحوال شريك من ميزان الاعتدال كذب به ، وزعم أن شريكاً لا يحتمله ».

. « وماذا قال؟ ».

. « وقال : إن محمد بن حميد الرازي ليس بثقة ».

. « ولماذا تخبرني بالحديث ، ثم تضعفه؟ ».

. « إني أطرح عليك الحقائق كما يقال عنها ، وسأجيبك بما يشفي الغليل .. إني لا أريد اقناعك عنوة ، ولكني أريدك أن تسترسل على سجيتك من دون أيما إغراء أو إهمال! ».

. « بينما قال الجوال : إن الإمام أحمد بن حنبل والإمام أبا القاسم البغوي

والامام ابن جرير الطبري وإمام الجرح والتعديل ابن معين وغير هم من طبقتهم ، وثقوا محمد بن حميد ورووا عنه ، فهو شيخهم ومعتمدهم كما يعترف به الذهبي ».

. « نفس الذهبي؟! ».

. « أجل ، هو يعترف بذلك ».

. « أين؟ ».

. « في ترجمة محمد بن حميد من الميزان ».

. « هكذا إذن ».

ـ « ولهذا ، ما عليك إلا أن تتبين الكلام المقول بفعل التأثيرات المحيطة بالمرء أو بانعكاس الآثار النفسية على بعض المؤرخين والعلماء .. حتى يمكنك أن تخرج بنتيجة حسنة ، ليس فيها أيما إسراع في الحكم والخروج بنظرة مضطربة ليس فيها أيما فائدة بل ربما حملت اضراراً بليغة .. لا تستبان آثارها في الحال! ».

. « بينما يستدرك الجوال حديثه ، فيقول : ».

ـ « والرجل ممن لم يتهم بالرفض ولا بالتشيع ، وإنما هو من سلف الذهبي فلا وجه لتهمته في هذا الحديث ».

ـ « وأخرج الطبراني في الكبير بالاسناد إلى سلمان الفارسي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن وصيي وموضع سري ، وخير من أترك بعدي ، ينجز عدتي ، ويقضي ديني ، علي بن أبي طالب ».

ـ « وهذا الحديث بلفظه وسنده ليعد الحديث ٢٥٧٠ من أحاديث كنز العمال في آخر صفحة ١٥٥ من جزئه السادس ، وأورده في منتخب الكنز ،

فيمكنك أن تراجع من المنتخب ما هو مطبوع في هامش ص ٣٢ من الجزء الخامس من مسند أحمد ».

. «؟!».

ـ « وهذا نص في كونه الوصي ، وصريح في أنه أفضل الناس بعد النبي ، فيه من الدلالة الالتزامية على خلافته ، ووجوب طاعته ، ما لا يخفى على أولي الألباب ».

. « كما وأخرج أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء، كما في ص ٤٥٠ من المجلد الثاني من شرح النهج ، عن أنس ، قال : قال لي رسول الله (ص) : « يا أنس أول من يدخل عليك هذا الباب إمام المتقين ، وسيد المسلمين ، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيين ، .. (انتبه هنا .. يقول خاتم الوصيين) وقائد الغر المحجلين » قال أنس :

ـ « .. فجاء علي ، فقام إليه رسول الله ﷺ ، مستبشراً فاعتنقه ، وقال له : « أنت تؤدي عني ، وتسمعهم صوتي ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه من بعدي ».

. « ولقد أخرج الطبراني في الكبير بالإسناد إلى أبي أيوب الانصاري ، عن رسول الله ﷺ : قال : « يا فاطمة ، أما علمت أن الله عزوجل اطلع على أهل الأرض ، فاختار منهم أباك فبعثه نبياً ، ثم اطلع الثانية فاختار بعلك ، فأوحى إلي ، فأنكحته واتخذته وصياً » [1].

. «جميل حقاً ! ».

. «أنظر كيف أختار الله علياً من أهل الأرض كافة بعد أن أختار منهم خاتم

---

(١) كنز العمال ٦ : ١٤٣ ح٢٥٤١.

أنبيائه ، وأنظر إلى أختيار الوصي وكونه على نسق أختيار النبي ، أنظر كيف أوحى الله إلى نبيه أن يزوجه ويتخذه وصياً ، وأنظر هل كانت خلفاء الأنبياء من قبل إلا أوصياءهم ».

. «؟!».

. « وهل يجوز تأخير خيرة الله من عباده ووصي سيد أنبيائه ، وتقديم غيره عليه ، وهل يصح لأحد أن يتولى الحكم عليه ، فيجعله من سوقته ورعاياه؟ ».

جعلتني هذه الأسئلة أطرح في دوامة هائلة .. تصورت أنه ليس بميسوري الفكاك من ربقتها أبداً .. بينما أخذ صوته يتدفق أكثر فأكثر ويتعاظم في ذاكرتي ورأسي :

. « .وهل يمكن عقلاً أن تكون طاعة ذلك المتولى واجبة على هذا الذي اختاره الله كما أختار نبيه؟ ».

. « بدهتني أسئلة كثيرة تجاوزت حدود استفسارات رفيقي الاستنكارية .. حتى صرت أكره ما سلف من إيامي .. كيف تقضت وأنا لم أكن أفكر مثلما أفكر اليوم! ».

ـ « .. وكيف يختاره الله ورسوله ثم نحن نختار غيره ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾ ».

ـ « وإذن فالطاعة لله وحده ، وما كان خارج حدود هذا فهو يخرج إلى حدود الشيطان .. (لقت ذلك في نفسي وأنا أحاول أن أراجع حساباتي جميعاً .. بل قررت كذلك) ».

. « .. وقد تضافرت الروايات أن أهل النفاق والحسد والتنافس لما علموا أن

رسول الله ﷺ ، سيزوج علياً من بضعته الزهراء . وهي عديلة مريم سيدة نساء أهل الجنة . حسدوه لذلك وعظم عليهم الأمر ، ولا سيما بعد أن خطبها من خطبها فلم يفلح ».

. « هل يمكن أن تدعم ذلك بحديث أو رواية؟ ».

ـ « وكيف لا! فلقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس ، قال : « جاء أبو بكر وعمر يخطبان فاطمة إلى النبي ،فسكت ولم يرجع اليهما شيئاً ، فانطلقا إلى علي ينبهانه إلى ذلك » [1].

. « وإذن ، فقد تقدم إلى خطبتها كل من الصحابيين : أبي بكر وعمر بن الخطاب ، ولم يوفقا .. إلى ذلك ».

. « أجل! لم يقبل بهما رسول الله ».

. « وما معنى هذا؟ ».

. « ماذا ترى أنت؟ ».

ـ «أرى أن من لا يصلح زوجاً لفاطمة وبعدم رضى ً من أبيها .. ربما صلح للخلافة .. لأن السياسة غير الحياة الزوجية ».

. « وإذا ثبت أن الزواج من فاطمة هو زواج إلهي .. قائم على أسس وآمال إلهية .. فلما ليس لنا أن نفترض المساعي الإلهية لا تتصل بالسياسة الإلهية .. ما كان لنا أن نفترض خلو هذا الزواج الإلهي من دون أيما إرادة إلهية في دوام الخلافة الإلهية في أرضه عبر نسل فاطمة الزهراء ».

. « وإذن ».

---

(١) الصواعق المحرقة : الباب الحادي عشر.

. « وإذن ، البقية ستلحق بذهنك حالما تنتبه إلى آمال أكبر تنزع بالجنس البشري إلى افتراش سيب الفيوض النبوية والتمسك بأهداب الالتحاف بالشعاعات الإلهية! ».

. « والآن ، هل لك في أن تزيدني؟ ».

ـ « عن علي ، قال : خطب أبو بكر وعمر فاطمة إلى رسول الله ، فأبى ﷺ عليهما ، قال عمر : أنت لها يا علي » [1].

. « وأنت ، ما هي نظرتك حيال فحوى ومضمون مثل هذه الأخبار؟ ».

. « أما الآن ، فما عليك بما أنظر أنا ، وأنظر أنت بنفسك وحاول أن تقيم لعقلك سعة من القدر أكثر مما يمكن أن تقيمها لعقول الرجال من غيرك وفكر أنت فيما قاله الآخرون .. وأنصف من نفسك وأحكم عليه بالعدل والإحسان؟! ».

. « وماذا قال الآخرون؟ ».

. « قالوا : إن هذه ميزه يظهر بها فضل علي ، فلا يلحقه ، بعدها لاحق ، ولا يطمع في إدراكه طامع ، فاجلبوا بما لديهم من ارجاف ،وعملوا لذلك أعمالاً ، فبعثوا نساءهم إلى سيدة نساء العالمين ينفرنها ، فكان مما قلن لها : إنه فقير ليس له شيء ، لكنها عليها السلام لم يخف عليها مكرهن ، وسوء مقاصد رجالهن ».

. « وإذن، كانت قد تنبهت إلى ما يرمون إلى صنعه؟ ».

. « أجل ، فإنها ، ومع كل ذلك ، لم تبد لهن شيئاً يكرهنه ، حتى تم ما أراد الله عز وجل ورسوله لها ».

---

(١) كنز العمال ٦ : ٣٩٢ ، كما أخرجه ابن جرير ، وصححه وأخرجه الدولابي في الذرية الطاهرة.

. « وما الذي فعلته بعد ذلك؟ ».

. « وحينئذ أرادت أن تظهر من فضل أمير المؤمنين ما يخزي الله به أعداءه فقالت وكأنها تريد أن تستزيد من فضل أمير المؤمنين مع درايتها بفضله العظيم وقدره الإلهي ، وهي التي ما كانت لتخفى عليها سبحات الوحي وأنفاسه ، إذ كانت تجري وتنسرب في بيتها .. بيت أبيها رسول الله وتحضر حضور الوحي جبرئيل وتسكن إلى نفحات الرب الجليل : يا رسول الله زوجتني من فقير لا مال له؟ فأجابها صلى الله عليه وآله وسلم ، بما سمعت ».

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

ـ « كما أخرج الخطيب في المتفق بسنده المعتبر إلى ابن عباس ، قال : لما زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة من علي ، قالت فاطمة : يا رسول الله زوجتني من رجل فقير ليس له شيء ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أما ترضين أن الله اختار من أهل الأرض رجلين ، أحدهما أبوك ، والآخر بعلك ».

ـ « وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما ترضين أني زوجتك أول المسلمين إسلاماً وأعلمهم علماً ، وأ نك سيدة نساء أمتي، كما سادت مريم نساء قومها ، أما ترضين يا فاطمة أن الله اطلع على أهل الأرض فاختار منهم رجلين ، فجعل أحدهما أبوك والآخر بعلك » [1].

. « جميل! ».

. « وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا إذا الم بسيدة النساء من الدهر لم يذكرها بنعمة الله ورسوله عليها ، إذ زوجها من أفضل أمته ، ليكون ذلك عزاء لها وسلوة

---

(١) كنز العمال ٦ : ١٥٣.

عما يصيبها من طوارق الدهر ،وحسبك شاهداً لهذا ما أخرجه الإمام أحمد في ص ٢٦ من الجزء الخامس من مسنده من حديث معقل بن يسار أن النبي ﷺ عاد فاطمة في مرض أصابها على عهده ، فقال لها: كيف تجدينك ، قالت : والله لقد أشتد حزني ، وأشتدت فاقتي وطال سقمي ، قال ﷺ : «أو ما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حلماً ».

. « وإذن فالروايات كثيرة؟ ».

. « بالتأكيد فإن الأخبار في ذلك متضافرة لا تحتملها نقاشاتنا هذه! ».

بعدها انتبهت إليه ، وأنا أقول :

. « أريد أن أخبرك بشيء .. إن أهل السنة والجماعة ينكرون الوصية محتجين بما رواه البخاري في صحيحه عن الأسود ، قال : ذكر عند عائشة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ أوصى إلى علي ».

قاطعني قائلاً :

. « أين أخرجه البخاري .. أقصد هذا الحديث؟ ».

ـ « هذا الحديث ، أخرجه البخاري في كتاب الوصايا ص ٨٣ من الجزء الثاني من صحيحه ، وفي باب مرض النبي ووفاته ص ٦٤ من الجزء الثالث من الصحيح ».

. « ولا شك أنك ستخبرني أن مسلم هو الآخر قد أخرجه في صحيحه؟ ».

ـ « بالضبط! فلقد أخرجه مسلم في كتاب الوصية ص ١٤ من الجزء الثاني من صحيحه ».

. « أكمل الحديث؟ ».

فقلت :

. « إن النبي ﷺ أوصى إلى علي رضي الله عنه ، فقالت : من قاله؟ لقد رأيت النبي وإني لمسندته إلى صدري فدعا بالطست فأنخنث فمات ، فما شعرت : فكيف أوصى إلى علي ».

عندها نظر إلي ، وهو يرشف آثار ابتسامة تساقطت آثارها على وجهه الذي غدا يمطر حالة من الأسف الحزين المشوب بشيء من التفكه ، فقال :

ـ « قد تعلم أن الشيخين رويا في هذا الحديث : وصية النبي إلى علي وذلك من حيث لا يقصدان ، فإن الذين ذكروا يومئذ أن النبي أوصى إلى علي لم يكونوا خارجين من الأمة ، بل كانوا من الصحابة أو التابعين الذين لهم الجرأة على المكاشفة بما يسوء أم المؤمنين ويخالف السياسة في ذلك العهد ».

. « ماذا تقصد؟ ».

. « دعني أكمل لك ما أريد قوله! .. ولذلك ارتبكت رضي الله عنها ، عندما سمعت حديثهم ارتباكاً عظيماً يمثله ردها عليهم بأوهى الردود وأوهنها ».

. « هل يمكنك أن تثبت ادعاءك هذا؟ ».

. « أجل ، فلقد قال الإمام السندي . في تعليقه على هذا الحديث من سنن النسائي ص ٢٤١ من جزئها السادس ، طبع المطبعة المصرية بالأزهر . : ولا يخفى أن هذا لا يمنع الوصية قبل ذلك ، ولا يقتضي أنه مات فجأة ».

. « هو الذي يخبر بهذا؟ ».

. « .. وهل ترى أنا الذي أخبر به؟ فلقد تابع كلامه وهو يقول : .. فجأة بحيث لا تمكن منه الوصية ولا تتصور ، فكيف وقد علم أنهعلم بقرب أجله قبل المرض ثم مرض أياماً إلى آخر كلامه ، فأمعن النظر فيه ، تجده في غاية المتانة؟ ».

. «وهل يمكنك أن تستدل على ما تقول من نفس صحيح البخاري أو مسلم؟ ».

. « سأخبرك ».

قاطعته وأنا أحاول اغتنام الفرصة ، وأكثف عليه مقدار الهجمات :

ـ « أنا الذي سأخبرك هذه المرة ، استمع إلى ما يقوله البخاري في الصحيح عنها أيضاً ، وذلك من عدة طرق ، حيث أخرج في صحيحه ،أنها كانت تقول : مات رسول الله بين حاقني وذاقني ، وكثيراً ما قالت : مات بين سحري ونحري ، وربما قالت : نزل به ورأسه على فخذي » [1].

. « انتهيت ، أم لك في الكلام أفادات أخرى؟ ».

. «لا ، لم انته بعد! أما في صحيح مسلم ، فإنه كان قد أخرج حديثاً عن عائشة ».

. « ما الذي قالته؟ ».

ـ « قالت : ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشيء. وفي الصحيحين ».

. «؟!».

. « راجع كتاب الوصايا من كل من الصحيحين ، تجد الحديث! .. وهو عن طلحة بن مصرف ، قال : سألت عبدالله بن أبي أوفى : هل كان النبي ﷺ أوصى؟ قال : لا ، فقلت : كيف كتب على الناس الوصية . ثم تركها . قال : أوصى بكتاب الله ».

---

(١) صحيح البخاري : باب مرض النبي ووفاته.

. « انتهيت؟! ».

ـ « .. وحيث إن هذه الأحاديث أصح من الأحاديث التي أوردتها لثبوتها في الصحيحين دون تلك المقدمة عند التعارض ، فإن عليها المعول ».

فقال لي :

. « أما أنا فأقول : إن وصية النبي ﷺ إلى علي لا يمكن جحودها ، إذ لا ريب في أنه عهد إليه . بعد أن أورثه العلم والحكمة . بأن يغسله ، ويجهزه ، ويدفنه [1].

وكان يقول : سلام عليك أيهاالنبي ورحمة الله وبركاته ، أعز الله عزوجل دينه ، وتمت كلمته ، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل الله إليه. ثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه ، فيقول الناس : آمين آمين ، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان ، وأول من دخل على رسول الله يومئذ بنو هاشم ، ثم المهاجرون ، ثم الانصار ، ثم الناس ، وأول من صلى عليه علي ».

. « الخبر يقول : أول من صلى عليه علي؟! ».

. «أجل! الخبر يقول أول من صلى عليه علي والعباس وقفا صفاً ، وكبرا عليه خمساً ».

. « لماذا؟ ».

. « لأ نه هو الذي يفي دينه ، وينجز وعده ، ويبرئ ذمته ».

. «؟!».

. «والأخبار في هذا كله متواترة ».

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٦١ من القسم الثاني ، كنز العمال ٤ : ٥٤ المستدرك ٣ : ٥٩ ، ١١١.

. « كما أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن قتادة : إن علياً قضى عن النبي أشياء بعد وفاته كان عامتها عدة حسبت أنه قال خمسمئة ألف درهم ، فقيل لعبد الرزاق : وأوصى إليه النبي بذلك؟ قال : نعم لا أشك أن النبي أوصى إلى علي ، ولولا ذلك ما تركوه يقضي دينه ويبين للناس بعده ما اختلفوا فيه » [1].

ـ « أما ما رواه البخاري عن ابن أبي أوفى من أن النبي ﷺ ، أوصى بكتاب الله فحق ، غير أنه أبتر ، لأ نه ﷺ ، أوصى بالتمسك بثقليه معاً ، عهد إلى أمته بالاعتصام بحبليه جميعاً ، وأنذرها الضلالة إن لم تستمسك بهما. أخبرها أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض .. ومن ثم فلم لم يتقيد الخليفة الأول والثاني والثالث بالوصية بكتاب الله (على حد زعم البخاري) ، فلم أوصوا بما أوصوا حتى خلفتهم الدولة الأموية والعباسية وكان خلفاؤها أنبه وأذكى من رسول البشرية ومنقذها .. محمد بن عبدالله ، فما كان أحدهم ليموت إلا وكان قد أوصى بخلافة المسلمين إلى من يخلفه من ولده أو إخوانه او أيما أحد اختاره ».

عندها استحوذ علي صمت غريب .. حتى غدوت كأن على رأسي الطير وأنا الذي صرت لا أحير جواباً .. بل لقد تملكني الحياء مما قال ومما كنت أقول! بعدها استجمعت شتات أفكاري ، ولازمت موقعي ، وقررت مواصلة النزال حتى أصل إلى ما يريده الله لي! فقلت له بعد أن تذكرت ما انستنيه حرارة النقاش :

ـ « إني لأراك قد وليت أم المؤمنين وأفضل أزواج النبي صفحة إعراضك ، فاتخذت حديثها ظهريا ، وتركته نسيا منسياً ، وقولها هو الفصل وحكمها هو

---

(١) كنز العمال ٤ : ٦٠ ح١١٧٠.

العدل ، ولك مع ذلك رأيك ، فاصدع به نتدبره ، والسلام ».

ـ « إن لأم المؤمنين عائشة فضلها ومنزلتها ، غير أنها ليست بأفضل أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ».

. « ماذا تقصد؟ ».

قلت ذلك بلحن كان يتوهج بشيء من القساوة.

ـ « وكيف تكون أفضلهن مع ما صح عنها إذ قالت : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، خديجة ذات يوم فتناولتها فقلت : عجوز كذا وكذا ، قد أبدلك الله خيراً منها ، قال : ما أبدلني الله خيراً منها ، لقد آمنت بي حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرمني ولد غيرها ».

. « أي حديث آخر؟ ».

. « عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ، فقد أبدلك الله خيراً منها فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي اذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء » [1].

ـ « .. ونص على تفضيلها ، فقال : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : خير نساء العالمين أربع ثم ذكرهن ، وقال : حسبك من نساء

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ١٧٥ كتاب النكاح ، باب غيرة النساء.

العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون ، إلى كثير من أمثال هذه النصوص وهي من أصح الآثار النبوية وأثبتها ».

شعرت كأني قد ألقمت حجراً ! فلم أفه أو أعلق بأيما شيء واجتزأت بتوزيع ألوان من التحديقات هنا وهناك ».

ـ «ولا يسعك إلا أن تتتبع حركات أم المؤمنين عائشة في أفعالها وأقوالها حتى تجدها كما قال رسول الله ».

. «؟!».

ـ « أما إعراضي عن حديثها في الوصية ، فلكونه ليس بحجة ، ولا تسألني عن التفصيل ».

وعندما وجدته يستخدم معي مثل هذا الأسلوب نحوت منحى الاصرار واقتفيت آثار كلامه وخاطبته بلحن يحمل مغزى ومغزى :

ـ « إنك ممن لا يدالس ولا يخادع. ، ولا يظهر غير ما يبطن ، ولا يرمي بسوء ، أو يتهم! وأنا والحمد لله ممن لا يندد ، أو يبحث عن عثرة ، أو يتتبع عورة ، إنما أقفو آثار ضالتي التي أنشدها ، فسؤالي إياك عن التفضيل مما لا يسعني تركه ، وإجابتك إياي إلى البيان مما لابد منه فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ، وأبشر وقر بذلك منك عيونا ، لأن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ».

ـ « اضطررتني إليه ، وأنت عنه في غنية تامة ، لعلمك بأنا من هاهنا أتينا ، إن هنا مشرع الوصية ، ومصارع النصوص الجلية ، وهنا مهالك الخمس والإرث والنحلة ، وها هناك الفتنة ».

. « أفدني بالنصوص؟ ».

ـ «لقد قال الله عز وجل مخاطباً نبيه الكريم : ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية**﴾ [1]. فهل كانت أم المؤمنين تراه (ص) ، لكتاب الله مخالفاً؟ وعن أحكامه صادفاً؟ معاذ الله وحاشا لله ، بل كانت تراه يقتفي أثره ، ويتبع سوره ، سباقاً إلى التعبد بأوامره ونواهيه ، بالغاً كل غاية عن غايات التعبد بجميع ما فيه ، ولا أشك في أنها سمعته يقول : ما حق إمرئ مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده ».

. «؟!».

. «ولا كأن أم المؤمنين كانت قد سمعت نحواً من هذا .. فإن أوامره الشديدة بالوصية مما لا ريب في صدوره منه ، ولا يجوز عليه ولا على غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أن يأمروا بالشيء ثم لا يأتمرون به ، أو يزجروا عن الشيء ثم لا ينزجرون عنه ، تعالى الله عن إرسال من هذا شأنه علواً كبيراً ».

. « وهل تعني من هذا كله أن رسول الله كان بحاجة إلى وصي؟ ».

ـ « لقد ترك رسول الله ﷺ من الأشياء المستوجبة للوصية ما لم يتركه أحد من العالمين ، وحسبك أنه تبرك بدين الله القويم في بدء فطرته وأول نشأته ، ولهو أحوج إلى الوصي من الذهب والفضة ، والدار والعقار ، والحرث والأنعام ، وإن الأمة بأسرها ليتاماه وأياماه المضطرون إلى وصيه ليقوم مقامه في ولاية أمورهم ، وإدارة شؤونهم الدينية والدنيوية ».

. « إذن .. فإنك تدعي استحالة وقوع مثل هذا الأمر؟ ».

---

(١) البقرة : ١٨٠.

ـ « إنه ليستحيل على رسول الله ﷺ أن يوكل دين الله . وهو مهد نشأته . إلى الأهواء ، أو يتكل في حفظ شرائعه على الآراء ، من غير وصي يعهد بشؤون الدين والدنيا إليه ، ونائب عنه يعتمد . في النيابة العامة . عليه ، وحاشاه أن يترك يتاماه . وهم أهل الأرض في الطول والعرض . كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ليس لها من يرعاها حق رعايتها ».

كنت أصدق بكل ما يقول . .ولكن صوتاً عظيماً كان يعمق صراخه في أعماقه ، يهتف بي .. أخرس أيها الأبله .. لا تطعه .. ولا تغرنك أحاديثه .. إنك لست بالأحمق حتى تذهب بتراث الأجداد في لحظة واحدة .. ترى ما الذي ستقوله لمن حولك من الأصحاب.؟ وما الذي ستخبر به أهلك فيما بعد لو شاهدوك أو أبصروك تتعبد على مذهب الشيعة.؟ انتظر! لا تسرع .. لا تعجل .. فإن في العجلة الندامة! ».

. « .. ومعاذ الله أن يترك الوصية بعد أن أوحي بها إليه ، فأمر أمته بها وضيق عليهم فيها. فالعقل لا يصغي إلى إنكار الوصية مهما كان منكرها جليلاً ».

. «؟!».

. « وقد أوصى رسول الله ﷺ ، إلى علي في مبدأ الدعوة الإسلامية ، قبل ظهورها في مكة حين أنزل الله سبحانه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .. ولم يزل بعد ذلك يكرر وصيته إليه ، ويؤكدها المرة بعد المرة بعهوده التي أشرت إلى بعضها من قبل ، حتى أراد وهو محتضر ، أن يكتب وصيته إلى علي تأكيدا لعهوده اللفظية إليه ، وتوثيقا لعرى نصوصه القولية عليه ».

. « فما الذي نطق به رسول الله ﷺ حينها؟ ».

. « لقد قال ﷺ : إئتوني اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً ، فتنازعوا ولا

ينبغي عند نبي تنازع ، فقالوا : هجر رسول الله. وعندها علم ﷺ أنه لم يبق . بعد كلمتهم هذه . أثر لذلك الكتاب إلا الفتنة فقال لهم : قوموا ، واكتفى بعهوده اللفظية ، ومع ذلك فقد أوصاهم عند موته بوصايا ثلاث : إن يولوا عليهم عليا ، وأن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأن يجيزوا الوفد بنحو ما كان يجيزه ».

. « وأين هذه الوصية .. إنها لم تصل الينا؟! ».

. « .. لكن السلطة والسياسة يومئذ ، ما أباحتا للمحدثين أن يحدثوا بوصيته الأولى ، فزعموا أنهم نسوها ».

. « أثبت ما تقول يا رفيق؟ ».

. « قال البخاري في آخر الحديث المشتمل على قولهم هجر رسول الله ، ما هذا لفظه : وأوصى عند موته بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزه . ثم قال . ونسيت الثالثة ».

. « ومسلم؟ ».

. « وكذلك قال مسلم في صحيحه ، وسائر أصحاب السنن والمسانيد ».

الفصل الثاني والعشرون

المذهب الشيعي ما بين أدوار الانتشار وأوضاع الانزجار

وبعد ثلاثة أيام كنت أواصل اجتماعي مع الطبيب وعد الدين بن المحامي بكر غالب ، فكان لي معه حوار ودي. ومن بعد أن تطرقنا إلى مشاكل الحياة وأخبار الساعة ، ومحنة الأيام ، ومقاساة الظروف ، قلت له :

. « هل لك أن تخبرني عن كيفية انتشار المذهب الجعفري؟ ».

أجابني وهو يقول :

ـ « أما انتشاره في الأقطار الإسلامية فإن المذهب الجعفري انتشر بقوة مقوماته من دون استناد إلى سلطة أو عوامل الترغيب في اعتناقه ».

. « وأين كان أول ظهور للتشيع؟ ».

. « إن أول ظهور الشيعة كان في بلد الحجاز ، وهو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع ».

. « وأين في الحجاز؟ ».

ـ « في المدينة المنورة في القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة ، وقد عظم ذلك على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت ».

. « مثل من؟ ».

. « كابن حزم! ».

. « كيف علمت بهذا؟ ».

. « فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها ».

. « المصدر؟ ».

. « النبذ في أصول الفقه الظاهري لابن حزم نفسه ».

. « أووه! ».

. « كما انتشر التشيع في الشام ».

. « من الذي نشره هناك؟ ».

. « كان أبو ذر الغفاري هو الذي نشر المذهب هناك ، ولا يزال في قرية الصرفند بين صيدا وصور مقام معروف باسم أبي ذر اتخذ مسجداً معموراً ».

. « إنه لأمر هائل! ».

ـ « وهم اليوم عدد كثير اشتركوا في إدارة البلاد وشغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا ، ومنهم التجار والأطباء ، ولهم مركز مهم هناك ، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علناً في عاصمة الأمويين ».

. « وهل يحضرها كثير من أهل السنة؟ ».

. « نعم ، يحضرها كثير منهم ».

. « وما الذي يعلنه الخطيب على المسامع؟ ».

. «إن الخطيب ليفصح بمخازي معاوية ويزيد وبني أمية ، مستنبطاً ذلك من التاريخ الصحيح ».

ـ « أو لا يسبب مثل ذلك مضايقات للأخوة أهل السنة وعلى الأخص الحضور منهم إلى هناك؟! ».

ـ لا ، أبداً ، لأن الخطيب ينتهج منهجاً عقلياً في الطرح ، فلا يعلن لسانه عن سب ولا عن شتم .. بل يبسط مطاوي التاريخ على محط الجراحة ويعمل فيه

مبضعه أمام نواظر كافة الحضور كما يعملها الطبيب الجراح أمام تلامذته من طلبة كلية الطب ».

. «أووه ، هذا فريد حقاً ! ».

. « ويقول ابن جبير في رحلته في وصف المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس : إن الشيعة أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم ».

. « وبنظرك ، كم كان يبلغ عدد الشيعة الذين كانوا يسكنون بلاد الشام؟ ».

ـ « يقول كرد علي : وفي دمشق يرجع عهدهم (أي الشيعة) إلى القرن الأول للهجرة ، وفي أكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل ، وفي الشام من الإمامية عن مئتي ألف نسمة ».

. « أين وجدت هذا التصريح؟ ».

. « في كتاب خطط الشام لكرد علي نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ ».

. « وجبل عامل ، على وجه الخصوص ، كيف ..؟ ».

ـ «أما جبل عامل وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً ونهر الأولي شمالا ، غور الحولة وما والاها إلى أرض البقاع شرقاً ، والبحر المتوسط غرباً فقد كان بدء التشيع في جبل عامل بفضل الجهود التي بذلها المجاهد في الله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ».

. « وإذن ، فإن الفضل في انتشار التشيع يعود إلى أبي ذر الغفاري ليس غير؟ ».

. « بالتأكيد ، فإنه ما انتشر التشيع إلا بسبب من دعوته! وكانت حركة العلم واسعة حتى اليوم ، فالتشيع في لبنان منتشر بكثرة ويسير بكل نظام وهدوء ، محفوظ الحقوق ، مرعي الجانب ، ولهم في جامعة النجف الأشرف جماعة ،

وتخرج منها عدد كثير من أبطال العلم ، وحملة دعوة الاصلاح ، ومنهم المجتهدون المجاهدون في نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين ».

. « وفي سوريا؟ ».

ـ «ويقول الأستاذ كرد علي أيضاً : إن في حمص قرى للشيعة خاصة ، وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة ، وفي أعمال أدلب قرى الغوغة نبل وغيرهما ، وكلها شيعة وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب ، وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم ».

. « يوم تشتت شملهم؟ ماذا يقصد! بل إلى ماذا يشير؟ ».

. « يشير بذلك إلى الكارثة التي أصابت الشيعة عندما أفتى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا ، فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة ، وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون إلى القرى ».

. « ما أهول وأفزع ما أسمع .. إنها أمور مروعة للغاية! ».

. «حقاً ، هي كذلك ».

. « وفي حلب ، كيف كان التشيع؟! ».

ـ « ولقد غلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا أن يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية وذلك في سنة ٥١٧ هـ ».

ـ « كما سرى التشيع في إفريقيا بانتشار عظيم ، إلى أن قاومته السلطة ، يوم كان امير افريقيا المعز بن باديس ، فإنه فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً ».

. « كيف ، ولماذا؟ ».

ـ « وذلك في عام ٤٠٧ هـ فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة ، ونسبوا ذلك إلى سب الشيخين وهي المادة التي يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أي الفرق كان ».

ـ « ولماذا كل هذا الظلم وهذه الغطرسات التي لم يسمع التاريخ عنها إلا حينما غزا التتار العالم الإسلامي ومزقوا شمل أهله شر تمزيق؟ ».

ـ « وهو كذلك! أما السبب فإنه يرجع إلى أن المعز بن باديس ، كان قد مر على جماعة من الشيعة في القيروان وقد سأل عنهم ، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم ، انصرفت العامة من فورها إلى مجتمعات الشيعة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وتوجه العسكر للنهب ».

. « كل هذا لأ نهم وجدوا من المعز انصرافاً عنهم؟ ».

. « هذه فتنة كان لها أن تشتعل جمرات لهبها تحت أبسط التأثيرات .. ولقد شجعهم على فعل وصنع مثل هذه المجازر والمهالك عامل القيروان نفسه ، فقتل منهم خلق كثير ، وأحرقوا بالنار ، ونهبت دورهم ، وتتبعوهم في جميع أفريقيا ».

ـ « ما أبشع الحال ..إن الشيعة حقاً لمظلومون ..إن تاريخنا يحمل بين ثناياه الواناً من البشاعة لا يمكن أن تغسلها أو تطهرها ، ولا حتى مياه جنة عدن نفسها؟ ».

ـ « .. واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم ، فاشتد عليهم الجوع فاقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ».

. « الله أكبر .. يا للمسلمين! ».

. « .. ولجأ من بالمدينة إلى الجامع فقتلوا كلهم ».

. «هناك أيضاً حمل عليهم ، طوردوا .. وقتلوا عن بكرة أبيهم؟! ».

. « هذا ما يحمله إليك تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٢٣ ط ١ ».

ـ « وإذن فهذا تاريخ ابن الأثير يقص علينا أشنع قصص التاريخ وحكايا العصور الفائتة ».

ـ « وهذه إحدى النكبات الفظيعة التي لاقاها التشيع وما أكثرها ، ومع ذلك فإن التشيع اليوم منتشر في أفريقيا الوسطى والجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة ، وفي أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة ، للعلماء هناك اليد الطولى في نشر المذهب ، وكان منهم العلامة السيد محمد السيد بن أبي عقيل صاحب المؤلفات القيمة (كالنصائح الكافية) (العتب الجميل) و (تقوية الإيمان) و (القول الفصل) ».

. « وأين كان يقيم هذا؟ ».

ـ « كان يقيم في سنغافورا ، وكانت لهم أندية أدبية تربط أواصر بعضهم مع بعض. أما في مصر ، فقد انتشر التشيع عند انتشار الإسلام هناك ».

. « وكيف انتشر هناك؟ ».

. « وذلك بواسطة أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا فتح مصر ، وهم المقداد بن الأسود الكندي ، وأبو ذر الغفاري ، وأبو رافع ، وأبو أيوب الأنصاري ، فهؤلاء هم دعاة التشيع وأنصاره ».

. « أتقصد أن التشيع كان في مصر ومنذ أيام الخلفاء؟ ».

ـ « إنه لما دخلها عمار بن ياسر أيام عثمان دعا إلى التشيع ، ونمت روحه حتى أصبحت البلاد كلها إلى جانب علي واجمعوا على مقاومة عثمان ».

. « وإذن ، فإن الفضل في انتشار التشيع في مصر يعود إلى عمار؟ ».

. « بالفعل ، هو من الرواد في هذا المجال ، حيث إن له الباع العظيم واليد القصوى في هذا الأمر! ».

. « ومن بعد ذلك؟ ».

. «ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد والياً ، فركز دعائم التشيع هناك ، خفق لواؤه وكثرت جنوده ».

ـ « وفي أي الأزمنة إذن ، كان لمنسوب مياه التشيع أن تنخفض لتنحسر وتضعف؟ ».

. « إنه وبدخول عمرو بن العاص ، كان قد تأخر سير تلك الحركة إلى أن زال ملك الأمويين ، فأظهر المصريون ما أنطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلي بن أبي طالب ».

. « وإذن ، فإن للتشيع نوبات وحلقات متناوبة كمياه البحر بمده وجزره؟! ».

ـ « لا زال التشيع يظهر في مصر ، ويختفي! وذلك حسب العوامل التي تدعو إلى خفائه وظهوره ، وهو اليوم منتشر هناك وفيه فئات كثيرة ».

. « وفي الهند ، كيف هو حال الشيعة؟ ».

ـ « أما في الهند فقد ظهر التشيع هناك وانتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب والهنود ، وقد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعي المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة ، ومنهم جماعة كثيرة باقون إلى اليوم ، ولهم امارات في جميع الاقطار الهندية ، ولا يخلو بلد منهم ».

. « وهل هناك بلد تختص بهم دون غيرها؟ ».

. « أجل ، وأخرى يكونون الأكثرية بها ، وهي لكنهور وهي المركز الوحيد للشيعة في الهند ، وعاصمة مملكة أودة الفانية ، ومنبع علمائها قديماً . وتعد اليوم من أكبر البلاد العلمية ، وفيها مدارس عربية ».

. « ما هي هذه المدارس؟ ».

ـ « أهمها الجامعة السلطانية ، ومنها مدرسة الواعظين وهي تختص بالتبليغ. والمدرسة الناظمية وقد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية ».

. « وإذن ، فإن في لكنهور من آثار الشيعة ما هو باق إلى يومنا هذا؟ ».

. « أجل! ففي لكنهور الشيء الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات ».

. « وفي غيرها؟ ».

. « هذا مما لا شك فيه ، من مثل بلدان جانبور ، وبتن آباد ، ومظفرآباد ، ولاهور ، والبنجاب ».

. « أقول : من أين استللت كل هذا ، واقتبست نور علومه؟ ».

ـ « هذا ما وجدته في كتاب : تاريخ الشيعة ص ٢٥٨. أما في تركيا فقد انتشر المذهب بصورة محسوسة وكثر اتباعه ولكن السلطان سليم المتوفى سنة ٩٢٦ هـ قاوم الشيعة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ».

. « وثانية إلى المجازر .. لا يفتأ الظالمون يقاتلون الشيعة؟ ».

ـ « يقول إبراهيم الطبيب الأول للجيش التركي : وكان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة ، ولا سيماأنه كان في تلك الأيام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافي مذهب أهل السنة ، وكان قد تمسك بها جماعة من

الأهالي ، فامر السلطان سليم بقتل كل من يدخل في هذه الشيعة ».

. « وهل أقدموا على ارتكاب المجازر؟ ».

. « تقول : أقدموا ، فلقد أقدموا على قتل نحو أربعين ألف رجل! ».

. « قتل نحو أربعين ألف رجل؟! ».

. «ولقد أخرج شيخ الإسلام فتوى صارمة تقول : بأنه ليؤجر أيما شخص على قتل الشيعة حتى اشتهرت الحرب ضدهم ».

. « أين قرأت هذا؟ ».

. « قرأته في كتاب : مصباح الساري ونزهة القاري ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ».

. « واليوم؟! ».

. « ومع هذا فهم اليوم في تركيا عدد كثير منتشرون في أطراف البلاد. وفي السعودية : القطيف وقراها شيعة خالصة. وأما الأحساء وقاعدتها هفوف ، فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم. كما أن في قطر يوجد كثير من الشيعة ، ولا يزال من الأحساء والقطيف في النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت ، ومنهم علماء مبرزون وأدباء لهم مكانتهم الأدبية والعلمية. أما في البحرين فإن ثمة للتشيع مكانة عظيمة ، ولأهله قوة رصينة. وقد برز منه علماء خدموا الأمة الإسلامية ، بمؤلفاتهم القيمة وآثارهم الجليلة التي تعد في الواقع من أعظم التراث الشيعي ، ولهم في النجف الأشرف الآن بعثات تتلقى العلوم الدينية ، ومنهم علماء مبرزون وأدباء مشهورون. وفي الأفغان انتشر التشيع من زمن بعيد ، ويقدر عددهم اليوم بعشرة ملايين ، ويوجد منهم في النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه الجعفري ، ومنهم من يلتمس الرزق ، وقد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية. وكان قد هاجر كثير من الشيعة إلى أميركا من

السوريين ، وجبل عامل للتجارة والزراعة ، ومن قبل نصف قرن ، وينوف عددهم اليوم على خمسين ألفاً ، وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الإسلام علناً ، وقد بنوا مساجد فخمة في الولايات المتحدة وفي أميركا من الشيعة قوم من الإيرانيين والهنود وقليل من العراقيين ، ولقد عمل هؤلاء اليوم على نشر التشيع عبر تأسيس مؤسسات ومراكز للدراسات والأبحاث ..فضلاً عن توطنهم هناك واقامة المراسيم الحسينية في مختلف المراكز الشيعية التي أسست من قبلهم ولهذا الغرض ، كما دخل مذهب التشيع إلى الصين منذ القرن الرابع ولهم عدد كثير هناك حتى اليوم ، وكذلك في روسيا كان للشيعة في البلاد الروسية حرية واسعة في إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس ، وكانوا قبل الحرب العالمية عام ١٣٣٢ هـ ، يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة ، ويفدون مهاجرين لطلب العلم ، وإلى اليوم منهم جماعة في النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات لهم في بلادهم هذه السلطة الحاضرة ».

. « وكيف هي أوضاع الشيعة في العراق؟ ».

ـ « أما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت في الصدر الأول ، وقام بذلك أصحاب الرسول ﷺ في الكوفة ، والمدائن والبصرة ، وعرفت الكوفة بأنها علوية النزعة وقام رجال الدعوة في الدفاع عن أهل البيت ، وتحملوا في عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلك ، وفي المدائن ، كان سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان قد نشرا دعوة التشيع هناك ، وكذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال إلى الجنوب ، وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة ، والعراق اليوم معروف بتشيعه لأهل البيت وولائهم للعترة الطاهرة ».

. « والشيعة هم الأكثرية في العراق ، وقد قاوموا ظلم الأتراك بثورات سجلها

التاريخ بكل فخر لهم في محاربة الاستبداد ، وقاوموا الاستعمار الانكليزي ، وأعلنوا ثورة العشرين التي شيدت صرح الاستقلال الوطني ».

. « وفي إيران؟ ».

ـ « لقد كانت قم وحدها في القرن الأول شيعية ، وكان سير التشيع في إيران ثقيل الخطا وهم شيعة بني العباس ، وفيهم من يذهب إلى تقديس الأمويين ومناصرتهم ، كما أن في خراسان نواصب وغلاة في معاوية يدعون نبوته ، ولكن مذهب أهل البيت انتشر في بلاد إيران بصورة تدريجة على مر الأدوار ، حتى أصبحت إيران اليوم كلها شيعة حكومة وشعباً ، وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم ، أما عدد الشيعة في اليمن فكثير جداً جسما بلغنا ممن زاروا بلادهم هناك ، وقد انتشر التشيع في بقاع اليمن منذ صدر الإسلام. وهذا أهم الاصقاع الي تنبسط فيها منابت الشيعة ولهم في جميع أصقاع العالم جاليات منتشرة ».

. «وإذن ، فإن تاريخ الشيعة هو تاريخ حافل بالمآثر العظيمة والقيم البطولية؟ أليس كذلك؟! ».

. «ستتكشف لك وبالتعاقب مآثر الشيعة الفذة ، وتراثهم القيم و خدماتهم الإسلامية ، ومواقفهم في وجوه الظلمة بصراحة لا أثر فيها للخداع والغش ، ولا يشوهها الحرص على الصلات والجوائز وطلب المناصب ».

. « كذلك ، فإني صرت استشعر أنهم يمتازون بعواطف ملتهبة ، ويتصفون بصفات حسنة ، وذلك لامتلاكهم مشاعر وهاجة .. أليس كذلك .. أجبني بدون إطراء .. أو مداهنة؟! ».

. « لقد تأثرت آدابهم بآداب الإسلام وثقافته ، كما أن ذهنيتهم كانت قد

صقلتها التجارب وشحذتها الأيام ، فكانت أكثر ما تعنى بالأفكار العميقة ، والمعاني الدقيقة ، وأنهم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الأمة من كبوتها ، و ايقاضها من غفلتها ».

. « برأيك ، فما الشيء الذي يجب الإلتفات إليه في تاريخ الشيعة؟ ».

ـ « إن الشيء الذي يجب الالتفات إليه ، هو أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية ترفع الغموض الذي يكتنف مبادئهم وتطورهم ، إذ إن المصادر الي تستمد منها المعلومات عن الشيعة ، هي مضطربة لا توضح الطريق الموصل إلى الحقيقة ، لأ نها مصادر لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى وغلبة الأهواء المردية والتحيز الممقوت ».

. « وهل تعزو وجود مثل هذه المشكلات إلى الفرق الأخرى؟ ».

ـ « إن البعض من كتاب الفرق الأخرى ، قد سلكوا طريق الافتراء والتحامل ، ولم يكتبوا للعلم ، بل إن كتاباتهم ، كانت مجردة عن كل ماله صلة بالحقيقة ».

الفصل الثالث والعشرون

هشام بن الحكم وإعجابي بنبل قريحته

وبعد مضي عدة أيام صرت أخلو بنفسي كثيراً ، وأصير إلى التفكير بكل ما يمس قضية التشيع ولوحدي ، وكأ ني قد جعلت أغامر باللعب في الساحة ولوحدي ومن دون أيما مدرب .. كنت أتأمل وأحاول الاعتماد على نفسي .. وهو المستمد من الاعتماد على قدرة الله في هدايتي وإرشادي إلى سواء السبيل .. وإعلامي أي الطرق أحق أن تتبع! .. وكنت أدعو الله بهذا الدعاء ، وأردده بين الفينة والأخرى ، حتى كأنه صار حرزاً لا يزايلني رسم حروفه المضيئة ، ولا تسابيح همساته الإلهية :

ـ « اللهم أرنا الحق حقاً وأرزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعلهما علينا متشابهين ، فنتبع هوانا بغير هدى منك يا رب العالمين ».

وما كان إلا الله أن يعين مثل هؤلاء الخلفاء ومن قبل أن ينطق باسمائهم محمد بن عبد الله ، لأ نه هو نفسه يقول : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [1] ،وهو الذي ما كان له أن يعرض لصراع السقيفة الذي لا يمكن أن يقبل به ، أو يرتضي به أيما عاقل .. ولقد مرت أيام وأيام كنت بعدها أصغي إلى حديث طلال ، وهو يقص علي مجمل الرواية :

---

(١) الحجر : ٩.

. « كان الحديث يدور بين أحد تلامذة إمام الشيعة جعفر الصادق ، وهو هشام بن الحكم ، وبين عمرو بن عبيد أحد زعماء المعتزلة ، وذلك حينما دخل التلميذ على الإمام يحدثه بما جرى بينه وبين عمر ، فقال هشام للصادق : بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك علي ، فخرجت إليه ، ودخلت البصرة يوم الجمعة ، فأتيت مسجد البصرة ، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف ، وشملة مرتد بها ، والناس يسألونه ، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي ، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ، ثم قلت : أيها العالم ، إني رجل غريب ، تأذن لي في مسألة؟ فقال لي : نعم! فقلت : ألك عين؟ فقال : يا بني ، أي شيء هذا من السؤال ، وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت : هكذا مسألتي. فقال : يا بني ، سل! وإن كانت مسألتك حمقاء. قلت : أجبني فيه. قال لي : سل. قلت : ألك عين؟ قال : نعم. قلت : فما تصنع بها؟ قال : أرى بها الألوان والأشخاص. قلت : فلك أنف؟ قال : نعم. قلت : فما تصنع به؟ قال : أشم به الرائحة. قلت : ألك فم؟ قال : نعم. قلت : فما تصنع به؟ قال : أذوق به الطعام. قلت : فلك أذن؟ قال : نعم. قلت : فما تصنع بها؟

قال : أسمع بها الصوت. قلت : ألك قلب؟ قال : نعم. قلت : فما تصنع به؟ قال : أميز به كلما ورد على هذه الجوارح والحواس. قلت : أوليس في هذه الجوارح غنى ً عن القلب؟ فقال : لا. قلت : وكيف ذلك ، وهي صحيحة سليمة؟ قال : يا بني ، إن الجوارح إذا شكت في شيء شمته ، أو رأته ، أو ذاقته ، أو سمعته ، ردته إلى القلب ، فيستيقن اليقين ، ويبطل الشك. فقلت : فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال : نعم. قلت : لا بد من القلب والا لم تستيقن

الجوارح؟ قال : نعم. وعندئذ قلت له : يا أبا مروان ، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً ، يصحح لها الصحيح ، ويتيقن به ما شك فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم ، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم ، ويقيم لك إماماً لجوارحك ، ترد إليه حيرتك وشكك؟ فسكت ولم يقل شيئاً. ثم التفت إلي ، فقال لي : أنت هشام بن الحكم؟ ..قال : فمن أين أنت؟ قلت : من أهل الكوفة. قال : فأنت اذاً هو. ثم ضمني إليه ، وأقعدني في مجلسه ، وزال عن مجلسه ، وما نطق حتى قمت .. ».

لقد تحدثت إلى كثيرين ، وتحدث إلي كثيرون ، وكانت إحدى هذه اللقاءات العلمية تشتمل على ما نطق به سلمان! وهو ابن أحد تجار القطن المشهورين ، هو الحاج فائق عبد المنعم ..كان سلمان هذا مترجماً للغة الفرنسية! ولقد رأيته متبحراً في هذا الموضوع مما دعاني إلى التفكير أولاً ،والاعتقاد أخيراً بأن هذه المواضيع العقائدية لا تختص بشخص دون آخر .. ولا تهتم باختصاص دون آخر ، فكل من كان له عقل وقلب يرى بهما ، فإنه حري به أن يناقش عقيدته التي يتعبد على ضوء أحكامها .. وأن يراجع نفسه وما تنتمي إليه وتعتقد به بين الفينة والأخرى .. كما له أن يحاسب نفسه كل ليلة حين يأوي إلى فراشه ،وذلك كيما يتأكد أنه على الجادة السواء وسبيل الصراط الأقوم .. ولا يطيش لبه في غد ، بين يدي رب قوي متين .. فيقول له : لم يتسن لي الوقت كيما أراجع ما أعتقد به ، أو المذهب الذي انتميت إليه ، أو بالأحرى الذي جعلاني عليه أبي وأمي .. كما جعلا أبوا كل مسيحي ويهودي ومجوسي عليه أولادهما .. فيهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ،ويمذهبانه بالتالي! حتى كان قد وصل بنا الحديث إلى هذه المقتطفات المستلقية على

قاع الذاكرة بين أيام كان لها أن تسجلها ساعاتها المكتنزة بضروب التنازعات الفكرية وصنوف الوئام البشري الذي ما كنت أرى أنبل منه نبلاً .. وهو أن تقعد إلى منضدة بحث مع من يخالفك العقيدة .. ولا ينفض كل منا عن مجلس صاحبه ، إلا وهو حافل بالجذل والحبور ، تكلله الغبطة مما رأى من خلق رفيقه وطيبة صاحبه .. حتى ولو كان لهما أن ينفضا ويفترقا على خلاف عقائدي ، وكل منهم قد التزم الالتصاق أكثر باعتقاده أو الاندكاك أكثربما كان قد انتمى إليه من فكر ومبدأ! إنه لشيء يدعو إلى السرور حقاً .. ذلك الذي نسميه نبذ الأحقاد ولفظ الضغائن والتوجه بقلب سليم إلى رب واحد .. وكيف لا يكون الحال كذلك ، من بعد وحدة الإيمان برسول واحد والنزول عند كلمته الحقة، كما نزلنا عند كلمة الله الحقة ، إلا وهو خاتم أنبيائه : محمد بن عبد الله!.

. « وخلاصة الأمر ».

قالها سلمان فائق ،وتابع حديثه مستدركاً ، وهو يقول :

ـ « لقد ظهر لنا أن العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين ، والترخص في استنباط الأحكام الشرعية إنما هو السلطة ، وأن بقاء هذه المذاهب إنما يكون بتلك الوسائل المشجعة ، حتى كثر أنصارها ».

. « وإذن ، فأنت تقول إنه لو قدرت عوامل الانتشار لغيرها من المذاهب مثل مذهب سفيان الثوري وغيره ، لكانت مقبولة عند من ينكرها ».

. « بالتأكيد ، ولكنها عدمت رعاية السلطة ، فمحيت من الوجود إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاءبقوتها الذاتية ».

. « هل يمكنك أن تضرب على ما تقول بعض الأمثلة؟ ».

. «إن هذا ليسعدني حقاً! فلقد فاز المذهب الحنفي بتشجيع أكثر من غيره ».

. « المذهب الحنفي! ».

ـ « أجل! فلقد كان هذا المذهب ، وفي العصر العباسي : المذهب الذي ترجع إليه الدولة في مهمات التشريع ، ورئاسة القضاء بيد أهل الرأي ، لم يشاركهم إلا القليل من سائرالمذاهب ».

. « وبعد انقراض الدولة العباسية؟ ».

. « وبعد انقراضها ، اعتنق المذهب سلاطين الأتراك ».

. « ولماذا اعتنقوه؟! ».

ـ « وذلك ، لأ نهم وعندما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم ، لأن من شروطها : أن يكون الخليفة قرشياً ، طبقاً للحديث : الخلافة في قريش والحنفية لا يشترطون هذا الشرط ».

. « وإذن ، فإن أول من تولى الخلافة الإسلامية من غير قريش ».

. « .. هو السلطان سليم الفاتح ».

. « وصحح الحنفية هذه الخلافة ».

. «تماماً ، وحجتهم أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق ».

. « وما هي هذه الحقوق؟ ».

. « أما الحق الأول ، فهو : حق السيف ».

. « والثاني؟ ».

. « والثاني هو : حق الانتخاب ».

. « والحق الثالث؟ ».

. « حق الوصاية ».

. « وما هو الحق الرابع؟ ».

. « أما الرابع فهو : حق حماية الحرمين ».

. « وإذن ، فلم يبق سوى الخامس؟ ».

. « أجل ، وما كان هذا الأخير إلا : حق الاحتفاظ بالأمانات ».

. « وما هي هذه الأمانات؟ ».

. « وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الاستانة ».

. « وماذا يقولون هم بصددها؟ ».

. « إنهم يقولون : إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد ، فحملها الخليفة العباسي إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية في صندوق من الفضة وهي البردة النبوية ، وسن من أسنان النبي ﷺ ، وشعرات من شعره ونعاله ، وبقية من العلم النبوي ، وأناء من حديد و ».

. « وبعد .. أراك توقفت عن الكلام؟! ».

. « .. وجبة الإمام أبي حنفية ».

. « أووه جبة الإمام؟! ».

ـ « أراك تعجبت لجبة الإمام ولم تتعجب لكل ما أوردته عليك من أسماء أشياء ونفائس تتعلق برسول الله ﷺ ؟ ».

فقلت له :

. « لا ، لم أقصد هكذا ، بل إني تعجبت من عصبية القوم لمذهب من اعتنقوا مذهبه ».

. «؟!».

. « وأين وجدت هذا كله .. أعني من أين لك بهذه الأخبار التاريخية؟ ».

. « كتاب التمدن الإسلامي ، ج ١ ، ص ١٠٩ ».

. «وبهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنباً لجنب ».

عندها قال :

. « نعم! إذ إن الرغبة فيها ، كانت منوطة بالقضاة ورغبة السلطة ، حتى كثر التحول من مذهب إلى مذهب تقرباً للسلطان وطلباً لرفده ».

. « وهل تحول البعض في تقليدهم من مذهب إلى آخر ، خدمة لأغراضهم الدنيوية ، وفوزاً بأسباب الحياة المادية؟ ».

. « وكيف لا! فلقد تحول كثير من الشافعية إلى الحنفية لأجل الدنيا ».

. «هل لك أن تذكر لي ما يحكي لي شيئاً عن مثل هذا الأمر؟ ».

. « لقد كان الأمير بلبغا ابن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير صاحب النفوذ والصولة ، لقد كان هذا الرجل يتعصب لمذهب أبي حنفية ، ويعطي لمن تحول إليه العطاء الجزيل ».

. « العطاء الجزيل؟! ».

ـ « .. ورتب الجامكيات الزائدة ، وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفي فوق الشافعي ».

. « أقول : أين قرأت هذا؟ ».

. « قرأته في كتاب شذرات الذهب : ج ٦ ، ص ٢١٣ ».

. « وهل قيل الشعر في بعض هذه المناسبات؟ ».

. « نعم ، لقد قيل الشعر كذلك! فإنه لما انتقل أبو البركات الحنفي إلى

مذهب الحنبلي فآذاه الحنفية ، فانتقل بعدها إلى مذهب الشافعي ، فقال المؤيد التكريتي في هجائه :

ألا مبلغ عني الوزير رسالة وإن كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهب للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديناً ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لاشك صائر إلى مالك فافهم لما أنا قائل »

. « أقول : أخبرني بالمصدر؟ فهذا الآخر ، أين غنمته؟! ».

. « لقد وجدته في كتاب مرآة الجنان : ج ٤ ، ص ٣٤ ».

. «حقاً .. مرآة الجنان؟! ».

. « وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحول شافعياً لأجل الدنيا ، وولي القضاء ، وكان أبو المظفر يوسف بن قرغلي سبط ابن الجوزي حنبلياً نقله الملك المعظم إلى مذهب أبي حنيفة ».

. « وهذا الخبر الآخر ..؟! ».

ـ «وهذا الآخر أيضاً ، هو موجود في شذرات الذهب : ج ٥ ، ص ٢٦٧ وكثير غيرهم ».

. «عجيب حقاً ! ».

ـ « وخلاصة القول : إن تلك الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلى الرغبة فيها والاعراض عما سواها. كما دعت أكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف ، وتعطيل موهبة الاجتهاد ».

. « هل يمكنك أن تثبت ادعاءك الآخير هذا؟ ».

. « وكيف لا! قال الشيخ أبو زرعة : قلت مرة لشيخنا البلقيني ما يقصر

بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد ، وقد استكمل الآلة وكيف يقلد؟ ولم أذكره هو استحياء منه ولما أريد أن أرتب على ذلك. فسكت عني ، ثم قلت : ما عندي إن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، إن من خرج عن ذلك ، لم ينله شيء ، وحرم ولاية القضاء ، وأمتنع الناس من استفتائه ، ونسب إلى البدعة ».

فتبسم ووافقني.

. « ومن هنا قوبل مذهب أهل البيت بتلك الهجمات العنيفة والحملات الظالمة ».

ـ « بالضبط! وأصبح الشيعة المتمسكون بمذهب أهل البيت عرضة لكل خطر ، وغرضاً للتهم ، وأصبح الشيعي في نظر اتباع السلطة خارجاً عن الإسلام ، مفارقاً جماعتهم ».

. « لأ نهم ثبتوا على الاعتقاد بالاجتهاد ، وبضرورته! أليس كذلك؟ ».

. « نعم! .. ولكن الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول ﷺ في أحكام الإسلام من طريق أهل البيت ، لأ نهم عدل القرآن والتمسك بهم من دعائم الإسلام ففي اتباعهم الهدى وهم كسفينة نوح وباب حطة ».

عندها ابتدرته بلهجة متحمسة :

. « وأنا لا أدري مع أي الفريقين أبحث لي عن مكان ومقعد ».

. « وبذلك تحملوا كل ما تحملوه ، في سبيل المحافظة على وصاية النبي في آله وساروا على نهجهم وبقي باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ، ومدرستهم مستقلة عن تأثير السلطة ».

الفصل الرابع والعشرون

أنا وسمير ، والأرض وضوء الشمس والقمر

وذات يوم بعد مضي ما يقرب من الشهر شاهدت سميراً ، وإذا به ينفتل ، وقد تفجرت عيونه بغيظ حانق ، وطفح وجهه بلهب دام ، وكأنه لم يقنع بما قلته له ، بل إنه وجد مثل هذه ، فرصة هامة، كيما يفرغ ما في جعبته من عقد وآلام ، فيصب جام غضبه . الذي كان يقرر أن يصبه على أخيه الكبير . علي أنا نفسي حتى يفرغ كاملاً في رأسي ويتخم به جمجمتي .. فساءلني والدهش يريم على محياه ، ومن دون أن تدهش حروف خطابه :

ـ « أما أني هذه المرة ، فلقد سمعت بأنك قد شددت عزمك على التشيع وبشكل نهائي ، .. تريد أن تستبصر ، قررت حتمياً؟! ».

قلت له :

. « ومن أخبرك؟ ».

. « لم يخبرني أحد .. أن تصرفاتك لتوحي بأكثر من هذا .. ».

. « دعك من عناء الخبل .. ».

. « إنه ليس بخبل ، تريد أن تترك حصيلة جهود آبائنا ».

لم يثرني كلامه ، بمثل ما أثارني اللحظة ، وكأ ني لم أتحدث إليه ومن قبل الشهر .. ولم أتناقش معه أو أجاذبه أطراف حديث ومناظرة جادة .. عقلية ، علمية ، حتى صرت التفت إليه ، أحاو ل أن أوقظ لمحة من المشاعر في جبينه ،

علها تذيب تلك العقدة التي لحظتها تنفتل جزئياتها ما بين حاجبيه ، قلت له :

. « إني لم أفكر بذلك قط ، إن ما أهتم له هو أن أحصل على يقين ما .. وتذكر أن الآباء ليسوا بمسؤولين عما تفعل الآن ، لأ نهم يدانون على ما أغذونا إياه .. فإن كان سقيماً كان حصادهم كذلك ، وإن كان غير ذلك كان غيره .. ».

. « هل تدينهم؟! ».

ـ « كلا .أبداً ، وهذا في حال أن يلفوا معنى سعيهم الجاد والحثيث كاملاً ، دون أيما تهاون أو تكاسل ».

. « ماذا تقصد؟ ».

. « أقصد أنهم هل بذلوا كل جهدهم في هذا المضمار ».

ـ « وهل بلغ الآباء من الشيعة مع أبنائهم كل جهدهم .؟ إني لا أعتقد أن أحداً منهم يهتم لحديثنا ، بقدر ما يهتم بالاستمرار على دين آبائه من دون الإبحار في مسالك البحث والدرس كل ما ورثه عنهم .. ».

. « لا عليك! لا تهتم بهذا ، علينا أن نفهم ما يتعلق بنا نحن ».

ـ « ولماذا كان عليهم أن يتمسكوا بكل ما ورثوه عن سلفهم ، ونحن ليس لن فعل مثل ذلك ، بل إني أشرع بأن عقيدتهم تملي علي ما يرغمني على التخلي عما اعتقد به عنوة .. ».

تطلعت إليه ، وأنا أشعر بأن هذا الشاب يمر في مرحلة صعبة .. دعوته الى الجلوس ، فرفض ، طلبت منه أن نخرج معاً إلى الطريق الذي يحيط بالمكان ، فاستجاب بعد تردد .. بعدها سألته :

. «إني لا أتصور بأ نك لا ترغب في أن تحمل شيئاً ، لم يحمله أحدٌ من أجدادك قبل اليوم ».

. « لا أفهم ما تقول؟ ».

ـ « إنك بخصالك هذه تذكرني بحالات الطفولة التي تحبس أنفاسنا عند اكتظاظها بطعنات الخوف والتردد ..فلا يكاد بنا أن نبصر شيئاً أو أن نسمح لأنفسنا بالنظر إلى ملمح ما حتى كان لنا أن نطلب الإذن من آبائنا أو أمهاتنا ، أو ممن يكبرنا .. ».

قاطعني :

. « وهل في ذلك من شك في صحته؟ ».

ـ « كلا ، البتة. ولكن لكل مقام مقال ، ففي ذلك الزمان كنت تحتاج فيه إلى استشارة حقيقية ، وإلى عدم المرور من أمام أي شيء حتى تذكر نصيحة من جاوزك في الشيء ، وإشارة من فاقك في العلم وبزك في الباع والقدرة .. بل إنك لتحتكم إلى عقله ، ولتدرك عندها أنك لا تساوي شيئاً من دونه ، لأ نك تستفيض من ينابيعه الثرة .. من كان أحدهم إلا ليمثل لك صورة تحكي مقاليد المثل الذي تقتدي به و .. وتظن أن كل ما يقولونه هو عين الصواب .. هذا ما من ورائه أيما شك .. إلا أنك حينما تكبر وتستفيد ثقتك بنفسك بك ، بل .. تكتسب التجارب الكثيرة ، وتستقطب روح الأعمار على النفس. البتة من دون التمرد على طلعات تلك الأعوام المتصرمة ، أو تشيح بوجهك عنها وتتنكر لمن علمك حرفاً ، ولمن رعاك طوال هذه المدة ، وحفلت به كل هذه الأعوام حتى كلأك وحرصك على أن يبلغ بك مقاصد السبيل التي لا ينكر أحد صدق ضرورة التشوف إليها .. ولكن! ».

. « ولكن .. ولكن ماذا؟! ».

. « عليك أن تدرك أن أباك مثلما جعل منك روحاً تتحرك بفعل نسمات

قلمه وحكايا فعله .. فإنه ما كان ليرجو مثل ذلك أو يسعد بالتوصل إلى مثل هذه الحالة من الاعتماد على النفس الذي يقوي ومن خلاله على إرشادك وتنشئتك ، وبالتالي تولي أمورك ، والاستيقان بصحة ما ينفذه إليك من أو امر ويلقيه إليك من دواعي يضطرك معها إلى الاتزام بها ، ولا يظن منك سوى التصديق ، وكأن الثقة ملؤه ، والزم رائده ، والوضوح سائسه ، والشفافية ديدنه ، من دون الانقياد إلا بفعل دليل لا يركب صفة الجنوح إليه إلا من بعد أن يطمئن إلى أنه قد فاز بالحظوة لدى ولده الذي أولاه كل ثقته ومن غير ما تبصر .. فمن أين حصل على كل هذه الثقة؟ ولم لم يسائل جده حين يريد الإيعاز إليك ، لم لم يستفهم أجداده هو نفسه ، حينما يصبح لسانه طليقاً يصدر إليك مختلف ألوان الارشادات ».

ـ « لأ نه ورثها عنهم ، فما كان له أن يعود ليسألهم من جديد عنها ، أيصح منه الاتيان بمثلها أم تجاوزها دون أحالة ذهنه إلى قبض التردد وحرارة الاستفسار المتوالد حديثاً؟ ».

. « فهل تعني أنه قد قلدهم؟ ».

. « نعم! ».

. « ولماذا؟ ».

ـ « لأ نهم محصوا الأمور حتى تلقوها عن وعي ، فما كان من يأتي بعدها إلا أن يتلقاها عنهم مضغة سائغة دون احتياجه إلى أعادة تمحيصها وأعمال الفحص عنها واجراء سلسلة من الاختبارات مما لا يقع تحتها أيما طائل ».

ـ « من تقصد هؤلاء الذين محصو الأمور ، وتلقوها عن وعي .. أتعني أبا أبيك ، جدك! لأنك إن قصدته ، ما كان لك إلا أن تقدس أباه هو الآخر ، وإن

عنيت الأخير ، فما كان لك إلا أن تعني أباه كذلك ، يعني جد جدك ، وهكذا إلى ما دون نهاية؟ ».

فقلت له :

. « أرأيت! إن كل من كان من آبائنا وأجدادنا .. كان قد سار على منوال سبقه إليه الأباء إلى اقتفاء أثره ، ومن قبله .. فلم يحقق فيه ، ولم يجشم نفسه عناء الضلوع بدراسة ما يدين به أو يعتقده مما كان قد توصل إليه بالوراثة! أفلا يخلق بهم ، وبنا حينما يصل إلينا شيئاً من هذا الإرث إلا أن نتوقف حياله قليلاً ، وننظر إلى ما ينفعنا منه .. فلماذا لا ترتدي ثياب أجدادك المتوفين ، أو لا تعمد إلى الاستفادة من أشياء الذين ماتوا منهم ، أو لبس ملابس أبيك بعد رحيله ، أو أخيك أو ..، بل إن نفسك لتقشعر فزعاً ، حينما تخال عقلك قد لاءمه مثل هذا التفكير ، أو أنغمس في مثل هذا الاعتقاد الشائه غير السائغ! حتى تضغط على أفكارك ، تغالبه من خلالها ، أملا منك في أن لا يراجعك بمثله ، أو يلاحيك رجاء أن يقنعك بضرورة استخدام ولبس كل ما كانوا قد أبلوه ..معذرة! كل ما كانوا قد استعملوه ، وبقي على حاله ، لم يمسسه أيما سبب يمكن أن يحيله إلى حالة من الرثة ، يمكن أن تصيبه .. فهو كما لو كانوا وللتو قد أحضروه إليك من السوق ..جديداً بعلبته. فلماذا تتقزز نفسك من مثل هذه الأشياء؟ .. ألأنها تتعلق بأموات ليس لهم أن يرجعوا إلا باذن الله ، بعد أن يصبح رفاتهم رميماً تحت التراب ، تتآكله سباع بطون الأرض الناميات كالنمل المحشور في بطون التراب دون أن يتعين عليك مراقبة ممراته التي يسلكها ، وخلاياه التي يأوي اليها ».

فقال لي :

. « إنك وبذلك تدين نفسك بنفسك! وتجيب عليها من دون أن أحمل في ذلك ألم النهوض به ، وما كنت لتقوم به حتى كنت قد واجهتني بمختلف صنوف الادعاءات والاستدلالات التي تستهدفني بها .. وإذا بك تسعفني أنت نفسك .. ».

. « أرأيت كيف غابت عنك أشياء وأشياء ، حتى إذا ظننت أنك أجبت بشيء ما تعتقد به أنهيطفيه ظمأك تخليت عن التفكير في أصل المسألة مطلقاً .. ».

. « كيف ..وإنك تخبرني بأنا قد أعتقدنا بأن جسد الميت يصبح رميماً بعد مضي فترة من الزمان عليه ، لأن هوام وحشرات الأرض ستكون قد أتت على بدنه .. وما كان لنا أن نبحث في هذا الأمر بأنفسنا لانا قد وعيناه عن طريق آخرين .. سعوا سعيهم دوننا ، أوكان لنا إلا أن نلتقط عثرات مساعيهم إلا عن طيب رضا منهم وسعادة خاطر. لأن من مثل ذلك ما كان ليحصيه علينا كما يحصي أحدهم على غيره ، إنهم يستحلبون ثمرات جهده وبالمجان! ».

. « أجل ، لأن من مثل ذلك لهأن يصبح أمراً من المسلمات والبديهيات التي صادق عليها المعلم التجريبي والإلهي معاً ».

. « وإذن ، فأنت قد أقتنعت بما قلت ، ومن حيث لا تدري ، فإذا بك تستيقظ من حلم كنت قد شعرت بأن زمانه ليس له أن ينقضي .. وإذا به ينقضي ، وها أنت تراه قد تصرم بفنون لحظاته التي ما ظننتها إلا ساعات وأيام بل سنين طويلة .. وإذا بي أجده لا يستشعر الطمأنينة إلى انتصاره ، بل إن نفسه لتكاد تهجس ،كما لو تنتصر من دون أن تستشعر طعم النصر الحقيقي ، لأ نها ما كانت لتستلذ بنكهته ، وذلك حينما أحست بأ نها لا تمتلك حقائق استحقاقه ،

لا عن جدارة سعي ، أو شدة بأس كانت قد جدت في طلبه من استقت نورها من حيث استسقته ، وما ظننت عندها إلا أنها قد سقيت نور النور ، غير أنها ما كانت قد سقيت إلا إنعكاسه .. وطبيعي أن من يقصد العاكس للنور ، سيقصد الجهة المخالفة للحق بالتأكيد ، وبشكل يقطع بحاصل رياضي ، مئة بالمئة .. لأنك إن اعتقدت أن القمر هو مركز الاشعاع والنور ، فإنك ما كنت إلا لتنفي عن الشمس ضوءها ، وبالتالي تعدم وجودها من أصله .. وإن اعتقدت بمثله ستحذو طريقاً يوصلك إلى جهة القمر. ولما كان القمر يطلع عليك في ليل يرخي سدوله على جانب الأرض التي أشاحت به عن الشمس .. لذا ، فإنك إن تقفيت آثار القمر ، ما كنت لتتقفى إلا آثار الجهة المخالفة للجهة الحقيقة التي ينصب منها سيل الضوء ، وينبع منها شعاع النور الحقيقي .. ذلك أن القمر ما كان إلا عاكساً. فما كان آباؤنا إلا عاكسين للأضواء الإلهية ، غير أن لنا أن نتساءل ، هل يحق لنا أن نعتبرهم المصدر الحقيقي لهذا الضوء. سيكون الجواب كما صرحت ، فإنهم وسيلة تعكس ما يتلقونه ليس إلا .. ومتى سيكون عليك النهوض بمهام جديدة تختلف عن سابقاتها ، ذلك حين تدلك بأن القمر لا يعكس من ضوء الشمس إلا بنسبة ٧% من الضوء الذي يتلقاه منها. لذا ما كان ليصل إلى القمر ، فهو لا ينعكس كله ، فإن ما كان له أن يصل إليهم ، ربما ما كان لهم أن يعوه ذلك الوعي .. أو كان يقلد لهم فهم على ما ينبغي ، أو يتيسر لهم التقاطه أجمع ، وامتصاص كل ما له أو أنه يصل إلى سطوح ادمغتهم ، ويلامس حنايا قلوبهم ، لأن لهم إمكانيات محدودة وطاقات معينة و .. ».

. « إذن ، فإني لا ألومك على ما تحمل من أفكار لأ ني لا ألومك ، كذلك على ما تحمل من عقلية .. غير أني أكاد التقط منك ضياءات حسية تكاد

تسعفني في حربي الضروس هذه ، وأكاد أحتمل ما أحتمله وبشق الأنفس حتى أصير أعب من هذه الأنوار المنطقية التي تحملها. ولربما حسب ما تدعيه من أن ضوء القمر لا يعكس سوى ٧٠% مما يقع على سطحه من ضوء الشمس ».

قاطعته :

. « إني أنا لا أدعي ذلك ، إنما العلم هو الذي يحكي هذا ».

أضاف وهو يستدرك كلامه ، ومن دون أن يعلق على تنويهي ، فقال :

. « كذلك ، أعتبرت نفسي مثل هذا القمر حينما يتلقط ضوء الشمس الواقع عليه .. فإني صرت التقط من لسانك ما يعين عقلي على مجاراة علميتك ومضارعة أسباب أدلتك العقلية واستنتاجاتك المنطقية ».

ـ « لذا ، فأنت تعترف بأن آباءنا كانوا يعكسون ما يعكسون بالمقدار الذي تطوفه خلايا مخاخهم ، وما يعد بالتالي عما تعكسه قدراتهم التي رزقهم الله ومنحهم إياها دون إذن يكون لهم أيما سبب في عكس هذه الـ ٧% .. ولو كان بوسعهم أن يعكسوا أكثر من هذا ، لكانوا قد فعلوا ، وإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .. ».

قاطعته أنا الآخر هذه المرة :

ـ « وإذن ، أنت الآخر صرت تغذوني بالادلة التي صرت أتحسس لونها ، وأتشمم رائحتها ، بل أتفقد طعمها وأستذوقه ، ومن حيث لا تشعر .. فإنك كذلك تدين نفسك بنفسك .. ولا تريد أن تصبح كهذه الأرض التي تتحرك أنت على سطحها ».

. « ولماذا أصبح كهذه الأرض ، إنك تثيرني بهذه الأعاجيب من الأجوبة التي لا أكاد أظن بأنك تعتقد بها داحضة لاغمة .. ».

. «أجل ، وأنا أصدق على ما تظنه ، وأزيدك وضوحاً ، بأن ما لا تشك به إلا ظناً ، فإني لا أشك به إلا محض الحق وعين اليقين ، فإني قد رأيتك تصادق على ما أدعيته ضدك ومن قبل ، فلقد سعيت سعيك في المصادرة على كل ما اتهمتك به. ولقد جهدت جهدك الحثيث ، ومن دون أن تشعر لاثبات مدعاي ، وتأييد كل ما أردت إفحامك به ، بل التأكيد على كل ما أدلى به دلوي إليك .. ».

فقاطعني من جديد ، وهو يقول :

. « إذن ، أنا في قعر البئر ».

إلا إني أسهبت في الكلام ومن دون أن أعتني بما قال ، غير أني ابتسمت له كأني أطالبه بالتريث ، ريثما أحكي له قصة لوعتي ، وقصيد أشجاني الحقيقي ،لأن المسألة ما كانت تحتمل لمسة عناد ، أو مهملة لجاجة .. لأن الواقع يفترض بنا أن نكون جادين بقدر ما نكون عاطفيين ، نرتبط بآبائنا ، وبقدر ما لنا أن نرتبط بالعالم من حولنا ، ولو كان لنا أن نثبت لهم وقادن بأكثر مما نثبته للآخرين ، ونكون لهم خير خلف لخير سلف .. فقلت له ، وأنا أتابع حديثي :

ـ «لأنك كنت قد صورت نفسك كالقمر ، وشبهت حالك بحاله ، عملاً عرضك للظهور كما ظهر آباؤك من قبل ، رجاء أن تدفع عنهم الريب والتهم ، وتبري ساحتهم بنفس الدليل والبرهان الذي صرت تدفع بهما عن نفسك ، لأنك ما طمحت إلى أن تكون أفضل منهم. ولربما كان الله قد آتاك من العلم ما لم يؤتهم هم أنفسهم ، إلا أنك مع ذلك رضيت بهذا القدر اليسير ، واكتفيت به ، كما لو أدرت القول بأ نك ترضى لنفسك من العيش ما رضيه السلف من الماضين ، والسابقون من القدماء ، من حيث سكنى الكهوف ، والاشتغال بالزراعة وبعض الصناعات فقط ، والاكتفاء بضوء الشموع بدلاً عن أضواء

المصابيح الكهربائية والغازية ، وبركوب الخيل عوضاً عن امتطاء متون العجلات والطيارات والقطارات المتطورة؟! ذلك كله ، لأ نك ما رضيت بأن تكون كهذه الأرض التي بوسعها أن تعكس من ضوء الشمس ضعف ما يعكسه سطح القمر من ضوء الشمس ».

وعندها صاح ، وكأ نه قد وقع على أصل الحل ، وربح المعركة :

. « وها أنت من جديد ، تعينني على نفسك! ».

. «؟!».

نظر إلي ملياً ، ثم عاد وهو يستدرك القول :

. « ومن أين لي أن اتطلع إلى الأرض وأنا أقف على سطحها ، بل إني ما أرى سوى القمر! أرأيت؟ فإنك صرت تطالبني بعلم الغيب الذي لم يطلع عليه أحد .. ».

فعاجلته أنا الآخر :

ـ « أرأيت .. فإنك أنت الذي تعينني على نفسك ، بل إنك ومن جديد تصير إلى فعل مثل ذلك ، وبكل ما توقعته ، نتيجة عما ظننته ظن اليقين أنهحاصل عن مقدمات كنت قد اعنتك بها على نفسي ..فإنك حين لم يكن بوسعك أن ترى الأرض ، فإنه ما كان بميسورك أن تبصر سوى القرم ، وكنت لتجد أنه يتعين عليك أن لا تأخذ الأحكام إلا من القمر ، وتجتزئ بما تراه منه وتعقله .. ».

فساءلني :

. « وأنت! أكنت قد رأيت الأرض؟ ».

. « لقد صوروها من على سطح القمر! ».

. « وإذن ، فأنت لم ترها؟ ».

. « ولكن غيري كان بوسعه أن يراها ، وذلك بفعل سلطان العلم ».

. « إلا أنهم ما كانوا مسلمين ».

. « ولقد كان من المسلمين من أبصرها بفعل سلطان العلم الإلهي ».

. « إني أحدثك عما يمكنه أن يصلك بأسبابه الطبيعية ».

. « وأنا الآخر ، أحدثك عما يصلني بأسبابه الحياتية ، لأ نه لولا الظلمة ، ما كان لنا أن نفهم معنى لضوء القمر! ».

. « إلا انا فهمنا معنى لضوء الشمس ، مع أنه ما ثمة من ظلمة تغشى السماء ، لأ نه أصل النور ».

فقال لي ، وكأنه تصور بأنه قد توصل إلى صيدي ، والايقاع بي :

. « بل إن الله هو أصل النور ، ولولا الله ، لما كان ثمة من ضوء للشمس ، ولا من قوة نارية يشتعل أوارها في خلالها ، .. وتضيء .. ».

فقلت له :

. « وإذن ، فأنت تقر وتعترف بأن الشمس هي نفسها ما كانت إلا أصل الوجود ».

ـ « وهل كنت تظنني أن أقول لك مثلما قاله قوم إبراهيم لرسول الله ، بأنا نسجد للشمس ، ذلك لأ نها الهنا الحق! ».

. « لا أقول هذا ، ولكنك بحت بشيء ، ربما أقنعني بأن أتلمس الإيجاز في طي مثل هذا الطريق ، كيما يسعني الوصول إلى بغيتي وبأسرع ما يمكن ».

. « هات ما عندك؟! ».

. « إنك لا ترى الأرض ، بينما هو بوسعك أن ترى القمر! .. وتبصر للقمر

تأثيراً ، ولا تبصر للأرض كذلك ، مع أنك قد وثقت من وجودها وتأثيرها ، بل عظمه الذي تفوق به القمر .. من حيث كنت في البداية ، تقنعني بأن تحول الاجساد في القبور إلى رميم ، هو أمر قد صادقت عليه عقولنا .. مع أنا لم نبصر له حقيقية .. إنما غيرنا الذي أبصرها ، واكتفى العالم باستدلالهم الذي شمل عينات مختلفة حتى طلعوا على العالمين بنظرات ثاتبة ، كان قد سبقهم إليها القرآن ومن قبل .. وأنت الآن ، تريد نفي ما صادق عليه العلم ، بحجة أنهم غير مسلمين! مع أنك قد صادقت ومن قبل على مثله .. كما أنك تنفي الآن ما صادق عليه العلم حتى صرت مستيقنا به استيقاناً ، لا يقبل أيما شك .. لأنا أنفسنا لم نكن قد ذهبنا إلى القمر ، فاطلعنا على الأرض من فوق سطحه اطلاعة ، فرأينا كم هي تبدو كبيرة ، وكم تبدو مضيئة ، وكم لها أن تعكس من الضوء! ».

سكت ،ولم يحر جواباً .. بينما تابعت حديثي :

. « ثم استدللت على بطلان مقالتك ، حينما ناضلت في الدفاع عن نفسك ، وذلك من خلال استذكارك لقوم إبراهيم ، وما أرى إلا أنك تحاول أن تنزل نفسك منزلتهم ، ومن حيث لا تدري! ».

. «أتجعلني مشركاً عابداً لصنم؟! ».

ـ « لا ، معاذ الله! ولكنك أنزلت نفسك منزلهم ومن حيث إنك صدقت بالقمر ، ولم تصدق بالأرض ، ولو كان القمر يستحق العبادة والسجود له ، لكانت الأرض نفسها هي أجدر وأخلق منه بذلك! ».

. « .. ولكانت الشمس هي الأخلق منهما أجمع .. لأ نها أكبر .. غير أنها بعيدة ، فلا نراها إلا أصغر ».

ـ « هذا ، إن كنت تقيم للأسباب غير الواضحة لنا ، والتي ليس بمقدورنا تقصيها بالكامل ، ما تقيمه من الوزن الحقيقي لها .. لأنك وبذلك كنت قد غفلت أنت الآخر عن أن ما يعكسه ضوء القمر من نسبة الضوء الساقط على سطحه ، هو ما كان ليحدث إلا وقياساً إلى حجمه .. لذا ، فما كان لسطح الأرض أن يعكس كامل الضوء الشمسي الساقط عليه ، إلا بما يكون بوسعها أن تعكسه مما له أن يتناسب ومقدار حجمها ، وقياساً لكبر مساحتها وسعتها الكروية. وعليه ، فإني لا أكاد إلا أن أجزم ، لأنك قد استوعبت حال الأجداد والآباء من السالفين والماضين ، وذلك من حيث إنهم كانوا قد اكتفوا بما اكتفى به القمر نفسه أن يعكسه من ضوء الشمس! وهذا ما يدلل على أنهم لم يحصلوا على كل ما يجب الحصول عليه ، أو أنهم حصلوا ، ولم يصل إليك منه إلا ما له أن يتعين بمثل هذه النسبة الضئيلة والمحدودة .. أتقبل بهذه البضاعة الهزيلة؟! ولو كان يقبلها الله لعباده ، لكان لك أن تقبلها أنت الآخر ، ولكنه لم يرضها لهم ، حتى كان قد سلط النهار على الليل ، ينسخه! وإذا بنا نعيش في ضياء ، يغشانا النور من كل جانب بفعل طلوع الشمس على سطح الأرض ووصول أشعتها إليها ..تهديها إلينا غدائر ها الواشعة .. أفيمكنك بعدها أن ترفض نعمة أنعمها الله عليك وتردها؟! فأن قنعت بما قنع به آباؤك ، فالأجدر بك أن تذهب إلى القطب ، حيث لا تطلع الشمس هناك إلا لمدة ستة أشهر ، وتعيش في ظلمة دامسة ، لا ينير لك سوى القمر ، وهذا الآخر ليس له أن يضيء لك في كل يوم ، وليس له أن يضيء لك في الشهر ثلاثين ليلة ، فضلاً عن أن طلوعه هناك سيتناسب مع أوضاع خاصة ..بل إن له أن يعكس لك نوراً لا بأس به ، ولا يعكسه لك إلا في ليال قلائل ، ليس إلا! هذا إن لم يغيبه الغمام ويكلح وجهه

السحاب. وما كانت لسائر الليالي إلا لتضرع متهجدة إلى بارئها ، بأن يقضي مواهنها ، ويصرم أوطارها ، حتى يطلع عليها نهار الأيام المقبلة. فلا الهلال هو بالذي سيمكنك الاستعاضة به عن نور الشمس ، ولا القمر الغائب المختنق في عباب الظلمات وحنادس المحاق .. بمقدوره أن يجلي لون عتمة الليل ، ويضيء لك القلب! بل إن عليك أن تقنع بما أقتنع به الله واختاره لك. فلا تختار إلا ما اختاره لك! .. وإذن ، فما عليك إلا أن تبحث حتى تقتبس من الأرض لمسات الضوء ، وتقف في نفس المكان التي وقفها آباؤك ، لتصبح كالقمر نفسه ، ولتنظر ساعتها إلى الأرض ، لترى مقدار ضوئها الذي تعكسه ، وعظمة حجمها! مع أنك تنزل نفسك منزل آبائك ، وتصور نفسك كالقمر حتى إذا ما طالبتك برواية الأرض أدعيت أن غير المسلمين هم وحدهم الذين تسنى لهم رؤيتها ، وما كنت إلا قمراً لا يميل إلى سوى الأرض .. ».

. « والشمس كذلك .. ».

عاجلني بهذه الجملة المقتضبة ، وكأنه كان قد شعر أنه قد أمطرني بحجة تفي بالغرض ، وتدعوه إلى الوقوف على قدميه ، وذلك بعد أن أوقع طول الحجاج الوهن في ساقيه ، وأنزل ضربات الهول في أعصاب قدميه الضعيفتين .. فغدا لا يقوى على الوقوف ، فاطرحهما أرضاً حتى تهاوى جسده ،مريحاً بدنه المتعب ، بينما جعلت أقول له :

ـ « إني لم أدع نفسي تكمل فحوى العبارة حتى جعلتك أنت الذي تقر على ما أردت ادانتك به ، ومن قبل أن أعلن عليك فساد نظرتك السابقة .. فأثبت ومن حيث أقررت بتشبيه نفسك بالقمر كحال آبائك من قبل حتى قنعت بما قنعوا وجعلتني من بعد ذلك ، أثبت لنا خطأ دعواك ، فإذا بك تبصر الأرض

كذلك ، وتخفي الاعلان عن حقائق أخرى حتى تركتك تعلن عن هذه الأخيرات بفمك نفسه! ».

. « وما هي هذه الحقائق الأخرى؟ ».

ـ « وهي إن آباؤك ، كان لهم أن يروا ضوء الشمس وكانوا يتلقونه ، مثلما تتلقاه الأرض ، إلا أنهم ما كانوا ليعكسوا سوى ٧% ، مع أنهم كانوا يتلقون ١٠٠% ، وما كان السبب في ذلك إلا نفس السبب الذي تراه في القمر ، لعجز عقولهم وضعف إراداتهم ، فرضوا بما رضي به القمر ، وفاتهم أن للقمر دوراً سماوياً ، لا يتعدى هذا ، وليس لكل أحد أن يتعدى الدور الذي رسم له إلا باذن الله ، وإذن هذا هو الآخر كان يمثل لك الجواب عن سؤالك في البداية ، حينما عرضت لي بالقول إن الشيعة ، هم الآخرون لم لا يتوجهون إلى هذه المسألة مثلما نتوجه نحن إليها .. فأقول لك إن حالهم في هذا المضمار كحال القمر المسخر ، لأن يعكس هذا القدر ، لا لضعفه ، كما وجدناه لدى آبائنا كلانا .. وليس آباؤك فقط ، وذلك حينما وجدناهم كالقمر. ذلك أنهم يرون الشمس ، ولا يعكسون إلا ٧% ، فلا يخبرونا عنها إلا بهذه النسبة. كما أنهم لا يمدونا من ضوئها ودفئها ، إلا بهذه النسبة! غير أن الشيعة كان لهم أن يجدوا من الأدلة والبراهين ، ما يغنيهم عن تتبع ما يجب أن نتبعه نحن ، لانا لا نمتلك الأدلة التي يمتلكونها ، وليس الذي كان بأيديهم هو واقع بين أيدينا ، ولذلك كان لأفرادهم أن يكتفوا بالبحث في أصول عقائدهم وبمقدار ٧% من نسبة الضوء الساقط عليهم ، ضوء الحياة. مع انا لا نشعر بأنهم وكلما اكتفوا بذلك ، فإنهم لا يعكسون إلا بمقدار ما تعكسه الأرض نفسها ».

. « وكيف هذا ، إنها قسمة ضيزى! ».

ـ « ذلك أن حالهم ، وحينما وجدوا بين أيديهم من الأدلة والبراهين التي زودهم بها آباؤهم وأجدادهم ، كان ينطبق على حال التلميذ النبيه الذي حصل على معلومات كافية للدخول إلى قاعة الامتحان ، والإجابة وبكل بساطة حتى إذا ما سوئلوا في الحياة الدنيا قبل حساب البرزخ ، في ظلمات القيامة الصغري ، كان لهم أن يضيؤوا دياجيها بفنون العلوم والإجابات ، ما كان قد أتحفهم به آباؤهم وأجدادهم من قبل .. غير انا لسنا كذلك ، فإن أدلتنا ضعفية ، وما بين أيدينا مما خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا ، ليس له أن يسمى إرثاً عظيماً ، ولا حتى أن يسمى بالارث ، لأ نه لا يسد جوعتنا ، ولا يطفئ ظمأنا ، ولا يغني من جوع .. حالنا كحال الطالب الذي لم يدرس درسه ، ولم يحضر لاداء الامتحان ، فإنه لما سيلج قاعة الامتحان ، فما كان سيكون عليه بالميسور الإجابة ، ولو تيسر له لاضطلاع بها ، فما كان له أن يجيب إلا إجابات مغلوطة ، لا يقنع بها المنكر والنكير في قيامة البرزخ. ولذا كان حالهم ومن ناحية ، كحال القمر ، حينما لا يحتاجون إلى تقصي أسباب الحقائق إلا بنسبة ٧%، اسقاطاً للتكليف ، ذلك .. إن الحقائق قائمة بين أيديهم وبالكامل! ثبتة ، واقعة! كما هو ثابت قرص الشمس واضح شعاعها للعيان ، كذلك كان حالهم ، ومن ناحية أخرى ، كان كالأرض التي لا نبصرها نحن ، بينما يبصرونها هم! ذلك أن مقدار الضوء الذي يعكسونه حال كونهم كالقمر يعادل مقدار الضوء الذي تعكسه الأرض ، لأ نهم كانوا في غنى عن العناء الذي نطوي نحن الطريق من خلاله حتى يجب أن نعكس مقدار ما تعكسه الأرض من الضياء ، لنعدل ما يعكسونه هم من ضياء القمر الذي لا يعكس سوى ٧% ».

. « وهل تقول إنهم يفهمون أكثر منا .. ».

ـ «أنا لا أقصد ذلك أبداً ، وقطعاً ، إن ما حصلوا عليه هو الذي جعلهم يفهمون و يعلمون أكثر منا. فهل حال التلميذ الذي يقرأ في كتاب يجده بين يديه للتحضير للامتحان. هو له أن يشبه أو يعدل حال التلميذ الذي لا يجد بين يديه كتاباً يقرؤه لمن يطالب بالحضور في قاعة الامتحان ، كيما يمتحن بكتاب المنهج المقرر عليه ، والذي لم يكن ليتسنى له الحصول عليه. فهل هذا التشبيه كان يمثل قسمة ضيزى أم العكس حقاً ، لأن الشيعة بين أيديهم من الكتب والأدلة والبراهين والمراجع ، ما يجاوز حدود هذه النسبة من انعكاسات الضوء .. إلا أني أردت جهد الامكان أن أقرب الصورة .. وإلا فان كلانا لتطلع علينا نجمة الكون الشمسية ، ونراها ونبصرها واضحة جلية حتى إذا ما ساهم آباؤهم وأجدادهم في إيضاح أسرارها لهم ، ولم يفعل آباؤنا وأجدادنا مثل ذلك .. ما كان علينا إلا أن نتطلع نحن إلى حيث تلقي الشمس بضيائها ، فنتطلع إلى أسباب قدرة وعظمة اشعاعاتها ، وحينئذ سيكون لنا بالامكان ، أن نرى في الأرض آثاراً وايات عديدة ، فنتبين من خلالها طبيعة الحقائق .. ».

. « ولذا ، سيكون بإمكاننا أن نتبين من الحقائق أكثر مما يتبينها الشيعة أنفسهم ».

. « هذا لا أخالني أخالفك به .لأنا سنكون كمن يكتشف أرضاً جديدة فيتقصى كافة الحقائق عنها ، ولما سنصير نحن عرضة للسؤال أكثر من الشيعي نفسه من قبل أهلينا وعشيرتنا الأقربين .. والناس والاصدقاء والخلان. هذا ، فيما لو قدر لنا أن نتشيع ، كان علينا إذن أن نتحصن بمختلف المعلومات ، ونكثرمن الاستفاقات والصب من عيون المعالم ، وسيوف المعارف. كيما لا

نصير جهلة ، نبدو كالمغرورين أمام أعين علماء أهل السنة والمثقفين منهم ، لأن أولئك سيواجهون بكل ما لديهم من إرث وميراث ديني! ولذا ، فان المسؤولية التي ستلقى على عاتقنا .. ».

قاطعني :

. « إن استبصرنا .. ».

. «أجل ، فهي ستصبح جداً قاسية عظيمة ، لأن علينا أن ندرس ومن جديد غالب ما لدينا في كتبنا ونعارضها بفنون الوحي العقائدي الموجود لدى الشيعة ».

. « أو لم يدعي البعض أن الشيعة تحتج علينا نحن أهل السنة من نفس كتبنا التي بين أيدينا ».

. «وهذا صحيح جداً ».

. « فلماذا تخبرني بمعارضتنا لكتب السنة بالعلوم الشيعية ».

ـ «ذلك بعد أن نسقط أدلة الطرف ، نعمد إلى الاستدلال ثانية ، وعلى ما عند الشيعة من نفس كتب السنة ».

ـ « وإذن ، ما قلت لي ، سوى ما أخبرتك به ، فلم تجبني ما هو الوحي العقائدي الشيعي ».

. « هو المرحلة الثالثة بعد اسقاط أدلة الخصم وتفنيدها من كتبه ، والاستدلال على ادعاءات الشيعة من كتبه كذلك ، ومن ثم بالاستعاضة من عيون المعارف الشيعية وبشكل مفصل .. لأ ني أخبرتك أن استدللنا على الشمس بآثارها في الأرض ، بعد أن فندنا عناصر الظلمة وأدلتها. إلا أنا لو أردنا وحي الشيعة العقائدي الأصلي ،كان لنا أن نقصد الشمس نفسها ،

فنستقطب وحيها اصالة ، لنجد ما يخبرنا به أئمة الشيعة وبالتفصيل. ونستمد منهم التعاليم الصحيحة والأحكام الدينية والحياتية التي لها أن تختلف اختلافاً حقيقياً عن تلك التي كنا نتلقاها حينما كنا مثلاً سنة ».

. « إنا ومن خلال حديثنا هذا قد أصبحنا شيعة ، ونحن لا ندري! ».

. « وإنك لتتكلم كما لو أنا قد عزمنا على الاستبصار كلانا و .. وليس أنت وحدك ».

ـ « ما الذي يدعوك إلى الظن كذلك ، أو ما الذي يحملك على مثل هذا التفكير؟ ».

. « هذا الذي تقوله! ».

. « وهذا عظيم المصاب ، لقد أقرحت جروحي ».

. « لماذا؟ ».

. « لأنك تسألني عن علتي ، فأقول لك ما صرحت لك به ومن قبل! مع أني ما زلت سنياً ، ولم أستبصر! بل لم أفكر به خطأ ، إلا أني بحثت في أدلتنا ، فوجدتها ضعيفة نسبياً ، فيما لو قيست إلى أدلته الشيعية ، ثم بحثت مرات ومرات أخر ، فوجدتها ضعيفة جداً ، وسطحية للغاية! ».

. « ..؟! ».

ـ « .. وبحثت ، وبحثت! فوجدتها شيئاً ، ليس بوسعه أن يخالف مذهب الشيعة ، حيث وكأن التأريخ كان قد صنع صنعه! فوظف المأجورين لمخالفة كل ما جاءت به أصول الأئمة ، وجاء به فقه الشيعة ، وذلك من أجل صنع أصول جديدة وفقه جديد! .. أنظر ، ما أسهل المهمة ، وأعظم الأثر! ».

. « ولكنك تقول إني لم أستبصر؟ ».

. « وهذا أعظم من الاستبصار نفسه ، فلو استبصرت ، لكان لي أن ارتاح ، ولكني سني ، وأتعبد على عقيدتي. مع أني أجدها ضعيفة ، لا تصمد ولا أنتقل ، مع كل ما أجد من ضعف وخلل فيها إلى عقيدة أخرى ».

. « هل أنك لم تجد من الجرأة ما يعينك على اتخاذ مثل هذا القرار؟ ».

. « حقاً ! تريد مني الجواب الشافي؟ ».

. « أجل ».

. « أصدقك القول ، صحيح هو ما تقوله ، لأ ني غدوت كما هو الحال لدى الشيعة من مسألة التعليم. فإنه وحينما يتوفى مرجع التقليد عليهم إن لم يجز لمقلديه البقاء على تقليده العدول إلى غيره من الأحياء .. فغدوت كما لو ظل هكذا ، ومن دون تقليد ، لأ نه وبعقيدتكم تبطل عبادات الشخص الذي لا يقلد ، وإذا ما مات مرجعه ، ولم يعدل ، غدا كأنه يتعبد ومن دون تقليد! ».

قال :

. « وهكذا ، فإن عقيدتنا هي أفضل ، بعيدة عن وجع الرأس وهذا الفقيه قد مات ، أو لم يمت ، والبحث عن غيره .. ».

الفصل الخامس والعشرون

ردود فعل نبيل ومازن حيال تشيع قاسم

وإذا ما كنت قد تحدثت إلى سمير كذلك ، وكان القوم من حولنا ممن أقاموا بين ظهرانينا ، هم من أهل السنة ، وحيث كانوا قد علموا باستبصار قاسم وطلال من قبله ، وخالد وعمر ، وفلان وفلان وغيرهم ..فكانوا قد انتبهو ا إلى أمر وجب عليهم النهوض به وفي الحال. هكذا تصورت حالهم!

وفي ظهيرة اليوم الذي أعقب آخر يوم من أيام محادثاتي العلمية مع سمير ، جاءني مازن ، حتى ترادف الي سمع فصول حديثي مع سمير وبالتفصيل. حيث كان مازن هذا ، شاباً كثيراً ما كنت أجده متقلب الافكار ، متغير الشمائل ، لا يحسن سوى الانقياد نحو ذات اليمين وذات الشمال ، ومن دون التفكير بمغبة ما يفعل. لا أقول ذلك مغالبة ، إنما عنيت حقيقة دون الامعان في مذهبه وطريقته في الحياة. إلاأني كنت أجده وكأنه لم يشب عن الطوق بعد ، ولحد الآن! إلا أنه بادرني بتحيته ، وكأنه يغالب في نفسه شوقاً إلى القاء مرثية أو نعي يتفقد من خلالهما روحي المريضة ،وحسبما وجدته يلفيها كأنه أخذ يفكر كيف أن لهذا الشاب (أعني نفسي) سيبدد لحظات عمره ، ويتلف أوراق مستقبله هذا ، إن عمد الى الاستبصار ، وأراد أن يتشيع .. فقال وكأنه يلتقط عصا لحديثه ، يتوكأ عليها ، عله يدرج ومن خلالها نحو فضاء يستلقي وفي أرجاء مرجته اليانعة بازهارها، كيما يخبرني بأ ني سأكون

أتعس مخلوق ، لو كنت أفكر فيما أحاول أن أقدم عليه ، فسألني مازن ، وهو يقول :

. « أسمعت بالخبر المشؤوم؟! ».

قلت :

. « أي خبر؟ ».

قال :

. « قاسم! ».

قلت :

ـ «أووه ، نعم (ثم التفت إليه مستغرباً وأنا تملأني روح ضاحكة في داخل نفسي ، لشدما خفت أن أفجرها دون وعي مني. كنت أمازح ذاتي في دخائلي ، وبقدر ما كنت أسائلها مغضباً في ظاهري ، أغالب ابتساماتي المفرطة التي ربما انفتلت وانقلبت ضحكات صارخة) ما به؟ ».

سألته ، وأنا أكاد استصرخ دموع الفرح في قلبي للأسلوب نفسه ، والذي ابتدرت به متسائلا ، بعد ان ساءلني هو وبدوره ،فجعلت أكابد شوقاً يعتمل في صدري ، يسوقني نحو الرغبة اطلاق كركرة ليس لها نظير ، ولا أقول ذلك وأنا أشعر بالرثاء لمازن ، أو قاسم ،أو كأني أحاول أن أسدد فعل قاسم ، لا ، وكلا .. إنما والحقيقة لا أكاد أخفيها ، لم يكن لدي أيما تعصب يمكن أن يصطلح عليه كذلك ،ولو كنت أتعصب شيئاً ما ، إلا أنيما كنت أعتبره كذلك ، فيما لو قايسوه مع تعصب مازن أو نبيل ، فإن لمثله أن يختلف عن نسب كلاهما ، بمقدار المسافة التي تفصل ما بين السماء والأرض ، .. هكذا اعتقدت .. والأدهى من ذلك صرت ، أفكر في التغاضي عن ابتسامة ، وضحكة أرادت ، أن

تعتريني ازاء كلام نبيل وأسلوبه ،فضلاً عن أسلوبي أن الآخر حياله ، فإذا بي أجد نبيل ييمم بوجهته صوبي .. وذلك لما رأى مازن قد تحلق حولي حتى جعل يحاذيني ، وكأنه عرف الموضوع الذي يريد مازن أن يطرحه بين يدي .. ولذلك ، أراد أن يؤكد حصيلة مازن ، ويكرر كلامه ، بل لما سيكون هو الآخر وراء مثل هذا الموضوع. فإن بوسع ذهنه أن يخمن أين سأنصاع أكثر ، وسيضع مثل هذا التحذير ، صنعه في نفسي ، وبذلك أكون قد نأيت بنفسي عن التفكير بمثل هذه الترهات (حسب ما يظنون وصدق ظني) فاجأني مازن بالقول :

. « إني ما كنت أظنه (قاسم) ليجرؤ ذات يوم على الاقدام على مثل هذه الترهات .. ».

وهنا صارعت نفسي ، فلم أجدها هذه المرة ، تتمثل حتى انفجرت بكل ما وسعني المجال خلاله أن أضحك .. وعندها بدأ يفتح قلبه لي حتى شعرت بأن ضحكتي هذه قد آتت أكلها ، وصنعت صنعها ، إذا ما اطلقتها حتى كنت أرى مازن ، قد انفتحت قريحته للكلام ، وهو يعبر عن حزنه الغالب ، وبؤسه الشاحب ، وكأني قد شاطرته في مجال التعبير عنه ، وهو يقول :

ـ « أجل ، فإنه ليستحق الضحك بدلاً من الشعور بالأسى ، لأن شر المصائب ما يضحك ، وما أراك إلا انك أنت الآخر ، لا بد وان كنت قد استغربت منه مثل هذا الصنيع. فقاسم الذي كان يقول إن هؤلاء مزقوا حتى الصلاة ، وأرادوا أن يتخلصوا من عنائها ، فجعلوا يصلوها مجموعة ، كيما ينتهوا منها ويستريحوا ، فيصلوا الظهر والعصر معاً ، والمغرب والعشاء كذلك ».

. « وهذا الأفضل ، أليس كذلك؟! ».

وما كنت لأفوه بذلك حتى رماني بنظرات شزراء ، وكأن الشرر قد جعل

يتطاير منها .فقال ساخراً :

. « بالله عليك ، إن الوقت ليس وقت هذر وتندر ».

. « وماذا في ذلك؟ ».

. « أي ذلك؟ ».

. «ألا ترغب أن تصلي أيضاً ، وتنتبه كذلك إلى أوضاعك الأخرى في سائر الأوقات الأخرى ، وتسعى في مناكبها ، فلا نصير كحال ذلك الذي جعل يقضي عمره كله في المسجد ، ومن ثم وجدوا أن آمر الجحفل قد صار إلى التفكيك والتشتت .. لأ نه أهمل العناية بشأنه! وجعل يقضي عمره كله في المساجد .. ».

سكت ، وعدت بعدها إلى الكلام :

ـ « ألا يكون علينا أن نفكر ، ولا للحظة واحدة في حسن ما نجده لدى هؤلاء الشيعة ، فنستفيد منه نحن الآخرون .. ألا تجد أننا قد أسرفنا في مسائل عف الشيعة عن الوقوف عليها ، بمثل هذا المقدار الذي نقف نحن عليها .. فإن الله لا يدعو إلى التهلكة ، بل لا يكلف الإنسان فوق طاقته ».

. « إذن ، لقد صدق سمير؟ ».

. « ما الذي أخبرك به؟ ».

. « إنه هو الآخر قد تغير ، ولم يتغير قد كنت قد شاركته الحديث في يوم أمس ، إنه قد انقلب على عقبيه ».

. « أتقصد أنهأنقلب ظهراً لبطن أم .. ».

ـ « لا أعني ما قلت .. هل يثبت ذلك أنك أنت الآخر سائر في الدرب ، أم أنك تقف على الأعراف ، وتضع نفسك في جملة دول عدم الانحياز ».

. « هذا كلام معقول ».

وإذا بنبيل الذي ظل يحوم حول أطراف مجلسنا ، وهو يراقب انعكاسات حديثنا، كالدجاجة التي تريد أن تضع بيضها ، حتى إذا ما وجد الفرصة مؤاتية ، قفز إلى حلقتنا هذه ،ليقلبها مأتماً نعزي فيه بعضنا البعض الآخر. فقال :

. « .. وأكثر من ذلك ، فإن معسكري الشرق والغرب ، يعلن كل منهما عن مبادئه ، ويعلن بين الفينة والأخرى ، أنهما على أهبة الاستعداد لعقد أية مفاوضات ، تضمن صلحاً بعيد المدى .. مع أنهما لم يكونا وليدي الاعصار القديمة ، إنما هما قد أولدتهما الاحقاب المعاصرة. إلا أن هذا الأمر الذي بيننا وبين الشيعة ما أراه إلا أنه يغور في أعماق التاريخ حتى سيجر بأسبابه نحونا ، ويصير بنا صوب التسليم إلى حقيقة مفادها أن الميراث التاريخي لا بد وان يحلم بين شدقي العصور والدهور كل حرارة وتعاسة ».

قلت له :

. « لا بد أنك أنت الآخر تشعر بالحزن تجاه ما فعله قاسم؟ ».

. «ولم لا ، فإني ما كنت أجد أحداً أكثر تعصباً منه لدينه ومذهبه .. وإذا بي ألفيه في ليلة وضحاها يغير ، ليتغير لدينا قالب الحياة ولونها ».

. « لماذا ، أكنت تتعبد على مذهبك لأجل قاسم؟ ».

. «لا ، ولكني كنت أثق به ثقة عمياء جداً ، فلا يمكنك أن تتصور إلى اي حد كان له أن يؤثر على كافة قراراتي ».

. «أجده واضحاً لا شك ».

. « أتمزح؟ ».

ـ « ولم لا؟ وها أنت تثبت أنه ليس له سلطان عليك ولقد أفردته وحده ، دون صاحب وصديق ، إلا من تراهم حولنا من إخواننا الشيعة. إنه لا يمكن للعقيدة أن تتلاعب بعواطفنا ، فمهما كان لقاسم من تأثير على شخصيتي ، إلا أني ما كنت لا سمح له ولا لمقدار ذرة من الوقت أن يفحم عقيدتي في عرض مثل هذه الصداقة ، فيعرضها إلى الخطر لأجل أن لا يكون بميسوري مثلاً التضحية بمثلها .. هيهات! ».

. «أقول ، لو أن قاسماً انتقل من المذهب الحنفي إلى الشافعي وإلى الحنبلي ، أو إلى المالكي. أكان يستبد بك كل هذا الشك والقلق بمشاعر ، وأحاسيس قاسم ، بل أكان لك أن تقلب الصورة التي تخيلتها عن قاسم ، واحتفظت بها له في داخل سويداء قلبك ».

. «؟!».

وبعد قليل من الصمت ، عاد إلى التأكيد :

ـ « فلو أنه اختار أي مذهب آخر ، .. حقيقة! فلو أنه اختار أي من .. وتحرك في اطار هذه المذاهب ، لما كان لي أن أنسف رأسي بمثل هذا اللون من التفكير أو حتى بالتفكير به ».

فقلت له :

. « كف عن هذا ، يا أخ! إنك لتقلقني ، فإني لأراك كأبي لهب! ».

وعندها أمتقع لونه ، وذابت وجنتيه ، حتى خلته سيضربني أو يهوى على رأسي بفأس يخفيها في أعطاف ملابسه!

. « أبو لهب؟! ».

ابتدرني بعصبية ، فقلت له :

ـ «أعذرني ، ولكن من دون مقايسة ما بين الدين و التشبيه ، فإن أبو لهب عرض على رسول الله حتى عرض عليه الآخير الدخول في دين الإسلام ، إن يخبره في التعصب لواحدة مما يعبدها أبو لهب نفسه من بين الآلهة التي يعبدها المشركون من قريش ، أما مناة ، أو اللاة ، أو العزى .. فلو كان ليختار الرسول من يعبده أبو لهب ، لقبل الآخر عرضه ، ولتحزب له ولعاضده .. إلا أنه لما يدعوه إلى هذا الدين الجديد ، فإنه ليسوؤه مثل هذا الأمر ، كأشد ما يسؤه حتى يعلن له العداوة صريحاً ».

. « أتقارن مذاهبنا الأربعة بأصنام المشركين من قريش؟ ».

. «لا ، قلت لك ، لم أعن ذلك أبداً .. ولكني عنيت وجهالشبه ، وإني لأقسم ، لو كان لقاسم ان يتنصر ، ويصبح مسيحياً ، ويرتد عن دين الإسلام لما كان لك أن تظهر ما تظهره الآن .. وهذا لا يعني إلا التعبير عما تكنه في أنفسنا من عداء للشيعة والتشيع ليس إلا .. ذلك لأ نه وفي نظرنا أن الشيعة أخطر على الإسلام من المسيحية واليهودية ، وهو علينا الخطأ الشنيع بنظري .. ».

. « اسمع يا هذا ، إني لا احتمل منك أن تحدثني كذلك ».

عندها طفق مازن ينقل بخط لسانه الذي ألجمه طوال حديثي مع نبيل ،وقال مشيراً إلى نبيل أن يسكت ، وقال :

. « أظنني الآن أمام شخص يصعب التكهن بما يعتقد .. وهو بنظري أخطر على المرء من قاسم وغيره ».

ـ « لماذا يا أخ ، أراودك الشك في عقيدتي ، فلو كنت أغير ، فإني ما كنت لانتظر لحظة واحدة ، ولا كنت لأتردد في الاعلان عن صدق دعوتي في التشيع. إلا أني وكما قلت من قبل قد غدوت على الاعراف .. مع أني ما زلت

أتعبد على مذهبي ، وأحن إلى مذهبي ، وأقول في نفسي : ليتني أجد من يشاطرني العزاء ، ويصنع مذهباً يجمع بين المذهب الشيعي والسني ، فأريح واستريح من هذا العناء ».

فقال مازن :

. « هذا محال ، لا يمكن الجمع بين الخط الأبيض والأسود ».

. « ولماذا ، فما كان الفجر إلا كذلك؟ ».

عندها سكت ، ليعلن نبيل عن فكرة أخرى :

. « هذا لا يمكن .. ».

. « لماذا؟ ».

. « لأ نه لو كان أن يجتمع العا لم كذلك ، كان للمسيحي واليهودي أن يفكرا قبلنا ، في هذا الأمر ».

ـ « إنك تقلقني بعصبيتك الساذجة هذه ، إن المسلمين وحدة واحدة ، وما كانت مشاريع التقريب بين المذاهب إلا كذلك .. ».

. « إن هذه المشاريع ما هي إلا مداراة وتضييع للوقت ».

. « يجب علينا أن نتآلف مع بعضنا البعض ، ذلك أن دينهم واحد ورسولهم واحد. بينما لما قلت أنت فإن ما كان صاحب المسيحيين واليهود ، إلا أثنين من الرسل ، وما كانت شرعتهما إلا من ضمن الشرع البائدة والمنسوخة دون الإشارة فيها إلى عدم صحتهما .. لأن موسى وعيسى عليهما السلام ما كانا إلا مسلمين ، غير أني عنيت أن زمانهما أنقضي ، ما كان للعالمين إلا أن يذعنوا لدين محمد ».

. « هذا صحيح ، لا شك فيه ، ولكن .. ».

قاطعته :

. « ومما لا شك فيه كذلك ، هوأني كلما أبصرت إلى مذهبي ، وجدته قد أنقضي ، واعتصرته آي السنين من العصور والدهور .. ».

وهنا صرخ نبيل :

. « انك تستفزنا! ».

. « لا ، إني لا أستفز أيما أحد .. لأ ني وجدتني أقلد من منع من تقليد نفسه! ».

. «؟!».

. « .. بل ، ولربما حرم مثل هذا الأمر ، وخفي علينا واقعه ».

قال نبيل :

. «أتقول إن تقليدنا لأي أحد من الأئمة الأربعة ، ليس شرعياً ».

صمت لحظات ، ثم قلت له :

. « اسمع وع ..! ».

. « إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة ».

. « طيب وما معنى هذا الذي تقوله؟ ».

. « إن ما قلته ما كان إلا عبارة أطلقها لسان مالك بن أنس ».

. « الإمام مالك بن أنس؟! ».

. « أجل! ».

فقال مازن :

. « يقول هذا؟ ».

فقال نبيل :

. « وإذن ، فهل يمكنك أن تخبرنا بما يقوله الإمام الشافعي بهذا الخصوص؟ ».

. « يقول الشافعي : إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط ».

فكاد لب مازن أن يطيش قبل أن يخلب عقل نبيل! بينما عدت إلى الكلام ، وأنا أقول :

. « وإذا كان لكما شوق إلى سماع ما يقوله الإمام أبو حنيفة فهاكما أسمعا مني هذه المقولة : هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي غير هذا قبلناه. حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي ».

. « إنك تتجرى عليهم ».

قالها مازن!

. « لا والله ما كنت لأجترئ على أحد بأي ظلم! ».

في حين خيم علينا الصمت قليلاً ، وعاد نبيل إلى الكلام :

. « وهل يمكنك أن تخبرنا بما يقوله الإمام أحمد بن حنبل في هذا المقام؟ ».

فقلت له :

. « إنه يقول : ».

. « من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال ، لا تقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا ، وقيل له : لم لا تضع لأصحابك كتاباً في الفقه قال : ألأحد كلام مع كلام الله ورسوله؟ ».

وعندها قفز مازن ،وهو يعرب عن خطة كان قد بحث عن أوراقها طويلاً

حتى فتش عنها ووقع عليها بالتالي كيما تنقذه من قبضة هذا الأسر. فقال وكأنه قد خلص من مأزقه الذي لم ير أحد قد دبره سواي :

. « إن هذا هو رمز تواضعهم .. وهم لا يريدون حمل الناس على تقليدهم .. إن مثل هذا ليكون هو أقرب إلى مدحهم من القدح. معاذ الله. عليهم! ».

بينما تجاوزت كلامه ، وكأني لم أسمعه .. في حين كان نبيل يبتسم وكأنه كان قد استساغ الفكرة التي عرضها مازن ، إلا أني شعرت كما لوأنه كان في قرارة نفسه ، يزداد سخرية من مازن ومما يقول! فقلت :

. « لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله ».

فقال نبيل :

. « ومن قال هذا؟ ».

قلت :

. « محيي الدين بن العربي ».

فسكت كلاهما ، وكأنهما لم يسمعا باسمه ، فلم يرغبا أن يقولا أنا لا نعرف الرجل ، فأعلنا عن دقيقة صمت حداداً على ما تبقى لديهم من معلومات.

فقلت :

ـ «في حين يمكنني أن أورد لكم أقوال عديدة لعظماء من أعلام وعلماء العامة ، ومفكريهم وكتابهم! فهاكم قول الشعراني : ».

. «لم يبلغنا أن أحداً من السلف أمر أحداً أن يتقيد بمذهب معين ، ولو وقع ذلك منهم لوقعوا في الإثم ، لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذي أمر الخلق باتباعه وحده ، والشريعة حقيقة إنما هي مجموع ما

بأيدي المجتهدين كلهم لا بيد مجتهد واحد ، ومن أين جاء الوجوب ، والأئمة كلهم قد تبرأوا من الأمر باتباعهم ، وقالوا : إذا بلغكم حديث فاعملوا به واضربوا بكلامنا الحائط ».

فقال مازن :

. « وابن تيمية ».

فتابعه نبيل :

. « أجل .. ابن تيمية ، ترى ماذا يقول؟ ».

فقلت :

ـ « سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب ، وتبصر فيه ، واشتغل بعده بالحديث فوجد أحاديث صحيحة ، لا يعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً ولا معارضاً ، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث ، فهل له العمل بالمذهب ، أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه؟ ».

. « فبماذا أجاب : ».

سأل مازن ، فقلت له :

. « فأجاب بما هذا نصه : الحمد لله رب العالمين قد ثبت في الكتاب والسنة والإجماع أن الله افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صديق الأمة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ، و رضي الله عنه يقول : أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم. وأتفق كلهم على أنه ليس أحد

معصوماً في كل ما أمر الله به ونهى عنه إلا رسول الله ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء الأئمة الأربع رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولون ، وذلك هو الواجب ، قال الإمام أبو حنيفة : هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، لهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخراوات ، ومسألة الاجناس؟ فأخبر مالك بما دلت عليه السنة في ذلك. فقال أبو يوسف : رجعت لقولك يا أبا عبد الله ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. ومالك رحمه الله كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة ، أو كلام هذا معناه ، والشافعي رحمه الله كان يقول : إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط ، وإذا رأيت الحجة موضوعة على ففريق قولي ».

وعندها كانا قد أصبحا وكأن على رأسيهما الطير .. فلقد وفر عليهما هذا الخبر مؤونة السؤال عن مصادر مقالات ائمة المذاهب الأربعة التي أوردتها لهم .. وما أنساهم السؤال عنها إلا لحاجتهما واضطرابهما المتأرجح ما بين التسليم صاغرين وما بين العناد معاندين .. بينما خرج علي مازن هذه المرة وكأنه يطلق باتجاهي آخر قذيفة تيسر له العثور عليها .. فاطلقها ومن دون ان يعرف اين ستصطدم ، فقال لي :

. « وهذا الخبر ، أين قرأته ، هل يمكنك أن تخبرنا؟ ».

فقلت له وبكل هدوء وأناة :

. « انه في كتاب جلاء العينين للآلوسي ، ص ١٠٧ ».

. «؟!».

. « من حصر فضل الله على بعض خلقه ، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره ، فقد تجرأ على الله عز وجل ، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده الذين تعبدهم بالكتاب والسنة ، فإذا كان التعبد بهما مختصاً بأهل العصور السابقة ولم يبق لهولاء المتأخرين إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة كتاب الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة ، والمقالة الزائفة ، وهل النسخ إلا هذا؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ».

. « ومن قال هذا؟ ».

قالها مازن ..

قلت :

ـ « أوردها الآلوسي في جلاء العينين ، ص ١٠٧ ، حيث قال إن حسن خان كان هو قائلها ».

. « ليس على الإنسان التزام مذهب معين ، وأنه لا يجوز له العمل بما يخالف ما عمله على مذهبه مقلداً فيه غير إمامه مستجمعاً شروطه ، ويعمل بأمرين متضادين في حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى وليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء القاضي لا ينقض ».

. «؟!».

. « أما هذه فكانت لابن عابدين ».

. «؟!».

. « إعلم أن المقلد على غير فيما قلد فيه ، وفي التقليد إبطال منفعة العقل ،

لأ نه إنما خلق للتدبر ، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئهايمشي في الظلمة. وأعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال ، لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل ».

. « هه ، انتظر .. من قائل هذه الأخيرة؟ ».

الفصل السادس والعشرون

نبيل ومازن وما بين شكليات التحري المذهبي

وآراء العلماء المفكرين

. « انه جمال الدين بن الجوزي في : تلبيس إبليس ص : ٨١ ».

. « هات الأخرى ».

جعلت استشعر كلماتهم التي صارت تنسل من فيهما ، كأنها كلمات استسلام ليس غير!

. «إعلم أنه لم يكلف الله أحداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً ، أو حنبلياً ، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمداً ﷺ والعمل بشريعته ، وهذا منقول عن رسالة القول السديد ، ص ٣. والكلام هو لعبد العظيم المكي ».

. «؟!».

. « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك مقلد فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم ، جموداً على تقليد إمامه ، بل يتحيل لظاهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة ، نضالاً عن مقلده ، ولم يزل الناس يسألون من أتفق من العلماء إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم ليتبع إمامه مع بعد مذهبه عن

الأدلة ، مقلداً فيما قال كأنه نبي أرسل ، وهذا نأي عن الحق ، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب ».

. « وهذه الجمل ، لمن كانت؟ ».

. « نطق بها عز الدين عبد السلام في رسالة الانصاف ، ص ٣٧ ».

. « وقال الشيخ أبو شامة : ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام ، و يعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه ، وليتجنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف ، فإنها مضيعة للزمان ، ولصفوه مكدرة ، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ».

. « أين ورد هذا؟ ».

. « أورده فريد وجدي في دائرة المعارف ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ ».

ثم أردفت الكلام ، وأنا أقول :

ـ « وقال محمد علي مؤلف كتاب الدين الإسلامي : إن قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر ، بل على الإسلام الذي قلنا إنه جاء للناس كافة ، ليساير مختلف العصور والشعوب والآن بعد سير ألف سنة خلالها المسلمون جامدين ».

. «؟!».

. « وقال عبد المتعال الصعيدي ».

فانبرى نبيل ، وكأنه قد وقع على صيد عظيم حتى ظفر به ، فقال :

. « ومن هو هذا الصعيدي؟ ».

فقلت :

. « إنه أحد علماء الأزهر ، وهو ما صرح به في كتاب ميدان الاجتهاد ، ص ١٤ ».

. «؟!».

. « حيث قال : وإني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة ، وبوسائل القهر والاغراء بالمال ، ولا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة التي نقلدها الآن لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً ، لكانت الآن مقبولة عند من ينكرها ، فنحن إذاً في حل من التقيد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة ، وفي حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطرق القهر ، والإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين كما قال تعالى في الآية [٢٨] من سورة الشورى ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾.

. «؟!».

. « وقال الشاطبي : ».

. « رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة ، بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الإجتهاد ، وتكلم في المسائل ، ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير ، وفوقوا إليه سهام النقد ، وعدوه من الخارجين عن الجادة المفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل ، بل بمجرد الاعتبار العامي ، ولقد لقي بقي بن مخلد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرين حتى أصاروه مهجور الفناء ، مهتضم الجانب ، إلى أن يقول : وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه ، وهذا تحكيم الرجال على

الرجال ، والغلو في محبة المذاهب ».

. « أين ذكر الشاطبي مثل هذا؟ ».

. « ذكر في كتاب الاعتصام ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ».

. « بأي نص سد باب الاجتهاد؟ ».

فقال مازن :

. « تسألنا؟ ».

. « لست أنا الذي أسأل ، وإنما هو الاستاذ جمال الدين الافغاني! ».

. « وماذا يقول جمال الدين الأفغاني؟ ».

. « إنه يقول : بأي نص سد باب الاجتهاد؟ أو أي إمام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهدوا ليتفقوا في الدين ، أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجد ويجتهد بتوسيع مفهومه ، والاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه؟ ولا ينافي جوهر النص أن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليعلمهم ما يريد إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم ».

. «؟!».

. « ولقد جعل بعدها ، يردف كلامه بالقول : ولا أرتياب بأ نه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين مجدين ، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم زادوا فهماً وتدقيقاً ، نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا فجزاهم الله خير الجزاء ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن وتمكنوا من تدوينها في كتبهم ».

سأل مازن :

. « أين وردت هذه المقالة؟ ».

. « إنها وردت في كتاب : خاطرات جمال الدين ، ص ١٧٧ ».

بينما استدركت كلامي :

. « في حين كتب صاحب كتاب الفلسفة السياسية للاسلام ، وهو يقول في الصفحة : ٢١ ».

عندها قاطعني نبيل :

. « من هو هذا الذي تتكلم عنه؟ ».

فقلت :

. « إنه الدكتور عبد الدائم البقري الأنصاري ».

عدت بعدها إلى نقل مقالته :

ـ « منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين ، وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم ، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير ويبدل لأ نه لاعتبارات سياسية ».

في حين يصير يستدرك كلامه ، وهو يقول :

ـ « منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم ، ويطمئنوا إلى أنه لن يعارضهم معارض ، وإذا ما عارضهم أحد . لأ نه لا تخلو أمة من الأمم إلا وفيها المصلح النزيه ، والزعيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . فلن يسمع قوله لأن باب الاجتهاد قد أغلق. لهذا جمد التشريع الاسلامي الآن ، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الأمة ».

أخذ نبيل يتململ ، ولما شعرت أنه يتململ من قلة جهده ، وقصر باعه ،

وسكينة حيلته ، عدلت عن الانصراف وأرتأيت مواصلة قراءة أطراف المقالة ومن جديد :

ـ « .. وإني أرجع الفتنة الشعواء ، التي حصلت في عهد الخليفة عثمان التي كانت سبباً في وقف الفتح الإسلامي حيث تحولت في عهد الحرب الخارجية إلى حرب داخلية ، أرجع ذلك إلى أن عثمان كان من المحافظين ، وقد شرط ذلك على نفسه ، عندما وافق عبد الرحمن بن عوف على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعني دون اجتهاد عند انتخابه خليفة. ولم يوافق الامام علي على ذلك حينئذ قائلا : إن الزمن قد تغير ، فكان سبب تولي عثمان الخلافة هو سبب سقوطه ».

. «؟!».

ـ « ويقول العلامة العبدي في كتاب : النواة في حقل الحياة ، ص ١٢٦: كم بين دفتي التاريخ من أحزاب سياسية استحالت إلى مذاهب دينية ، رب مغفل أرعن يحقد على أخيه لاختلاف مذهبيهما اختلافاً في الفروع منشؤه الاجتهاد ، ولا يذكر أن كلمة التوحيد التي تجمعه وأخاه على خطر عظيم وأن حقده هذا يزيده خطراً ».

. « ... ».

ـ « ويمضي بالقول : الاجتهاد مجلبة اليسر ، واليسر من أكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع ، بالإجتهاد يتلاطم موج الرأي فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل ، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات ، فإذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاك القبيل؟ سد باب الاجتهاد اجتهاد فقل للقائل به إنك قائل غير ما تفعل ».

. « ... ».

ـ « في حين يطلع علينا بالقول آخر ، ليحكي لنا سر ما وقع عليه : هذا بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الإجتهاد الذي حدث في ظروف خاصة ولمآرب سياسية ، ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف بل ساروا على طريقة أهل البيت ، وأخذوا أحكام الإسلام عنهم بقي الاجتهاد مفتوحاً عندهم ».

. « ... ».

. « حتى يستدرك صاحب كتاب الوحدة الإسلامية كلامه وهو يقول : ولقد ألفت في هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء ، وكلهم ينددون في جمود التشريع على المذاهب الأربعة ويطلبون حل تلك العقدة التي عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلك إلا مصالح الدولة ، وقد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالي ، والعز بن عبد السلام وغير هما من الأئمة الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، فمنها بالنسبة إلى بعضهم كالمباراة المماراة ، وحب الظهور ، وما يتعلق بذلك ، ومنها المنافع ، المرافق في القضاء ، والافتاء ، والاوقاف بالنسبة إلى آخرين ».

. « ... ».

ـ « في حين يستطرد السيد محمد رشيد رضا وفي نفس الكتاب المذكور في

منه ، حيث يقول : ومنها الثقة والاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب والاقتصار عليه في التعليم والافتاء ،ومن طبع الإنسان أن ما يعتاده زمناً طويلاً يملك عيله أمره ويؤثر في نفسه تأثيراً يصرفها عن كل ما عداه ، إلا أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالتهم والصواب وجهتهم ».

وعندها قال مازن :

ـ « إنها كلمات حول الإجتهاد ، فهل يمكنك أن تدلنا على كلمات حول التقليد؟ ».

فقلت :

ـ « أما الذين يحاولون الجمود ويلتزمون بالتقليد فإنهم عجزوا عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد واقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص ، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد ، ونسبوا مدعيه إلى الجنون كما ذهب إليه الشيخ داوود النقشبندي في كتابه أشد الجهاد حيث يرى أن مدعي الاجتهاد ضال مبتدع ».

استبشر مازن ، وانقلبت سيماء وجهه إلى ضياء .. بينما استروح نبيل ما قلته حتى ودعتهما يستمعان إلى الثانية ، وأنا أقول :

. « ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم في تقسيم طبقات المجتهدين : الطبقة الثالثة : من نشأ من المسلمين من رأس المئة الرابعة ويجب على العامي تقليد المجتهد المنتسب لا غير ، أي لأحد المذاهب الأربعة لامتناع وجود المستقل من هذا التاريخ حتى اليوم ، ثم أورد على نفسه وأجاب ، وأهم شيء يعتمد عليه في أدلته ، قوله : إنه اجتمعت الأمة على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة فلا بد لنا من الرجوع إليهم ،ولا يرجع إلا إلى المروي عن السلف بسند صحيح مدون في الكتب المشهورة ، مع بيان الأرجح من دلالتها ، وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها ، ولا توجد هذه الخصوصيات إلا في المذاهب الأربعة ، وليس مذهب بهذه الصفة إلا الإمامية ،

والزيدية وهم أهل البدعة ».

فقال نبيل :

. « من تكلم أو فاه بهذا؟ ».

فقلت له :

. « قلت لك إنه الشيخ احمد بن عبد الرحيم ».

. « أقصد ، أين وردت مقالته هذه ، في أي كتاب جاء ذكرها؟ ».

. « في رسالة الإنصاف للدهلوي ، ص ٧ ».

وعندها طلعت عليهم بما شعرت بضرورة اتحافهما به ، فقلت لهما :

. « إنه لا يجوز الاعتماد على أقاويل هذين ».

. « ولماذا؟ ».

نطق كلاهما بهذه الكلمة معاً ..وفي وقت واحد ، لم أصدق ما رأيت ، حتى تابعت كلامي وأنا استشعر أن المسألة قد أصبحت مسألة عناد لا أكثر والتحمس للجانب مهما بلغ عليه من خطأ .. والتسليم لأي مدافع ومهما كانت هويته ، لأ نه كان قد أنضم إليهما للدفاع عما يعتقدان به ، لا أكثر! في حين رجعت اليهما ، فقلت لهما ، وذلك من بعد أن رأيتهما قد اعتصما بالهدوء وبالرغم منهما ، وذلك بعد أن لم يلقيا أيما أذن صاغية من عندي ، أو من بعد أن تعبا ولم يلفيا مني أيما ردود فعل تثير اهتمامهما :

ـ « هذا أهم ما عند الأخوة من أهل السنة من الأدلة. وذهب بعضهم الى القول بعصمة الأئمة الأربعة ،مستدلاً بعصمة النبي ، وهم ورثته! فهم معصومون من الخطأ ،وإذا كانوا كذلك فيجب الرجوع اليهم وحسب! ».

. «؟!».

ـ « ولا حاجة بنا إلى اطالة نقل أقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأمة بعد المذاهب الأربعة ، لأ نها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة أي أحد بعدهم لهذه الرتبة ، وإن مدعيها ضال مضل ».

. « مدعي ماذا؟ ».

قال مازن ، أجبته :

ـ « مدعي ملكة الاجتهاد (وحسب ما يدعون) : .. وإن مدعيها ضال مضل بل ممن يريد في الأرض الفساد ، ويجب إقامة الحد عليه ،ومن أدعى من الأمة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الأحكام الشرعية شنعوا عليه ، ورموه بالنكير. فهذا العلامة جلال الدين السيوطي أدعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير ، ووقعوا فيه ، وكذلك أنكروا على كل من أدعى ذلك ».

. «؟!».

ـ «والواقع أن في القرون المتأخرة رجالاً برهنوا بمؤلفاتهم على تلك الملكة التي أدعي استحالتها عليهم ، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب. فهذا أبو حامد أحمد بن محمد الاسفراييني فضلوه على الشافعي ».

قاطعني نبيل متسائلاً وبدهش مريب :

. « فضلوه على الشافعي؟ ».

. « أجل! وكثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلك الملكة ».

. « مثل من؟ ».

سألني مازن ، فقلت له :

. « كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، والشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني المتوفي سنة ٦٢٣ هـ ، واسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، ومحمد بن اسحاق صدرالدين القوني المتوفى سنة ٦٧٣ هـ وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ هـ ».

في حين استطردت في حديثي ، وأنا أقول :

. « وناهيك ما للقفال ، وإمام الحرمين الجويني ، والصيدلاني ، والسبخي السرخسي ، والجصاص ، من منزلة في العلم وموهبة في استنباط الأحكام ».

. « ولماذا لم تصلنا فتاواهم مثلما وصلت الينا فتاوى الأئمة الأربعة؟ ».

لأ نهم كانوا قد ألجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة ، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلك ».

فسأل مازن :

. « أقول : أين عثرت على كل هذه الأخبار؟ ».

. « إنها في كتاب : أشد الجهاد لمدعي الاجتهاد ، ص ٢٥ ».

واستدركت الكلام ، وأنا أقول :

. « وكان أبو الحسن الداركي أحد المجتهدين في عصره إذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر ، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة فينكرون عليه ذلك ، فيقول : ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول الله كذا وكذا ، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث ».

. «؟!».

ـ « ولقد لقي بقي بن مخلد من الأذى وشدة الانكار لدعوى الاجتهاد ما جعله مهجور الفناء ، مهتضم الجانب ، وكثير من أمثاله ، كابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم ».

. «؟!».

ـ « ولست أدري ما هذه الاستحالة وعدم الامكان من حصول درجة الاجتهاد والحكم على الرجال بالقصور والنقص وحصر الكمال في عدد معين بدون دليل؟ ونرى من الخير تعريف الاجتهاد والتقليد عندهم إجمالاً لنعرف مدى تحجير الأفكار ووقوف العقل عن إدراك ذلك ».

بينما قال مازن :

. « هل يمكنك أن تحدثنا عن الاجتهاد غير ما كنت قد حدثتنا به : ».

. « الاجتهاد لغة : هو بذل الوسع في ما فيه كلفة ، مأخوذ ـ كما نقل ابن أبي زرعة عن الماوردي ـ من جهاد النفس وكدها في طلب المراد ، وفي الاصطلاح على ما في جمع الجوامع : استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم ».

. « والفقيه والمجتهد؟ ».

سأل نبيل ، فأجبته :

. « والفقيه والمجتهد لفظان مترادفان وهو البالغ العاقل ، أي ذو ملكة يدرك بها العلوم وهذه الملكة العقل ».

فقال مازن :

. « هل يمكن أن تستشهد بالكلام؟ ».

. «قال أبو اسحاق : ومن كان موصوفاً بالبلادة والعجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد ، وفي انكاره للقياس خلاف ، وأن يكون عارفاً بالدليل العقلي وهو البراءة الأصلية ، وأن يكون عارفاً بلغة العرب وبالعربية وعلم النحو اعراباً وتصريفاً ، وبأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة وكيفية الإستنباط وبالبلاغة ليتمكن من الإستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة. وأن يكون عارفاً بالكتاب والسنة ولا يعتبر العلم بجميعها ولا حفظها ».

. « وغيره؟ ».

. « قال العلامة السبكي : المجتهد من هذه العلوم من له ملكة واحاطة بمعظم قواعد الشرع ، ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع ، ويعتبر على ما قيل كونه خبيراً بمواقع الاجتماع كيلا يحرفه ، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وشرط المتواتر والآحاد ، والصحيح الضعيف ، وحال المرويات وسير الصحابة ، ولا يشترط فيه الكلام ، وتفاريع الفقه ، والذكورة والحرية ، وكذا العدالة على الأصح ».

فعدت إلى كلامي وأنا أرى إلى كل من مازن ونبيل ، وقد سيطر عليهما الذهول من ضعف الاطلاع ، وقلة الباع ، وهزل البصيرة ،وعدم العلم بما يبحثان عنه دقيقاً .. أو يعاندان من أجله ،فقلت مستدركاً :

ـ « هذه هي شروط المجتهد عند أهل السنة ، وأنتما لو نظرتما إلى الواقع ، لم تجداه سبباً لمنعه من أجل قصور عن إدراكه لمن أراده ، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ، ولكن المانع شيء آخر! ».

فقال نبيل :

. « والتقليد؟ ».

ـ « والتقليد : هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله ، قال ابن أبي زرعة في شرح الجوامع : وقد اختلف العلماء في تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب ، أحدها وهو المشهور : جوازه ، وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم ».

. « والثاني؟ ».

. « والثاني : منعه ، وبه قال الإمام أحمد وابن سريح ، وأختاره القاضي حسين وغيره ، والثالث : يجوز لمن يعتقده فاضلاً ، أو مساوياً لغيره فإن اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه ».

بينما مضيت بالقول :

. « وكذا اختلفوا في تجويز تقليد الميت على أقوال :.

. « أحدها ».

. « أما أحدها ، فهو : جوازه ».

. « ومن قال به؟ ».

. « وبه قال الجمهور ، وعبر عنه الشافعي بقوله : المذاهب لا تموت بموت أربابها ».

. « والثاني؟ ».

. « والثاني ، هو : منعه ،أي منع تقليد الميت مطلقاً ».

. « وإلى من عزي هذا القول؟ ».

. « عزاه الإمام الغزالي لاجماع الاصوليين واختاره الامام فخر الدين. « والثالث؟ ».

. « وهو الأخير : يجوز مع فقد حي ولا يجوز مع وجوده ».

ثم اطنبت في الكلام ، وقلت :

. « وقال الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية : والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت ، انتهى. فتدبر. وقال ابن عابدين الشامي : إنه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل وبه قالت الحنيفة والمالكية والشافعية وأكثر الحنابلة ، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء : لا يجوز ».

الفصل السابع والعشرون

الخلفاء في الميزان : عدم التعبد بالنصوص الصريحة

كنت أفكر : هذا هو الحق! وهو أتباع كل ما ينص عليه الكتاب والسنة ، ويؤكد عليه العقل والاجماع ، ويدلل عليه العرف والفطرة ليس إلا ، وتنسج فحوى براهينه أدلة ثابتة ليس هناك إلى إبطالها أيما طريق .. والأكثر من هذا كله ، فإني أنا الآخر صرت لا أدري ما أفعل ، أجدني مرة كذلك استفز نفسي ، وأجدني أخرى أميل إلى أفكار الشيعة ،لأ نها كثيراً ما تناسب لون تفكيري وطبيعة تصوري عن الأشياء! وفي لحظات أخرى ، يصارعني الحنين إلى مذهبي وإلى تعاليمه ، وإلى طبيعة مناسكه ، وأتذكر وكأني وما زلت أذكر صلاة التراويح ، وكلمة آمين: كيف يرددها الجمع في الصلاة ، وغيرها كثير .. وهل يمكنني فراقها والتخلي عنها؟! حتى كأنها أصبحت قطعة مني .. وفي لحظة أخرى أردت فيها أن أصرخ بوجه كل من مازن ونبيل ، لا لشيء إلا لأنهما مازن ونبيل اللذين عرفتهما!

قال نبيل :

. « ما علينا إلا أن نذهب إلى مجموعة من علماء أهل السنة! ».

فقلت له :

ـ « ولو أخبرتك ، إنك لو قابلت أحدهم ، لساءك الحال ، ولرجوت الله أنه لم يدعك تفكر بمثل هذه الأفكار ، ولا للحظة واحدة من قبل ».

. « لماذا؟ إلى هذه الدرجة قد تغيرت ، وبلغ بك وجه الاختلاف ».

ـ « لا .. ولكني أعرف جوابهم مسبقاً ، فإنهم سيعارضون .. و .. وسيمنعوننا من التفكير أصلاً بمثل هذا الموضوع ، وسيعملون على إرشادنا إلى التنائي عن النقاش ، وأن ما لدينا هو الصحيح ، وما علينا إلا الرجوع إلى ما لدينا من كتب ، وما يكون بين يدي الشيعة فهو ليس إلا الضلال المبين. وما كان الأساس الشرعي في حكومة الأول إلا إجماع المسلمين ».

وعندها هتف مازن قائلاً :

. « صحيح .. الإجماع هو الأساس! ».

وقال نبيل :

ـ « إذا تم كل ما قلتم من العهد والوصية ، والنصوص الجلية ، فماذا تصنع باجماع الأمة على بيعة الصديق؟ وإجماعها حجة قطعية لقوله ﷺ : « لا تجتمع أمتي على الخطأ ، » وقوله ﷺ : « لا تجتمع على ضلال « فماذا تقول؟ ».

فقلت :

. « إن المراد من قوله ﷺ : « لا تجتمع أمتي على الخطأ » ، و « لا تجتمع على الضلال » ، « إنما هو نفي الخطأ والضلال عن الأمر الذي اشتورت فيه الأمة فقررته باختيارها ، واتفاق آرائها ».

. « وإذن ، فهذا الذي هو وبنظرك يمكن أن يتبادر من السنن!؟ فكيف؟ ».

ـ « أجل ، فهذا هو المتبادر من السنن لا غير! أما الأمر الذي يراه نفر من الأمة فينهضون به ، ثم يتسنى لهم إكراه أهل الحل والعقد عليه ، فلا دليل على صوابه ».

. « ليس هناك من إكراه في أيما أمر كان قد حصل ».

ـ « وبيعة السقيفة ماذا تقول عنها؟ إنها لم تكن عن مشورة ، وإنما قام بها الخليفة الثاني ، وأبو عبيدة ونفر معهما ».

. « أتقصد أنهم اجتهدوا؟ والشيعة؟ ألا يقولون بالاجتهاد ، فلم يحرمونه هنا ويحللونه لديهم ».

. «لأن اجتهاد الخليفة ومن معه كان خلاف النص؟ وهذا مرفوض قطعاً ».

. « أقول : إنك تتكلم وكأنك شيعي ولست بسني ».

. « دعنا من هذا الكلام .. إن ما أقوله هو ما ظل وجعل يتلجلج في أعماقي ، إني أبحث له عن جواب قانع ، فلا أجد ما يبل جوفي ويسكن فورة فؤادي ».

. « وبعد؟ ».

. « .. أجل ، وإنما قام بها الخليفة الثاني ، وأبو عبيدة ونفر معهما ».

. «؟!».

. « ثم فاجأوا بها أهل الحل والعقد ، وساعدتهم تلك الظروف على ما أرادوا ».

فقال نبيل :

. « إني قد سمعت وقرأت أن بيعة السقيفة كانت قد حدثت عن مشورة وروية ».

فقلت له :

ـ « إن الخليفة والصحابي أبو بكر ، هو بنفسه يصرح ويعلن أمام الملأ ويقول : بأن بيعته لم تكن عن مشورة ولا عن روية ».

. « أين؟ ».

. «وذلك حيث خطب الناس في أوائل خلافته معتذراً إليهم ».

. « وماذا قال؟ ».

. « لقد قال للناس : أن بيعتي كانت فلتة ، وقى الله شرها وخشيت الفتنة ».

. « من أخرج هذه الخطبة؟ ».

. « أخرجها أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، في كتاب السقيفة ونقلها ابن أبي الحديد ص ١٣٢ من المجلد الأول من شرح النهج. والصحابي عمر بن الخطاب نفسه ، يشهد بذلك على رؤوس الأشهاد في خطبة خطبها على المنبر النبوي يوم الجمعة في أواخر خلافته ، وقد طارت كل مطير ».

. « وهذه الأخرى من كان قد أخرجها؟ ».

. « لقد أخرجها البخاري في صحيحه ».

. « البخاري؟ ».

كان نبيل هو الذي يتداول الحديث معي ، ومازن يصغي ، فقلت لهما :

. « يمكنكما أن تراجعا من الصحيح باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت . وهو في ص ١١٩ من جزئه الرابع. وأخرجها غير واحد من أصحاب السنن والأخبار كابن جرير الطبري في حوادث سنة ١١ من تاريخه ونقلها ابن أبي الحديد ص ١٢٢ من المجلد الأول من شرح النهج ».

وعندها ابتدرني مازن ، وهو يقول :

. « هل يمكن أن تنقل الي محل الشاهد؟ ».

. «وإليك محل الشاهد منها بعين لفظه ، قال : ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول : والله لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة

أبي بكر فلتة وتمت ، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها (إلى ان قال) : من بايع رجلاً من غير مشورة فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا ».

. «؟!».

. « أتدرون من كان هو القائل؟ ».

. « من كان؟ ».

قال ذلك نبيل ، فقلت :

. « والقائل هو ابن الزبير ونص مقالته : والله لو مات عمر لبايعت عليا فإن بيعة أبي بكر إنما كانت فلتةوتمت ، فغضب عمر غضبا شديداً وخطب هذه الخطبة ».

. « ومن صرح بهذا كله؟ ».

. « صرح بهذا كثير من شراح البخاري ».

. «؟!».

. « راجع تفسير هذا الحديث من شرح القسطلاني ص ٣٥٢ من جزئه الحادي عشر ، تجده ينقل ذلك عن البلاذري في الأنساب مصرحاً بصحة سنده على شرط الشيخين ».

بينما التفت الي نبيل ، وهو يقول :

ـ « إن لدينا من المفسرين والمؤرخين ما بمستطاعهم أن يثبتوا أن بيعة السقيفة كانت قد وقعت عن مشورة وعن غير استبداد في الرأي! ».

. « مثل من؟ ».

. « مثل ابن الأثير! ».

وعندها ابتسمت وقلت له :

. « استمع إلى ما أقوله لك : قال ابن الأثير في تفسير هذا الحديث (الحديث الخاص بعمر) من نهايته ، تغرة ، مصدر غررته إذا ألقيته في الغرر ، وهي من التغرير كالتعلة من التعليل ، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره خوف تغرة أن يقتلا ، أي خوف وقوعهما في القتل ، فحذف المضاف الذي هو الخوف ، وأقام المضاف إليه الذي هو تغفرة مقامه ، وانتصب على أنهمفعول له ، ويجوز أن يكون قوله إن يقتلا بدلاً من تغرة ، ويكون المضاف إليه محذوفاً كالأول ، ومن أضاف تغرة إلى أن يقتلا فمعناه خوف تغرة قتلهما ».

. « ما معنى ما تقول؟ ».

. « .. (قال) ومعنى الحديث : إن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والاتفاق ، فإذا استبد رجلان دون الجماعة فبايع أحدهما الآخر ، فذلك تظاهر منهما بشق العصا واطراح الجماعة ، فإن عقد لأحد بيعة فلا يكون المعقود له واحداً منهما وليكونا معزولين من الطائفة التي تتفق على تمييز الإمام منها ، لأ نه إن عقد لواحد منهما وقد ارتكبا تلك الفعلة الشنيعة التي احفظت الجماعة من التهاون بهم والاستغناء عن رأيهم ، لم يؤمن أن يقتلا ».

. «؟!».

بينما عدت إليهما ، وأنا أقول :

ـ « أما أنا فأقول : كان من مقتضيات العدل الذي وصف به عمر أن يحكم بهذا الحكم على نفسه وعلى صاحبه كما حكم به على الغير ، وكان قد سبق منه ـ قبل قيامه بهذه الخطبة ـ أن قال : إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، فمن عاد إلى مثلها فأقتلوه ، واشتهرت هذه الكلمة عنه أي اشتهار ونقلها عنه

حفظة الأخبار ، كالعلامة ابن أبي الحديد في ص ١٢٣ من المجلد الأول من شرح النهج ».

. « عد إلى حديث ابن الأثير ، وأخبرنا ماذا يقول؟ ».

. « (قال) : وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا ، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالف عنا علي الزبير ومن معهما ، ثم استرسل في الإشارة إلى ما وقع في السقيفة من التنازع والاختلاف في الرأي وارتفاع أصواتهم بما يوجب الفرق على الإسلام ، وان عمر بايع أبا بكر في تلك الحال ».

فقال نبيل :

. « ولقد تخلف علي بن أبي طالب واصحابه عن بيعة السقيفة ، أليس كذلك؟ ».

. « ومن المعلوم بحكم الضرورة من إخبارهم أن أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة لم يحضر البيعة أحد منهم قط ، وقد تخلفوا عنها في بيت علي ، معهم سلمان ، وأبي ذر ، والمقداد ، وعمار ، والزبير ، وخزيمة بن ثابت وأبي بن كعب ، وفروة بن عمرو بن ودقة الأنصاري ، والبراء بن عازب ، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي ، وغير واحد من أمثالهم : فكيف يتم الاجماع مع تخلف هؤلاء كلهم ، وفيهم آل محمد كافة وهم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسد ، والعينين من الوجه ، ثقل رسول الله وعيبته ، وأعدال كتاب الله سفرته ».

. « ثانية وثالثة أنا نقول إنك تتحدث بلسان يفرط أكثر مما يفرطه لسان شيعي؟ ».

ـ « إن هذا لا يضر ، طالما اجتمعنا هاهنا لأجل أن نخرج بنتيجة معينة ، وسواء أخرجنا بها اليوم أم في غد! ».

بينما عدت إلى الكلام :

. « إن ما وجدته في الروايات وجعل يدوخني ويصرعني أكثر فأكثر ، هو أن آل محمد ما كانوا إلا سفن نجاة الأمة وباب حطتها ، وأمانها من الضلال في الدين ، وأعلام هدايتها ».

. «؟!».

. « .. على أن شأنهم غني عن البرهان ، بعد أن كان شاهده الوجدان ».

بينما رجع مازن ، يشكك في تخلف علي بن أبي طالب عن البيعة ، وهو يقول :

. « لا أظن بأن علياً قد تخلف عن بيعة السقيفة؟ ».

. « لقد أثبت البخاري ومسلم في صحيحيهما وغير واحد من أثبات السنن والخبار ، تخلف علي عن البيعة ، وأنه لم يصالح حتى لحقت سيدة النساء بأبيها ﷺ ، وذلك بعد البيعة بستة أشهر ، حيث اضطرته المصلحة الإسلامية العامة في تلك الظروف الحرجة إلى الصلح والمسالمة » [1].

فقال نبيل متراجعاً عن نظراته وحدته :

ـ « إن أهل السنة لا ينكرون أن البيعة لم تكن عن مشورة ولا عن روية ، يسلمون بأنها إنما كانت فجأة وارتجالاً ، ولا يرتابون في مخالفة الأنصار وانحيازهم إلى سعد ».

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ٣٩ باب غزوة خيبر ، صحيح مسلم ٢ : ٧٢ من كتاب الجهاد والسيرة.

قاطعه مازن وهو يستدرك كلامه ،ولقد كان هو الآخر يتنازل مذعناً ، بعد أن وجد نبيل يعلن صاغراً عن مثل ذلك ، فقال :

ـ « .. كذلك ، فإنهم لا يرتابون ، ولا حتى في مخالفة بني هاشم واوليائهم من المهاجرين والانصار ، وانضوائهم إلى الامام ، لكنهم يقولون : إن أمر الخلافة قد استتب أخيراً لأبي بكر ، ورضيه الجميع إماماً لهم ، فتلاشى ذلك الخلاف ، وارتفع النزاع بالمرة ، واصفق الجميع على موازرة الصديق والنصح له في السر والعلانية ، فحاربوا حربه ، وسالموا سلمه ، وأنفذوا أمره ونهيه ، لم يختلف منهم عن ذلك أحد ، وبهذا تم الاجماع ، وصح عقد الخلافة ».

فقلت :

. « أصفاقهم على مؤازرة الصديق ، والنصح له في السر والعلانية شيء وصحة عقد الخلافة له بالاجماع شيء آخر ، وهما غير متلازمين عقلاً ولا شرعا فإن لعلي والأئمة المعصومين من بنيه مذهباً في مؤازرة أهل السلطة لإسلامية معروفاً ، وهو الذي ندين الله به ، وأنا أذكره لك جواباً عما قلت ».

فقال نبيل :

. « وحاصله؟ ».

. « وحاصله : هو أن من رأيهم أن الأمة الإسلامية لا مجد لها إلا بدولة تلم شعثها ، وترأب صدعها ، وتحفظ ثغورها ، وتراقب أمورها ، وهذه الدولة لا تقوم إلا برعايا تؤازرها بأنفسها وأموالها ، فان أمكن أن تكون الدولة في يد صاحبها الشرعي ».

. « صاحبها الشرعي؟ ».

ـ « أما صاحبها الشرعي : فهو النائب في حكمه عن رسول الله ﷺ نيابة صحيحة ».

. « طيب! ».

. « .. فهو المتعين لا غير ».

. « وإن تعذر ذلك ، فاستولى على سلطان المسلمين غيره؟ ».

ـ « وجبت على الأمة مؤازرته في كل أمر يتوقف عليه عز الإسلام ومنعته ، وحماية ثغوره وحفظ بيضته ، ولا يجوز شق عصا المسلمين ، وتفريق جماعتهم بمقاومته بل يجب على الأمة أن تعامله . وإن كان عبداً مجدع الأطراف . معاملة الخلفاء بالحق ».

. « فتعطيه خراج الأرض ومقاسمتها ، وزكاة الأنعام وغيرها ».

ـ « أجل! ولها أن تأخذ منه ذلك بالبيع والشراء ، وسائر أسباب الانتقال ، كالصلات والهبات ونحوها ، بل لا إشكال في براءة ذمة المتقبل منه بدفع القبالة إليه ، كما لو دفعها إلى إمام الصدق ، والخليفة بالحق ، هذا مذهب علي والأئمة الطاهرين من بنيه ».

. « هل لك أن تثبت مثل ذلك من السنة النبوية؟ ».

ـ « وقد قال ﷺ : « ستكون بعدي إثرة وأمور تنكرونها ، قالوا :يارسول الله كيف تأمر من إدرك منا ذلك ، قال ﷺ : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم » [1].

. « ولقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، يقول : إن خليلي رسول

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ١١٨.

الله ﷺ أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الاطراف » [1].

. « وقال سلمة الجعفي (فيما أخرجه عنه مسلم وغيره) : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ، ويمنعوننا حقنا ، فما تأمرنا؟ فقال ﷺ : اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ما حملتم ».

. «؟!».

. « وقال ﷺ في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ، ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس ، قال حذيفة : قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال ، تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فاسمع له واطع » [2].

ـ « ومثله قوله ﷺ ، في حديث أم سلمة : « ستكون أمراء عليكم ، فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف برئ ، ومن أنكر سلم » [3].

قاطعني :

. « وما معنى قوله : فمن عرف برئ ، ومن أنكر سلم؟ ».

. « والمراد بقوله ﷺ : فمن عرف برئ ، أن من عرف المنكر ولم يشتبه عليه ، فقد صار له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته بأن يغيره بيده أو بلسانه ، فان عجز فليكرهه بقلبه ».

. « تابع ذكر الحديث؟ ».

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٢٠.

(٣) صحيح مسلم ٢ : ١٢٢.

. « .. قالوا : أفلا نقاتلهم؟ قال : لا ما صلوا ».

. « وإذن ، فأنت تدعي أن الصحاح في ذلك هي متواترة؟ ».

. « أجل ، فالصحاح في ذلك متواترة ، ولا سيما من طريق العترة ، ولذلك صبروا وفي العين قذي ، وفي الحلق شجي ، عملاً بهذه الأوامر المقدسة وغيرها مما عهده النبي ﷺ إليهم بالخصوص ، حيث أمرهم بالصبر على الأذى ، والغض على القذى ، احتياطاً على الأمة ، واحتفاظا بالشوكة ، فكانوا يتحرون للقائمين بأمور المسلمين وجوه النص ».

. « وكيف كان منهم مثل ذلك؟ ».

. « ولقد كانوا كذلك من استئثارهم بحقهم على أمر من العلقم ، ويتوخون لهم الرشد مناهج ، وهم . من تبوئهم عرشهم . على آلم للقلب من جز الشفار ، تنفيذا للعهد ، ووفاء بالوعد ، وقياماً بالواجب شرعاً وعقلاً من تقديم الاهم . في مقام التعارض . على المهم ».

. « وهل كان لعلي أن يواجه الخلفاء الثلاثة في أيام خلافتهم؟ ».

. « ولذا ، فإنه كان قد محض أمير المؤمنين كلا من الخلفاء الثلاثة نصحه ، واجتهد لهم في المشورة. ومن تتبع سيرته في أيامهم ، على أنه بعد أن يئس من حقه في الخلافة عن رسول الله ﷺ ، بلا فصل ، شق بنفسه طريق الموادعة ، وآثر مسالمة القائمين بالأمر فكان يرى عرشه (المعهود به إليه) في قبضتهم ، فلم يحاربهم عليه ، ولم يدافعهم عنه احتفاظا بالأمة واحتياطاً على الملة ، وضنا بالدين ، وإيثاراً للآجلة على العاجلة ».

. « وإذن ، فأنت تصادق على ما تقوله الشيعة؟ ».

. « إني أمامكم أصرح بما يصرح به قلبي ، ولربما لم أصرح به أمام أحد من

الشيعة أو المستبصرين ، أو أن صرحت به ، أو لم أصرح ، فما كنت لأصرح به على مثل هذه الصراحة والصدق! ».

. « لماذا؟ ».

ـ «لأني قد تحققت ، وتحريت أمور التاريخ ، فوجدت علياً كان قد مني حقاً بما لم يمن به غيره ، حيث مثل على جناحيه خطبان فادحان ، الخلافه بنصوصها وعهودها إلى جانب ، تستصرخه وتستفزه اليها بصوت يدمى الفؤاد ، وأنين يفتت الأكباد ، والفتن الطاغية إلى جانب آخر ، تنذره بانتفاض الجزيرة ، وانقلاب العرب ، واجتياح الإسلام ، وتهديده بالمنافقين من أهل المدينة ، وقد مردوا على النفاق ، وبمن حولهم من الأعراب ».

. «؟!».

ـ « وهم منافقون بنص الكتاب ، بل هم أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله وقد قويت بفقده ﷺ ، شوكتهم ».

. « لماذا؟ ».

ـ « إذ صار المسلمون بعده كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، بين ذئاب عادية ، ووحوش ضارية ، ومسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأفاك ، وسجاح بنت الحرث الدجالة ، وأصحابهم قائمون . في محق الإسلام وسحق المسلمين . على ساق ، والرومان والأكاسرة وغيرهما ، كانوا بالمرصاد ، إلى كثير من هذه العناصر الجياشة بكل حنق من محمد وآله وأصحابه ، بكل حقد وحسيكة لكلمة الإسلام تريد أن تنقض أساسها ، وتستأصل شأفتها ، وأنها لنشيطة في ذلك مسرعة متعجلة ، ترى أن الأمر قد استتب لها ».

. « .. ماذا تقصد؟ ».

بينما واصلت حديثي ، وكأني لم أسمع منه أيما تعليق أو سؤال :

ـ « .. وان الفرصة ـ بذهاب النبي ﷺ ، إلى الرفيق الأعلى ـ قد حانت ، فأرادت أن تسخر الفرصة وتنتهز تلك الفوضى قبل أن يعود الإسلام إلى قوة وإنتظام ».

ـ « وعليه ، ما الذي كان قد صنعه علي بن أبي طالب .. أقصد بنظرك أنت شخصياً ؟ ».

ـ « لقد وفق أمير المؤمنين بين هذين الخطرين ، فكان من الطبيعي له أن يقدم حقه قرباناً لحياة الإسلام ، وايثاراً للصالح العام ، فأنقطاع ذلك النزاع ، وارتفاع الخلاف بينه وبين أبي بكر ، لم يكن إلا فرقا على بيضة الدين ، واشفاقا على حوزة المسلمين ، فصبر هو وأهل بيته كافة ، وسائر أوليائه من المهاجرين والانصار ، وفي العين قذى ، وفي الحلق شجى ، كلامه مدة حياته بعد رسول الله ﷺ صريح بذلك ، والأخبار في هذا متواترة عن أئمة العترة الطاهرة ».

ـ «لكن سيد الأنصار سعد بن عبادة لم يسالم الخليفتين أبداً ».

ـ « أجل إنه لم يسالمهما ، لأ نه لا يتحمل ما يتحمله علي ، فلم تجمعه معهما جماعة في عيد أو جمعة ، وكان لا يفيض بافاضتهم ، ولا يرى أثراً لشيء من أوامرهم ونواهيهم ، حتى قتل غيلة بحوران على عهد الخليفة الثاني ، فقالوا : قتله الجن ».

ـ « قتله الجن؟! ».

ـ «وأنت الآخر تعجب من كلامهم ، ولك الحق جداً في عجبك ، فإني أنا الآخر كنت قد عجبت من مثل هذا الكلام المطحون! ».

. « ولقد تحدث هو في يوم السقيفة وبعصبية؟ أليس كذلك؟ ».

. « نعم ، فإن له كلام يوم السقيفة ، وبعده لا حاجة بنا الآن إلى ذكره ».

. « وأصحاب علي بن أبي طالب ، ماذا كانوا قد فعلوا؟ ».

ـ «فأما أصحابه كحباب بن المنذر ، وغيره من الأنصار ، فإنما خضعوا عنوة ، واستسلموا للقوة ، فهل يكون العمل بمقتضيات الخوف من السيف ، أو التحريق بالنار ».

. « أو التحريق بالنار؟ ».

. «أجل! أو التحريق بالنار! فتهديدهم علياً بالتحريق ، هو ثابت بالتواتر القطعي ».

. « تهديدهم علي بالتحريق؟ ».

. « وحسبك ما ذكره الإمام ابن قتيبة في أوائل كتاب الإمامة والسياسة والإمام الطبري في موضعين من أحداث السنة الحادية عشرة من تاريخه المشهور ، وابن عبدر به المالكي في حديث السقيفة من الجزء الثاني من العقد الفريد ، وأبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة كما في ص ١٣٤ من المجلد الأول من شرح النهج الحميدي الحديدي ، والمسعودي في مروج الذهب ».

. « وماذا جاء فيما ذكروه؟ ».

ـ « ..نقلاً عن عروة بن الزبير في مقام الاعتذار عن أخيه عبد الله ، إذ هم بتحريق بيوت بني هاشم حين تخلفوا عن بيعته ، والشهرستاني نقلاً عن النظام عند ذكره الفرقة النظامية من كتاب الملل والنحل ، وأفرد أبو مخنف لأخبار السقيفة كتاباً فيه تفصيل ما أجملته ، وناهيك في شهرة ذلك تواتره قول شاعر

النيل الحافظ إبراهيم ».

. « الشاعر المصري المشهور؟ ».

. « أجل ، حافظ إبراهيم هو بنفسه! وذلك في قصيدته العمرية السائرة الطائرة : ».

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها ».

حرقت دارك لا أبقي عليك بها إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها ».

ما كان غير أبي حفص بقائلها إمام فارس عدنان وحاميها ».

. « عجيب ، لا أصدق؟ ».

. « هذه معاملتهم للإمام الذي لا يكون الاجماع حجة عند الشيعة إلا إذا كان كاشفاً عن رأيه ، فمتى يتم الاحتجاج بمثل اجماعكم هذا على الشيعة ، والحال هذه؟ أيمانا بعقد البيعة؟ ومصداقا للإجماع المراد من قوله ﷺ : لا تجتمع أمتي على الخطأ ».

فقال مازن :

ـ « إن أولي البصائر النافذة ،والرؤيا الثاقبة ، ينزهون الصحابة عن مخالفة النبي ﷺ ، في شيء من ظواهر أوامره ونواهيه ، ولا يجوزون عليهم غير التعبد بذلك ، فلا يمكن أن يسمعوا النص على الإمام ثم يعدلوا عنه أولاً وثانياً وثالثاً ، وكيف يمكن حملهم على الصحة في عدولهم عنه مع سماعهم النص عليه؟ وما أراك بقادر على أن تجمع بينهما؟ ».

فقلت :

ـ « أفادتنا سيرة كثير من الصحابة أنهم إنما كانوا يتعبدون بالنصوص إذا كانت متمحضة للدين ، مختصة بالشؤون الأخروية، كنصه ﷺ ، على صوم

شهر رمضان دون غيره ، واستقبال القبلة في الصلاة دون غيرها ، نصه على عدد الفرائض في اليوم والليلة وعدد ركعات كل منها وكيفياتها ، نصه على أن الطواف حول البيت أسبوع ، ونحو ذلك من النصوص المتمحضة للنفع الأخروي ».

. «وما كان منها متعلقاً بغير ذلك ، فما كانوا يفعلون إزاءه؟ ».

ـ «أما ما كان متعلقاً منها بالسياسة كالولايات والامارات ، وتدبير قواعد الدولة ، وتقرير شؤون المملكة ، وتسريب الجيش ، فإنهم لم يكونوا يرون التعبد به والالتزام في جميع الاحوال ، بالعمل على مقتضاه ، بل جعلوا لأفكارهم مسرحا للبحث ،ومجالاً للنظر والاجتهاد ، فكانوا إذ رأوا في خلافه ، رفعا لكيانهم ، أو نفعا في سلطانهم ، ولعلهم كانوا يحرزون رضا النبي بذلك ».

. « وكيف يمكن أن يحصل مثل ذلك؟ ».

. « لقد كان قد غلب على ظنهم أن العرب لا تخضع لعلي ، ولا تتعبد بالنص عليه ، إذ وترها في سبيل الله ، وسفك دماءها بسيفه في أعلاء كلمة الله، كشف القناع منابذاً لها في نصرة الحق ، حتى ظهر أمر الله على رغم عادة كل كفور ، فهم لا يطيعونه إلا عنوة ، ولا يخضعون للنص عليه إلا بالقوة ، وقد عصبوا به كل دم أراقه الإسلام أيام النبي ﷺ ،جرياً على عادتهم في أمثال ذلك ، إذ لم يكن بعد النبي في عشيرته ﷺ .. أحد يستحق أن تعصب به تلك الدماء عند العرب غيره ، لأ نهم انما كانوا يعصبونها في أمثل العشيرة ، وأفضل القبيلة وغير ذلك. ولذا تربص العرب به الدوائر ، وقلبوا له الأمور ، وأضمروا له ولذريته كل حسيكة ، ووثبوا عليهم كل وثبة ، وكان ما كان مما طار في

الأجواء ، وطبق رزؤه الأرض والسماء ».

. « كذلك؟ ».

. «وأيضا! فإن قريشاً وسائر العرب، كانوا يجدونه على ما آتاه الله من فضله ، حيث بلغ به في علمه وعمله رتبة . عند الله ورسوله وأولي الألباب . قاصر عنها الاقران ، وتراجع عنها الاكفاء ، و نال من الله ورسوله بسوابقه وخصائصه منزلة ، تشرئب إليها أعناق الأماني ، وشأوا تنقطع دونه هوادي المطامع ، وبذلك دبت عقارب الحسد له في قلوب المنافقين ، واجتمعت على نقض عهده كلمة الفاسقين والناكثين والقاسطين والمارقين ، فأتخذوا النص ظهرياً ،وكان لديهم نسياً منسياً ».

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر »

. « وغير هذا كله؟ ».

. «وأيضا! فإن قريشاً وسائر العرب ، كانوا قد تشوقوا إلى تداول الخلافة في قبائلهم. واشرأبت إلى ذلك اطماعهم ، فأمضوا نياتهم على نكث العهد ، وجهوا عزائمهم إلى نقض العهد ، فتصافقوا على تناسي النص ، تبايعوا على أن لا يذكر بالمرة ، وأجمعوا على صرف الخلافة من أول أيامها عن وليها المنصوص عليه من نبيها ، فجعلوها بالانتخاب والاختيار ».

. « ولماذا تراهم يفعلون مثل هذا؟ ».

. « وذلك ، ليكون لكل حي من أحيائهم أمل في الوصول إليها ولو بعد حين ، ولو تعبدوا بالنص ، فقدموا علياً بعد رسول الله ﷺ وهو الذي ما خرجت الخلافة من عترته الطاهرة ، حيث قرنها رسول الله ﷺ يوم الغدير وغيره بمحكم الكتاب ، وجعلها قدوة لأولي الألباب ، إلى يوم الحساب ».

ـ « وأيضا! فإن من ألم بتاريخ قريش والعرب في صدر الإسلام يعلم أنهم لم يخضعوا للنبوة الهاشمية ، إلا بعد أن تهشموا ، ولم يبق فيهم من قوة فكيف يرضون باجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم ، وقد قال عمر بن الخطاب لابن عباس في كلام دار بينهما : إن قريشا كرهت ان تجتمع فيكم النبوة والخلافة فتجحفون على الناس » [1].

ـ « وعليه ، فنسج الناس في تناسي النص على منوالهم ، وجاء بعدهم بنو أمية ولا هم لهم إلا اجتياح أهل البيت واستئصال شأفتهم ، ومع ذلك كله فقد وصل إلينا من النصوص الصريحة في السنن الصحيحة ما فيه الكفاية ».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ١٠٧.

الفصل الثامن والعشرون

المذهب الشيعي ما بين المستوى والطموح

بعد مضي يومين ، جاءني نبيل مرة أخرى .. كان لوحده ، وبعد أن تبادلنا أطراف الحديث ، عرج بي إلى موضوع الساعة ، ومن بعد أن اكتسب ما يناسبه من الأخبار، كان قد تشوف لأن يفيض علي باستنتاجاته وخلاصة توصلاته .. فقال لي :

. «لا أراك إلا أنك تحمل نفساً ، يتعصب لمخالفي أهل السنة » ».

فقلت :

ـ « وما أراك يا نبيل انك لم تكن إلا أبعد الناس عن التفكير في المسائل العقائدية عموماً ، وليس فيما يتعلق بما يرتبط بهذا الموضوع على الأخص ».

فقال :

ـ « وأنا الآخر ، صرت أراك تلجأ إلى القاء سيل التهم ، وتوخي سبيل الإهانة من أجل أن تدرأ عن نفسك هجمات ، ليس لك أن تجيب عليها ».

فقلت له ، وأنا أمعن فيه جيداً :

ـ « نبيل ، هل تريد أن أطلعك على حقيقة ربما أفادتك في مختلف مرافق حياتك العملية المستقبلية منه على وجه العد .. إن حالك يشبه حال الصغير الذي تلقى إليه لعبة ثمينة ، فلا يهتم بها حتى إذا ما رأى أحد إخوته الآخرين يحاول الاهتمام بها ، عدا إليها ، وتسابق من أجلها كيما يسلبها منه ،مدعياً أنه

يرغب الاحتفاظ واللعب بها! فإني أكاد أجزم أنك لم تكن لتهتم بأمورك الدينية ، ولا في أي لحظة من لحظات عمرك الماضية ..وما كنت تدري كثيراً من الحقائق! إلا أنه لما أجتمع الأمر إلى قرين له ،صرت تدعي وصلاً بليلى، كما يمكن أن يدعيه البعض حال انتصار إحدى الثورات التي لم يشترك فيها قط ، بأ نه كان من المتصدين الأوائل ، وأن له أن يحوز على مركز ما ،في السلطة الجديدة مثلاً ! ».

. « اشكرك على كل هذا الإطراء! ».

. « قلت لك ، إن هذا كله، كان هدية من أخيك ،تأسياً بقول رسول الله : رحم الله من أهدى إلي عيوبي! ».

. « إن ما أريد أن أذكرك به ، واذكر به نفسي هو ضرورة نبذ العصبية ،وما أراها إلا كحمية الجاهلية الأولى التي نرى لها وجودات تجسم في دواخلنا ، تنطق على الألسن ، حالما تضغط مؤثراتها الأصلية على أسبابها في أعماقنا .. ».

ـ « وبعد ، أما ترى أنك أنت نفسك قد أسرفت ، وبأكثر مما تتوقع نفسك هي بالذات ».

. « أطمح وبذلك إلى أن يكون مثل هذا ، تذكرة لي هو الآخر .. لأن الخطر يكمن في هذه المسألة ، فإنها هي التي تعيق عملية السلام أجمع ، وتشل حركة التآخي بين المسلمين ، لأن الكل يتخذها ذريعة له، كما اتخذ المشركون أيام الجاهلية حرب الآخر وابن العشيرة الواحدة ذريعة لا تزال أشد العقوبات بالخصم والغريم ، لأ نهم ما كانوا ليؤمنوا إلا بالرأي القائل أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، أما الآن ، فإنك ترفع عقيرتك بنظريتك المستلة من أصول ذلك الرأي ،

وما أراها إلا أنصر مذهبك (عقيدتك) ظالمة أو مظلومة. بينما أعيذك بالله أن تواصل السير في مثل هذه السبيل الشاذة ، لأ ني ما أرى مغبة الاستمرار في منوالها إلا أن تحمل لها عواقب أقل ما يمكن أن تتمثل فيه هو الحرمان من نعمة الصديق والأحبة ، فلا تجد بعد ذلك ربيباً ولا حميماً ».

تساءل بدهشة ، وكأنه يستفسر عن أمر غاب عنه :

. « أتقصد : الأخلاء؟ ».

ـ « وذلك حين يكون يومئذ بعضهم عدواً لبعض ، فلو أسررت لنفسك أن تبقى على التعبد على مذهبك حتى ولو امتاز لناظريك أنه في عداد المبطلات. وذلك عزماً منك على أن تبقى إلى جانب أهلك وإخوانك. ولربما وجدتك تقسم ، أنه لو دخل أهلك النار للحقت بهم ، يحدوك العزم على عدم الحنث بمثل هذا القسم أبداً .. ولو اطلعت على الغيب لما كان لك أن تفكر كذلك .. ألا ترى أن المرء لو أبتلي بالجنون تنكر لاهليه .. ولربما حمل عليهم ، وهاجمهم بقصد القتل والاجرام. كذلك لو ابتلي بفقدان الذاكرة لتراه ينسى أباه وأمه ، وإخوانه وإخواته أجمعين. بل لا يصير يذكر منهم أيما أحد ، ولو مثلوا بين يديه ،واعتصروا مناديلهم دماً بدل الدموع. أو ما ترى أن المرء يموت فلا يحتمل أهله أن يمكث إلى جوارهم في المنزل حتى يسارعون إلى قبره ، والعود بعد ذلك إلى حياتهم الطبيعية بعد أن يؤانسوا في أنفسهم مشاعر الوجد التي لها أن تزول بمرور الوقت والزمان .. يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم. وإن بوسعي أن أقسم ، أن ما يستاقك إلى التلبس بمثل هذه المشاعر والأعراب عن مثل هذه الأحاسيس ، ما هي إلا شمائل استطاع الآباء ، ومن طريقها أن يخترقوا مستقبل المرء ، ويخترموا جدر مصائره ، ومن

دون ان يشعر هو .. وأنا لا أدعي أن على المرء أن يتطاول على أهله ، ما دام هو يجدهم على مذهب لا يرتضيه الله لهم .. وإن جاهداك على أن تشرك بالله فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، فلا يجب طاعتهما في هذه المسائل. هذا ، في الوقت الذي لا يجب فيه كذلك أن تقول لهما أف .. ولو أنهما خالفاك في العقيدة ، ولو أنهما أصرا على ظلمك .. أنظر كم هو الإسلام جميل ، لشدما يرغب المرء في السير إليه ، مع أنه لا يخسر أيما عوان يمكن أن يهز كيانه .. وإني لأرى الكثير ممن يختصمون وأهليهم ، لأجل زيجات أرادوا من خلالها أن يمارسوا دورهم الاختياري ، ويزاولوا انتخابهم الشخصي في. الاقتران بمن يحبون ، فتراهم ربما يضطرون إلى مقاطعة آبائهم وأمهاتهم مدى العمر! نزولاً منهم عند رغبات زوجاتهم مثلاً مع أن المذهب الشيعي لا يقر بمثل هذا أبداً ، ويقره من يعترض عليهم! حتى إذا ما دعوت مثل هذا الشخص إلى المذهب الشيعي ثار بوجهك ، وطفق يتحداك ، معلناً أن الدين دين الآباء ، وليس لنا أن نتجاوز الطريق الذي رسموه لنا ، ملوحاً لنا وبنفس اليد التي ربما تطاولت ذات يوم على أبيه وأمه ، أو أخته وأخيه ، .. حتى كانت قد كفرت بأنعم الله! ».

فقال نبيل :

. « .. ولربما ، وصمتنا بالكفر كذلك .. ».

ـ « لقد رأيت من يكفر بالله ، ولا أحد يعترض عليه ، ولا أحد ينهاه عما يقول ، ويفده به لسانه ، وأنا أقسم لو دعونا الشخص نفسه ، وكفرنا إمامه بين جمع حتى أهل السنة ـ ببعض الصحابة ، لما كان لمشاعره أن تهتز ولا للحظة واحدة ، ولو دعوناه كذلك في جمع من أهل التشيع ، لكان له أن يثور ويجابهنا

بلحن القول العتيد ، اتكفرون بالله ورسوله ، وتشيحون بوجوهكم ، عما أمرنا به .. وليس ذلك فقط ، ولو جئنا بذلك الجمع الذي كفر .. لكان لهم أن يثوروا علينا ، وذلك حالما يجدوننا نحاول قراءة التاريخ من جديد ، ونعرض لاعمال بعض الصحابة بالفحص والتمحيص .. أو يروننا نقدمه لاستحوان ونحن نحمل بين أيدينا الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة .. مع أنهم يعلمون بأ نهم ليسوا بمعصومين ، وأن الخطأ له أن يصدر عنهم ، إن لم نقل بصدور الجرائم عنهم ».

. « الجرائم؟! ».

. «و هذا أمر طبيعي يمكن أن يحصل لأي امرئ ، وينسحب على أي شخص ليس بمعصوم ».

. « أي شخص؟ ».

. « في حال الاستسلام لأهوائه الشخصية ، ومطامحه النفسية دون أهداف الله ».

. « أتقصد بأن الصحابة المجاهدين مع رسول الله، كان لهم مثل هذه المواقف؟ ».

. « ولربما الكثير .. أجل! فإني لو أخبرتك ما وقعت عليه في رواياتنا ، لكان لك أن تلطم وجهك وتضرب على الرأس ».

. « إني لأجد بأن الشيعة المتعصبين ، هم الذين أوغروا قلبك على الصحابة ».

لقد وجدت نبيل قد انقلب فجأة ومن جديد ، ولذلك ما كان لي أن أتناقش معه إلا لاتمام الحجة ، لأ ني أعرف نبيل وأمثاله ، فهم كلما أسديت إليهم خدمات العلم وعبوا من مواده الكثير الكثير ، كان لهم أن يبتعدوا عن الحقيقة

العلمية أكثر فأكثر! بل كان لهم أن يزدادوا لجاجة وعناداً ، وتراهم كل يوم على مزاج ورأي خاصين.

فقلت له بعدئذ ، وأنا أجد بأنه من اللازم على شخص مثلي يتعامل مع شخص من مثل نبيل ، أن يعرض عليه ما يلزم عرضه ويبرئ ساحة الآخرين من إيما تهمة هو يحمل الدلائل والمستندات على نفيها وإبعادها عنهم خدمة للحقيقة ، فكيف والتهمة كان لها أن تنسب إلى شيعة علي بن أبي طالب :

ـ « إنهم لا يحملون أيما تعصب ، وإن وجد فيهم من يحمل نزعات تقليدية فإنه لا يحسب عليهم ، لأ نه لا يمكن أن يقاس التشيع بالشيعة أنفسهم ، لأن الشيعة فيهم الصالح وفيهم الطالح ».

. « ولكن فيهم الغلاة وفيهم الغلو! ».

وعندها قلت له :

ـ « إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم واضافتها إليهم ، وأستطيع أن أثبت بأن تلك الفرق الضالة قد آزرتهم السياسة ، وسهلت لهم الطرق ليصلوا إلى غايات في نفوسهم من الوقيعة في الشيعة ، والحط من كرامة أهل البيت ، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينقصوهم بشيء ، والأمر واضح كل الوضوح ».

. « كيف هو وقد أصبح واضح كل الوضوح ، وأنا أشعر أنهم يسعون لاضفاء مسحة من الألوهية على أئمتهم؟! ».

. « إن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الإسلام فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة حركة سياسية أوجدتها عوامل لإثارة الفتنة من جهة ، والفتك

بالإسلام من جهة أخرى ».

رأيته قد التمس طريقاً إلى الهدوء ، بعدما كان مثاراً بعض الشيء ..

فقال :

. « كيف؟ ».

قلت :

ـ «لأن دخول الغلاة في الإسلام كان انتصاراً لمبادئهم ،إذ لم يجدوا طريقاً للانتقام من الإسلام إلا باختراع المغالاة في بعض العقائد الإسلامية عندما عجزوا عن مقابلته بالقوة وجهاً لوجه ، وانهزموا أمام قوم وطأوا أرضهم بأقدام لا تتأخر خطوة إلى الوراء إما الموت أو الفتح ، فأذلوا عزيزهم ، وأسروا ذراريهم ، وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ».

. « وإذن ، فلما لم تكن هذه المسألة هي جزء من التشيع والشيعة منها براء ، فلماذا لم يكافحها ويعالج أسبابها .. أقصد نفس المذهب ، لم لم يتصد للقضاء عليها؟ ».

ـ « لقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطيرة ، وعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء الكفرة إلى الالتحاق بصفوف الشيعة ،واتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدو ن أن يوقعوا بهم ، فكان أئمة أهل البيت يعلنون للملأ البراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم ، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم والابتعاد عنهم ».

فقاطعني قائلاً :

. « كأنك قد حملت من علوم الشيعة أكثر مما تحمله من علوم العامة ».

. « استمع إلى ما أقوله لك ، ودعك من هذه المقالات الاستهلاكية. فإن

الشيعة كان لهم أن يتلقوا أوامر أئمتهم .. الأوامر الشريفة بالقول والامتثال ، فاعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبرئ منهم ، وافتوا بحرمة مخالطتهم ، وأجمعوا على نجاستهم ، وعدم جواز غسل ودفن موتاهم ، تحريم اعطائهم الزكاة. كما أنهم لم يجوزوا للغالي أن يتزوج المسلمة ، ولا المسلم أن يتزوج الغالية ، ولم يورثهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم ».

. « وماذا فعل إمامهم جعفر بن محمد؟ ».

ـ « لقد كان الإمام الصادق رضي الله عنه يلعن كبار الغلاة أمثال المغيرة بن سعيد ويصرح بكذبه وكفره ، ولعن أبا الخطاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى المبادئ الفاسدة ، وكان هذا الإعلان من الإمام الصادق قد أوقف سريان دائها القاتل ، ولم يبق من تلك الفرق إلا الاسم في التاريخ وبادت بمدة قصيرة ».

. « وكيف لك أن تحدد مساعيه في هذا الإطار؟ ».

. « لقد قال الإمام لمرازم : قل للغالية توبوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون ، وقال رضي الله عنه له : إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري ، وقل له يقول لك جعفر بن محمد :يا كافر يا فاسق أنا بريء منك. قال مرازم : فلما قدمت الكوفة قلت له يقول لك جعفر بن محمد : يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك ، قال بشار : وقد ذكرني سيدي. قلت : نعم ذكرك بهذا ، قال :جزاك الله خيراً . ولما دخل بشار الشعيري على أبي عبد الله ».

. « أبي عبد الله؟ من هو أبو عبد الله؟ ».

ـ « هو نفس الإمام جعفر الصادق ، يلقب بأبي عبد الله، كما أن الإمام الحسين يلقب بهذا اللقب أيضاً ».

بينما تابعت كلامي ، وأنا أقول :

. « قال له : أخرج عني لعنك الله ،والله لا يظلني وإياك سقف أبداً ، فلما خرج قال الإمام :ويله ما صغر الله أحداً تصغير هذا الفاجر ، إنه شيطان بن شيطان ، خرج ليغوي أصحابي وشيعتي يحذروه ، وليبلغ الشاهد الغائب أني عبد الله وابن أمته ضمتني الأصلاب والأرحام ، وإني لميت ومبعوث ثم مسؤول ».

. « أخبرني إذن، كيف كانت سلوكية غير الإمام (من الأئمة) جعفر بن محمد مع الغالية؟ ».

. «فمثلاً ، لقد كتب الإمام الحسن العسكري ابتداء منه إلى أحد موإليه : إني أبرأ إلى الله من ابن نصير الفهري وابن بابه القمي فابرأ منهما ، وإني محذرك وجميع موالي ، ومخبرك أني العنهما عليهما لعنة الله ، يزعم ابن بابا أني بعثته نبياً وأنه باب ، ويله لعنه الله سخر منه الشيطان فاغواه فلعن من قبل منه ، يا محمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل ».

. « وعليه ، فإنهم كانوا يلعنون الغالية ويبرأون منهم كذلك؟ ».

. «نعم! فلقد قال أبو عبد الله الصادق يوماً لاصحابه : لعن الله المغيرة بن سعيد ، لعن الله يهودية كان يختلف اليها ، يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق ، إن المغيرة كذب على أبي ،وإن قوماً كذبوا علي ما لهم! أذاقهم الله حر الحديد ، فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا ، ما نقدر على ضر ولا نفع إلا بقدرته ، إن رحمنا فبرحمته ، وإن عذبنا فبذنوبنا ، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا ، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا ».

. « ومع كل هذا التصدي ، فإن الغالية كانوا ذوي جهود متواصلة ، فكيف

تناسب ذلك مع كل هذا التحدي من أئمة الشيعة وتصديهم لهم ».

ـ « إن للسياسة دور هام في إزدهار وتطور مثل هذه الحركات ، فما كان من أئمة أهل البيت إلا أن يحصدوا ما يزرع هؤلاء ، فحسبك ما قاله الإمام جعفر بن محمد : إن أبا منصور كان رسول إبليس ، لعن الله أبا منصور ،قالها ثلاثاً .. كذلك قال : إنا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا ، ثم ذكر المغيرة وبزيغ السري وأبا الخطاب ،ومعمر وبشار الشعيري وحمزة اليزدي وصائد النهدي ، فقال : لعنهم الله أجمع وكفانا مؤونة كل كذاب. ومع كل هذا ، فبقدر ما كانوا يسعون لاستئصال شأفة هؤلاء المجرمين، كانت السلطة تزرع غيرهم في مختلف الأمكنة ».

. « حقاً؟! ».

. « وعن حمدويه قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله وميسرة عنده فقال له ميسرة : جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون إلى هذا الموضع فانقطعت أخبارهم وآثارهم وفنيت آجالهم. قال الامام : ومن هم؟ قلت : أبو الخطاب وأصحابه ، فقال (وكان متكئاً ورفع بنظره إلى السماء) : على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فاشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب ».

. « وإذن ، فكانت قد صدرت التعليمات الخاصة بهؤلاء الغلاة وذلك من قبل الأئمة إلى شيعتهم؟ ».

ـ « نعم! ولقد ذكر عنده أصحاب أبي الخطاب والغلاة فقال : لا تقاعدوهم ، ولا تواكلوهم ، ولا تشاربوهم ، ولا تصافحوهم ،ولا توارثوهم.

وقال عليه السلام : إن من الغلاة من يكذب حتى إن الشيطان يحتاج إلى كذبه ».

ـ « عجيب .. وإذن، كانوا هم قد تصدوا لهم كافة .. حتى خلعوا عنهم صفات الانتماء إليهم! ».

. « بالضبط! فلقد قال الإمام : إن قوماً يزعمون أني لهم إمام ، والله ما أنا لهم بإمام مالهم لعنهم الله! أقول كذا ويقولون كذا ، إنما أنا إمام من أطاعني ، ومن قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله ، ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله ».

. «؟!».

. «وهذا ما وجدته جميعاً في كتاب الشيعة في التاريخ ، لمحمد حسين الزيني ص ١٧٨ ».

ـ « وبذلك ، فإن الشيعة لا تؤله أئمتها .. ولكني أحسب أنهم يفعلون مثل ذلك ومن حيث لا يصنعون ما تصنعه فرق الغلاة .. ومن حيث لا يشعرون كذلك ».

قلت له :

. « كيف؟ ما الذي تقصده؟ ».

. « إن ما يصنعونه في بعض المناسك والشعائر ليدلل على وجود تأليه وشرك خفي .. حتى إن بعض الممارسات والعادات الحياتية هي الأخرى ، لتنسحب على مثل هذا الأمر! ».

فقلت له :

ـ « إن ما أخبرتك به ، هو بعض ما ورد في الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد الحاقهم بالشيعة ، لغاية الحط من كرامة المبدأ ، وليظهروهم للملأ بابشع المظاهر وأشنعها ، ويعلنوا للعالم أن الشيعة يعتقدون في الأئمة الألوهية ، فلا

يصلح عدهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم وتنهب أموالهم ، ولما أصبح من الصعب عليهم تواصل مثل هذه السياسات كان لهم أن ينسلوا في الشيعة أنفسهم ، فيجعلوا منهم أسواراً يتسورون العوام منهم حتى إذا ما استطاعوا النفوذ إلى كيان الشيعة ، أخذوا يخترعون ويبتدعون ما طاب لهم وحلا من مناسك وشعائر ادخلوها ودسوها حشراً في داخل مناسك وشعائر الشيعة والمذهب العادية .. ولا أريد الدخول في عموم التفاصيل ، ولكن خلاصة الأمر أن الاستعمار هو نفس الاستعمار إلا أن سياساته بدأت تختلف ، وأساليبه صارت تتمدن وتتطور أكثر من ذي قبل ووفقاً لما يتناسب مع ضرورات الأزمنة ومتطلبات العصر الذي يعيشونه! ».

. « وهل حدث التاريخ عن فجائع الغلاة في تلك الأزمنة الغابرة؟ ».

ـ « وكم حدثنا التاريخ عن تلك الفظايع السود ، ومن أراد أن يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع إلى كتاب روض الجنان للشهيد الثاني المتوفى سنة ٩٩٦ للهجرة ، ونهج المقال للميرزا محمد الاسترآبادي المتوفى سنة ١٠٢٦ هـ والانتصار للسيد المرتضى المتوفي سنة ٤٣٦ ، التهذيب للشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ ، والسرائر لابن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ ، والمنتهى ، ونهاية الأحكام ، والتذكرة ، والقواعد والتبصرة للعلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ ، والبحار للشيخ المجلسي المتوفى سنة ١٠١١ هـ ، والدروس للشهيد الأول المتوفى سنة ٧٨٦ ، وجامع المقاصد للشيخ علي الكركي المتوفى سنة ٩٤٠ هـ والشرائع والمعتبر ، والمختصر النافع للمحقق أبي القاسم الحلي المتوفى سنة ٦٧٦ والجواهر للشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٢٦٦. وغيرها من آلاف الكتب الفقهية التي تنص بالاجماع على كفر

الغلاة ونجاستهم وبعدهم عن الدين ، ولا رابطة بينهم وبين الشيعة ».

لحظتها ، كان نبيل يتنبه الي بدقة ، ويرقبني كنظر المتفحص .. فقال :

. «إني لأراك شيعياً في الأصل .. فها أنت تحفظ أسماء الكتب ، وتجيب عن الشيعة وبالنيابة ، إنك صرت تعلم عن الشيعة والتشيع وأئمة المذهب أكثر مما يعلمه الشخص الشيعي الأصل ».

. « ولربما هذه نعمة من نعم الله .. يترتب علي النهوض بشكرها ».

بينا عاد يقول :

ـ « لذا! فالذي يحصل الآن ، وحصل في الماضي هو محاولة تطبيع الشيعة أنفسهم ونسلهم كذلك على ما أوصاهم به أئمتهم ، أليس كذلك؟ ».

. « بالضبط! كما أن كتب الرجال طافحة بذم الغلاة والتبرؤ منهم ومن معتقدائهم ، ويلعنونهم بلغة واحدة. فأمل الشيعة إذن هو بأبناء المستقبل، كيما لا يركنوا إلى الأوهام والاباطيل ، وأن يطلبوا الحقيقة ، فالعلم يطلب منهم أداء رسالته ، والحق يدعو هم إلى مؤازرته ، فقد آن أن تماط عن العيون غشاوات التعصب التي منعتها من رؤية الحق وأبرزت الواقع معكوساً إذ هي كعدسة المصور! ».

ـ « ولكن في التشيع مشكلة أخرى وهي مشكلة الكتاب المفرطين في الحديث عن عقائد الشيعة ودراسة أخبار مدوناتهم! ».

ـ « وهذا هو الذي يطلبه أئمتهم منهم ، وذلك كيما يسلم العوام من الافراط والتفريط ، فثمة ضرورة مراقبة المشتغلين في قطاعات الأدب والعلوم، كيما تنعكس آثار مثل هذا على الطبقات الدنيا من جماهير الشيعة ».

. « وهذا سيساعد الآخرين وعلى الأخص المثقفين من هؤلاء الآخرين ،

سيساعدهم على فهم عقائد الشيعة ومحاكات علومهم وتعاليمهم ، وربما مناظرتهم ومحاججتهم ، وفي نفس الوقت سيفوت الفرصة أمام المتعطشين للعب في المياه العكرة والخوض في المياه الآسنة ».

ـ « بالطبع ، فيعتدل بعدها الكتاب عن هذه السيرة الملتوية ، ويضطروا إلى تغيير خططهم (إلا من شقي منهم) وتبديل لغتهم المستخدمة في ذكر الشيعة ، فلا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التي جنت على الإسلام جناية لا تغتفر ، وملأوا القلوب بالاحقاد والضغائن ، ونسبوا مبدأ التشيع إلى عبد الله بن سبأ اليهودي ».

. « عبد الله بن سبأ اليهودي؟ ».

ـ « أجل ، عبد الله بن سبأ اليهودي ، فطعنوا بذلك على أصحاب محمد ﷺ الذين عرفوا بتشيعهم لعلي ، ويتجاوز عددهم المئات وغيرهم ممن تكتم جريا مع الظروف ومتابعة الأحوال ، على ان كلمات اللغويين والمفسرين قد أجمعت على أن معنى الشيعة هي الموالاة لعلي إذ أصبح علماً في ذلك ».

. « ماذا تقصد بعبد الله بن سبأ ، ومن هو هذا الشخص؟ ».

. « أما عبد الله بن سبأ ، فهو ذلك الشخص الوهمي الذي وصفوه بصفات البطولة والاقدام ، وهو صاحب السلطة المطلقة في المجتمع الإسلامي ، قالوا عنه : أنه استطاع أن يسيطر على أهل مصر ويقود منهم جيشاً لقتل الخليفة عثمان ، وأن أبا ذر تعلم منه ، وعماراً أخذ بآرائه ، وحرب الجمل من دسائسه ، ووقعة صفين من صنعه ، ومبادئ التشيع من تفكيره ... وقد ورد ذكره في كثير من الكتب حتى أصبحت قصته وكأ نها حقيقة ملموسة قضية واقعية ».

. « أووه ، ما الذي أسمعه ، إن هذا لشيء عجاب حقاً ! ».

ـ « والذي يلفت النظر هو أن بعض الشيعة ترجموا له ، وذكروه للتبرؤ منه ، أخف عبارة يقولونها في ترجمته : عبد الله بن سبأ العن من أن يذكر ».

. « ما هو واقع هذه الشخصية؟ ».

. « أما إذا أردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصية ، وما لها من صلة في الواقع ذلك على ضوء البحث الدقيق ، فإن النتائج العلمية تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية ، وأ نها أسطورة وحديثها حديث خرافة ، وهي من مبتكرات التعصب الطائفي ، ودسائس ، للحط من قيمة مذهب أهل البيت ، والوقيعة في شيعتهم ».

. « وكيف يمكن تحديد مصدر هذه الأسطورة؟ ».

ـ « إن هؤلاء الذين ذكروا عبد الله بن سبأ بتلك الصورة المدهشة ، وذلك من أجل أن يكون بميسورهم النيل من مقام الشيعة ، فلو أنهم وقفوا قليلا أمام مصادر هذه الأسطورة ، ومنحوا لها بعض الوقت من التأمل ، لانكشف لهم الواقع وظهر أن المصدر الوحيد هو الطبري ».

. « الطبري! .. الطبري؟! نفس الطبري؟ ».

. « أجل نفس الطبري والمتوفى سنة ٣١٠ هـ ».

. « كيف؟ ».

. « لأ نه لم يسبقه أحد في ذكرها ، والكل رواها عنه وهو يرويها عن سيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة ، وسيف هذا! قد أجمع علماء الرجال علىأنه كذاب ».

. « وماذا يعلق الأدباء والمفكرين على هذه القضية؟ ».

. « ولنصغي الآن إلى حديث الاستاذ كرد علي حول مذهب التشيع وعلاقة ابن سبأ به ».

. « وماذا يقول هذا الأستاذ؟ ».

. « يقول الأستاذ كرد علي في خطط الشام : عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسي القائل : بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والإئتمام لعلي بن أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول : أمر الناس بخمس فعلوا باربع وتركوا واحدة ولما سئل عن الأربع ، قال : الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج ، قيل فما الواحدة التي تركوها؟ قال : ولاية علي بن أبي طالب. قيل له : وإنها لمفروضة معهن ، قال : نعم هي مفروضة معهن ».

وإذا ما سكت لحظات ، سألني المزيد من مقالة هذا الأستاذ ، فعدت إلى حديثي :

ـ « .. ومثل أبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت ، وأبي أيوب الأنصاري ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وقيس بن سعد بن عبادة. وأما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن مذهب التشيع من ابتداع عبد الله ابن سبأ المعروف بابن السوداء ، فهو وهم ، وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم ، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة ، وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله ، وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه ، علم مبلغ هذا القول من الصواب ،ولاريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. انتهى كلام الاستاذ ».

. « قلت : .. مصدره، كتابه ، ماذا كان اسمه؟ ».

. « خطط الشام ج ٦ ص ٢٥١ . ٢٥٦ ».

. « وماذا يقول كبار الشيعة في هذا الخصوص؟ ».

ـ « ويقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ﷺ حول الغلاة ونسبتهم للشيعة : أما الشيعة الإمامية فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم ، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى ، بل خلاصة مقالتهم بضلالتهم : إن الإمام هو الله سبحانه ظهوراً واتحاداً ، أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الإسلام ومشاهير مشائخ الطرق ، وقد ينقل عن الحلاج والكيلاني ، والرفاعي ، والبدوي وأمثالهم من الكلمات . وانشئت فسمها كما يقولون شطحات . ما يدل بظاهره على أن لهم منزلة فوق الربوبية ،وأن لهم مقاما زائداً عن الألوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) قريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود ».

كنت أتابع سلسلة كلامي ، وأنا أقول :

ـ « بينما يمضي الشيخ في حديثه ، فيقول : أما الشيعة الإمامية وأعني بهم جمهرة العراق وايران ، وملايين المسلمين في الهند ومئات الألوف في سوريا والافغان فإن جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرؤون من تلك المقالات ، ويعدونها من أبشع الكفر والضلالات وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، أو ملابسة لهم في صفة من صفات النقص والامكان والتغيير والحدوث ، وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية ، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة والكلام من مختصرة أو مطولة ».

. «؟!».

. « وعلى أي حال فإن الشيعة براء مما نسب اليها من الغلو ، وأما أهل المقالات في الغلو كالبيانية والمنصورية وغير هم فإن نسبتهم إلى الشيعة ظلم وما أكثر الظلم للشيعة . وتهجم على أمة تدين لله بالوحدانية ، لمحمد بالرسالة ، ولاله بالمودة. واستطيع الجزم بأن هذه الأمور لم تخف على أولئك القوم الذين أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن في عقائدهم ، إذ نسبوا إليهم هذه المقامات الفاسدة التي يقول بها الغلاة. نعم إنهم يعرفون الأمر ولكن الحق مر لا يمكن أن تتقبله أذواقهم ، ولقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذة الشيعة والطعن في عقائدهم ، عندما وجدوا طرق المؤاخذات أمامهم مغلقة فلا يستطيعون منها النفوذ إلى مقاصدهم ، فالتجأوا إلى هذه الخرافات والاباطيل التي لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق ».

فقال لي :

. « هذا هو كلام الشيعة ، وهذا الشيخ هو يتحدث بالنيابة عنهم ، أليس كذلك ، فما يقوله يمكن أن ينسحب على مذهب التشيع؟ ».

قلت له :

. « بلى! هل أواصل نقلي لكلامه؟ ».

ومن بعد أن أجابني بالاثبات ، عمدت إلى مواصلة مقالة الشيخ كاشف الغطاء ، فقلت وأنا أنقل كلامه :

. « كيف يستطيعون مؤاخذة الشيعة ومنهم صحابة الرسول والتابعين لهم باحسان: كأبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، وجارية بن قدامة ، وجابر بن عبد الله الانصاري ، وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي ، وصعصعة بن صوحان ، والمقداد الكندي وغير هم؟!! ومن الغريب أن أكثر الكتاب قد نسبوا

لأصحاب محمد ﷺ تأثرهم بآراء ابن سبأ ، وأي طعن على الإسلام وعلى رسوله ﷺ أعظم من هذا بأن يسيطر يهودي على عقول أصحاب النبي ومن تأدبوا بآدابه ، ».

كان نبيل يصغي إلي بانتباه .. بينما كنت أواصل قراءتي لحديث الشيخ :

ـ « وإليك ما كتبه بعض كتاب العصر الحاضر عند ذكره لعبد الله بن سبأ ونسبة ظهور التشيع إليه ، إذ يقول : إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء ، وكان يبث دعوته بخبث وتدرج ودهاء ، واستكثر اتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين في الدين المتنطعين في العبادة إلى أن يقول : وعني بالتأثير في أبناء الزعماء من قادة القبائل ، وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح ، فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المتنطعين جماعات كان على رأسهم في الفسطاط الغافقي بن حرب العتكي ، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، كنانة بن بشر بن عتاب ، وعبد الله ابن زيد بن ورقاء الخزاعي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ».

. « أووه؟! ».

ـ « .. وعروة بن النباع الليثي ، وقتير السكوني. وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ في الكوفة عمرو بن الأصم ، وزيد بن صوحان العبدي ، والاشتر بن مالك بن الحارث النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم ».

. « كل هؤلاء؟! ».

. « ومن البصرة ».

. « ولبصرة أيضاً؟! ».

ـ « .. حرقوص بن زهير السعدي ، وحكيم بن جبلة العبدي ، وذريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي ، وابن المحرش. أما المدينة ».

. « والمدينة كذلك؟! ».

. « .. فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر. محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة ، وعمار بن ياسر ».

. « أووه عمار بن ياسر .. أقول : من أين اقتبس الشيخ هذا الكلام ، بل أين وجده ، وهو لمن؟ ».

. « اسم الكتاب ، هو : حملة رسالة الإسلام ، واسم المؤلف : محب الدين الخطيب ، والصفحة : ٢٣ ».

ثم استدركت الكلام ، وأنا أقول :

ـ « بينما يعود الشيخ إلى كلامه ، فيقول : هكذا يقول ، ونبرأ إلى الله مما يقول ، ليت شعري أي جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد ﷺ ، ووصفهم بهذه الصفة بأنهم مخدوعين بدعوة ذلك الشيطان ، استجابوا لما جاء به هذا اليهودي المزعوم ، وهم خريجو مدرسة محمد ﷺ ودعاة الحق واتباعه ، ولكن الشيطان خدع هذا الكاتب ، فجاء بهذا الافتراء وهو (يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد. كتب عليه أن من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) ».

. « وإذن حديث الكاتب هو كله افتراء وسفسطة ليس إلا؟! ».

. «تماماً ! بينما يواصل الشيخ كلامه ، فيقول : ونحن نأمل من كتابنا الذين يكتبون لذات الحق ولا يميل بهم الهوى ، ولا تستولي عليهم النزعات

الطائفية ، أن يوجهوا عنايتهم لاظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيز ولا يتعصب ، ولا يقصد إلا خدمة العلم واظهار الحق ، ويقف موقف المدقق على مصادرها ورواتها الظروف التي أوجدتها ، ليتضح له الأمر ، ويتميز الحق من الباطل ».

. « وهل يمكنك التأكيد على مسألة ما في هذا المضمار؟ ».

ـ « أجل فإني لأؤكد القول بأن قضية ابن سبأ هذه ، ما هي إلا أسطورة خرافية ، أوجدتها عدة عوامل للحط من تعاليم الإسلام والنيل من رجاله ، بأنهم قد تأثروا بآراء رجل يهودي فأوردهم موارد الهلكة ، ومن دون تميز وتفكير ، إلى غير ذلك مما يؤدي إليه إيجاد هذه الخرافة من مناقضات. هذا مع أن سندها باطل ، وراويها وهو سيف بن عمرو كذاب ».

وعندها توجه نبيل الي بالسؤال وهو يقول :

. «وهل يمكن أن ينسب إلى أهل السنة لوناً من ألوان التعصب لأئمة المذاهب؟ ».

فقلت :

. « لقد تعددت عوامل التفرقة ، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف ، تعصب كل إلى جهة ، فأهل الجرح والتعديل أدى بهم التعصب إلى الحط مما يخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض ، واختلق بعضهم مكارم لبعض ، فكم من مجروح عدلوه ، وعادل جرحوه ، وأعطف عليهم المؤرخين .فإنهم ربما وضعوا أناساً ورفعوا أناساً ، إما لتعصب ، أو لجهل ، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك ».

. « وإلى أي العوامل يمكن أن تعزى أسباب هذه الفرقة والاختلافات؟ ».

ـ « يقول السبكي : « والجهل في المؤرخين أكثر منه في الجرح والتعديل كذلك التعصب ، قل أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك ، وأما تاريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب ، فإنه أكثر الوقيعة في أهل الدين الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية ومال فأفرط ومدح فزاد في المجسمة ».

. « وإذن ، فأحد عوامل هذا التعصب بين مذاهب أهل السنة هو الذهبي؟ ».

ـ « أجل! ويقول الحافظ صلاح الدين : أن الحافظ شمس الدين الذهبي لاشك في دينه وورعه ، ولكنه غلب عليه مذهب الاثبات ومنافرة التأويل ، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً ».

. « أقول : أين وجدت هذا؟ ».

. « طبقات الشافعية : ج ١ ص ١٩٠ ».

. « وإذن ، فكان للكتاب دور خطير في تعميق شق مثل هذه الهوة السحيقة؟ ».

ـ « نعم! وعلى أي حال ، فقد مالت الأهواء وأثرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم يتقبلوها ، فكتبوا بما توحيه اليهم أهواؤهم وأغراضهم ، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هي حقيقة لا تقبل الدجل والتدليس. وتأصلت روح العداء ، وتحيز كل إلى مذهبه ، وغلوا في أئمتهم غلواً أخرجهم عن حدود الاتزان ، ووضعوا في مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد وشرط ، وتوسعوا في وضع الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبشائر بأئمة المذاهب ».

. « هل لك أن تستشهد بشيء منها؟ ».

. «أورد الحنفية مرسلاً : أن آدم افتخر بي وأنا أفتخر برجل من أمتي اسمه النعمان ، وبصورة أخرى : الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بأبي حنيفة ، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني ».

. « وأين قرأت كل هذا؟ ».

. « انه في كتاب الدر المختار في شرح تنوير الابصار : ج ١ ، ص ٥٣ و ٥٤ ».

ومضيت في الكلام :

ـ « كما توسعوا في الادعاءات لتصحيح مذهبه ووجوب اتباعه ، وان عيسى يحكم بمذهبه وأن الله غفرله ولأهل مذهبه إلى يوم القيامة ».

. « نفس المصدر؟ ».

. « أجل : الدر المختار في شرح تنوير الابصار : ج ١ ، ص ٥٢ و ٥٤ ».

بينما أضفت وأنا أقول :

ـ « وأ نه أعظم معجزة للنبي بعد القرآن. ومن ذلك قولهم : إن الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ، ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين ، فلما توفي ابو حنيفة دعا الخضر ربه : يارب إن كان لي عندك منزلة ، فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على عادته حتى أعلم الناس شرع محمد على الكمال ليحصل لي الطريق ، فاجابه ربه إلى ذلك. واتم الخضر دراسته على أبي حنيفة وهو في قبره في مدة خمس وعشرين سنة إلى آخر ما في هذه الأسطورة التي تتلى في مجالس الحنفية في الهند ومساجدهم ».

. « أقول : أين طالعت هذا؟ ».

ـ « هو في كتاب الياقوت في الوعظ لابي الفرج علي بن الجوزي ص ٤٨ .. وقد صنعت هذه الأسطورة في عصور التعصب. ولو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجرئين بالكذب ، والافتراء على مقام الأنبياء ، ولخر صعقاً إلى الأرض ، وعفر خده فهو يعرف نفسه ، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا ».

. « وماذا يقول الشعراء في هذا الباب؟ ».

. « ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره :

مثل الشافعي في العلمان خير المذاهب كذا القمر الوضاح خير الكواكب
مذاهب أهل الفقه عندي تفلصت وأين عن الروسي نسج العناكب

كما يقول شاعر آخر كان شافعي المذهب :

مثل الشافعي في العلماء مثل البدر في نجوم السماء
قل لمن قاسه بنعمان جهلاً أيقاس الضياء بالظلماء

. « والمالكية؟ ».

. «والمالكية يدعون لإمامهم أموراً ، منها أنه مكتوب على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه ، وأنه يحضر الأموات من أصحابه في قبورهم وينحي الملكين عن الميت ولا يدعهما يحاسبانه على أعماله ».

. « وهذه الأخريات ، أين وجدتها؟ ».

. « يمكنك أن تراجع كتاب مشارق الأنوار للعدوي ص ٢٨٨ ».

بينما واصلت الكلام وأنا أحدثه قائلاً :

. « ومنها : أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء فلم يبتل ».

. « وهل سخر شعراء المالكية لهذا الغرض كذلك ».

ـ « إن الشعراء معدات كل عصر ، يوظفون لاغراض ومآرب أصحابه، كما كانوا يفعلون في أيام الجاهلية ، ويصنعون مثله في وقتنا المعاصر ».

. « وماذا يقول شاعر المالكية؟ ».

. « يقول شاعرهم :

إذا ذكروا كتب العلوم فحي هل يكتب الموطأ من تصانيف مالك

فشد به كف الصيانة تهتدي فمن حاد عنه هالك في الهوالك »

. « وشاعر الحنابلة ، تراه ماذا يقول؟ ».

. « يقول الحنبلي :

سبوت شرائع العلماء طراً فلم أر كاعتقاد الحنبلي

فكن من أهله سراً وجهراً تكن أبداً على النهج السوي

. « ويقول آخر :

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا »

. « وماذا يقول الحنابلة؟.

. « أما الحنابلة فيقولون : أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع ، فما أكثر المبتدعين في نظرهم على هذه القاعدة ».

ـ « وتقولوا على الشافعي قوله : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر ، فقيل له : أتطلق عليه اسم الكفر؟ فقال : نعم ، من أبغض أحمد عاند السنة ، ومن عاند السنة قصد الصحابة ومن قصد الصحابة أبغض النبي ﷺ ومن أبغض النبي ﷺ كفر بالله العظيم ».

. « من أين نقلت هذا؟ ».

. « كتاب طبقات الحنابلة : ج ١ ص ١٣ ».

الفصل التاسع والعشرون

آلام الوصي

« فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجى »

في صبيحة أحد الأيام الباكرة ، جاءني نبيل ، فقال :

ـ «أردت أن أسألك سؤالاً واحداً لا أكثر .. أجبني عليه ، وسأجعله خاتمة لكافة حواراتنا .. ».

. « تكلم ، هات ما عندك؟ ».

ـ « لماذا سكت علي بن أبي طالب ، أو بالأحرى ، لماذا لم يعترض على القوم أيام السقيفة! ولم يحتج عليهم؟ ».

فقلت له وأنا أحاول تقصي حقيقة ما يرمي إليه وبالكلية :

. « ماذا تعني؟ ».

. « إن علي بن أبي طالب لم يحتج في يوم السقيفة على أبي بكر الصديق ومبايعيه ، ولا حتى بأيما بشيء من نصوص الخلافة والوصاية التي عكف عليها الشيعة ، فهل هم أعرف بمفادها منه؟ ».

وكأن أحدهم كان قد أشار عليه ، بضرورة طرح مثل هذا السؤال ، كيما أصاب بالحرج وعلى ضوء ذلك يكون قد أفحمني مثلاً . وحسب تصور المشير والمشار عليه . وعندها قلت له :

. « إن الناس كافة ، هم ليعلمون بأن الإمام وسائر أوليائه من بني هاشم

وغيرهم لم يشهدوا البيعة ، ولا دخلوا السقيفة يومئذ ، وكانوا في معزل عنها وعن كل ما كان فيها ، منصرفين بكلهم إلى خطبهم الفادح بوفاة رسول الله ، وقيامهم بالواجب من تجهيزه ﷺ ، لا يعنون بغير ذلك ، وما واروه بعد ، في ضراحه الاقدس حتى أكمل أهل السقيفة أمرهم ».

. « ماذا تعني؟ ».

. « .. فأبرموا البيعة ، وأحكموا العقد ، وتواثقوا . أخذا بالحزم . على منع كل قول أو فعل يوهن بيعتهم ، أو يخدش عقدهم ، أو يدخل التشويش والاضطراب على عامتهم ».

. « وإذن؟ ».

ـ « وإذن! فأين كان الامام عن السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعيه ليحتج عليهم؟ وأنى يتسنى له الاحتجاج ، أو لغيره بعد عقد البيعة ، وقد أخذ أولو الأمر والنهي بالحزم ، وأعلن أولو الحول والطول تلك الشدة ».

. « ولم لم يقابلهم علي بن أبي طالب ، هو وأصحابه؟ ».

ـ « هل يتسنى في عصرنا الحاضر لأحد أن يقابل أهل السلطة ، بما يرفع سلطتهم ، ويلغي دولتهم؟ وهل يتركونه وشأنه لو أراد ذلك؟ هيهات هيهات ، فقس الماضي على الحاضر ، فالناس ناس والزمان زمان .. هذافضلاً عن أن علياً كان قد هيأ نفسه لمثل ذلك إلا أنه لم يبق معه إلا نفر قليل من أصحابه ،ممن كان قد آمن به حقاً ! ».

. « وبذلك ،فإنك لتقصد أن علياً خاف الفتنة ، فلم يحتج؟! ».

ـ « بالتأكيد! فإن علياً لم ير للاحتجاج عليهم يومئذ أيما أثر ، إلا الفتنة التي كان يؤثر ضياع حقه على حصولها في تلك الظروف ، إذ كان يخشى منها

على بيضة الإسلام وكلمة التوحيد ، إذ أنه مني في تلك الأيام بما لم يمن به أحد ، حتى كان قد مثل على جناحيه خطبان فادحان ».

. «؟!».

. « الخلافة بنصوصها ووصاياها إلى جانب تستصرخه وتستفزه بشكوى تدمي الفؤاد ، وحنين يفتت الاكباد ، والفتن الطاغية إلى جانب آخر تنذره بانتفاض شبه الجزيرة ، وانقلاب العرب ، واجتياح الإسلام ، وتهدده بالمنافقين من أهل المدينة وقد مردوا على النفاق ، وبمن حولهم من الأعراب وهم منافقون بنص الكتاب ،بل هم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ».

. «إذن خوفه كان من المنافقين وليس ممن بايع وبويع في السقيفة؟ ».

. « لقد قويت شوكة المنافقين بفقده ﷺ ، وأصبح المسلمون بعده كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، بين ذئاب عادية ، ووحوش ضارية ، ومسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد الافاك ، وسجاح بنت الحرث الدجالة ، وأصحابهم الهمج الرعاع قائمون . في محق الإسلام وسحق المسلمين. على ساق ، ولذا ، فإنه ما كان لينظر إلى أصحاب السقيفة إلا نظر ».

. « نظر ماذا؟ ».

. « نظر من يستهين بالحدث .. ليس إلا! ».

. « وكيف يمكنه أن يستهين به ».

. « وذلك فيما لو قيس بالمنافقين من حوله في ارجاء العالم الإسلامي آنذاك ».

. « وهذا ما يعني؟ ».

. «إن مثل هذا ما كان ليعني لعلي إلا أن أصحاب السقيفة كانوا سبباً لاشعال فتنة أكبر وادهى ..فان المرء حينما يحاول أن يطفئ ناراً عظيمة ، فإنه لا بد وحينما يرى بشاعة وعظمة تلك النار ، أن يستصغر أسباب نشوب حرائقها الفتاكة ويقول: كل هذه النيران بما خلفته وتخلفه من خسائر واضرار كانت بسبب اشتعال عود ثقاب وسقوطه فوق مواد شديدة الاشتعال أو قابلة للاشتعال مثلاً .. فإن كان علي ولم تكن ولاية ، فإنه أفضل من أن لا يكون ثمة اسم أو أيما وجود لعلي ، ولا أيما ذكر لأولاد علي من ابنائه المعصومين! أفهمت؟ ».

. «؟!».

ـ « هذا ،فضلاً عن تربص الرومان وترصد الأكاسرة وانتظار القياصرة لكل فرصة وأخرى .. وغيرهم .. حيث كانوا للمسلمين بالمرصاد ، إلى كثير من هذه العناصر الجياشة بكل حنق من محمد وآله وأصحابه ، وبكل حقد وحسيكة لكلمة الإسلام ، تريد أن تنقض أساسها وتستأصل شافتها ، وأنها لنشيطة في ذلك مسرعة متعجلة ، ترى الأمر قد استتب لها ».

. « كيف؟ ».

. « بل والفرصة قد حانت وسنحت ».

. « بأي شيء؟ ».

ـ « وذلك بذهاب النبي إلى الرفيق الأعلي ، فارادت أن تغتنم الفرصة ، وتنتهز تلك الفوضى قبل أن يعود الإسلام إلى قوة وانتظام ، فوقف علي بن أبي طالب بين هذين الخطرين! ».

. « وإذن؟ فأنت تقصد أنه ضحى بحقه الشرعي؟! ».

ـ « أجل! فكان من الطبيعي له ، أن يقدم حقه قرباناً لحياة المسلمين ، وقد صرح رضي الله عنه بذلك في كتاب له بعثه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها ».

. « وماذا قال فيه؟ ».

. « إذ قال : أما بعد ،فان الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ،نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسلين ، فلما مضى عليه السلام ، تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عني من بعده ، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله ان أرى فيه ثلما أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب ، فنهض في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهنه .. إلى آخر كلامه ، فراجعه في نهج البلاغة ».

. « وبذلك ، فلم يرد أن يحتفظ بحقه في الحكومة؟ ».

. « إنه لم يرد ذلك ولم يفعل مثل هذا؟ ».

. « ألست تقول هذا ، وهو يصرح بمثل هذا في كتابه إلى مالك الأشتر؟ ».

ـ « إنك لم تفهم ما عناه الإمام ، ولا ما قلته لك! بل إنه أراد الاحتفاظ بحقه في الخلافة ، والاحتجاج على من عدل عنه بها على وجه لا تشق بهما للمسلمين عصا ، ولا تقع بينهم فتنة ينتهزها عدوهم ».

. « وكيف كان يتسنى له مثل ذلك؟ ».

. « فقعد في بيته حتى أخرجوه كرها بدون قتال ، ولو أسرع إليهم ما تمت له حجة ، ولا سطع لشيعته برهان ، لكنه جمع فيما فعل بين حفظ الدين والاحتفاظ بحقه من خلافة المسلمين ».

. «؟!».

ـ « وحين رأى أن حفظ الإسلام ، ورد عادية أعدائه موقوفان في تلك الأيام على الموادعة والمسالمة ، شق بنفسه طريق الموادعة ».

. « وآثر مسالمة القائمين في الأمر احتفاظا بالأمة ».

. « .. دقيقاً ! احتفاظاً بالأمة ، واحتياطا على الملة ،وضناً بالدين وايثارا للآجلة على العاجلة وقياماً بالواجب شرعاً وعقلاً من تقديم الأهم . في مقام التعارض . على المهم ، فالظروف يومئذ لا تسع مقامة بسيف ، ولا مقارعة بحجة ».

. « وما كان له أن يعرب عن حقه ، ولا بأي شكل من الأشكال؟ ».

ـ « فمع كل ذلك ، فانه وبنيه ، والعلماء من مواليه، كانوا يستعملون الحكمة في ذكر الوصية ، ونشر النصوص الجلية ».

ـ « متى كان ذلك من الإمام؟ ومتى كان ذلك من ذوية ومواليه؟ أوقفني على شيء منه ».

ـ « كان الإمام يتحرى السكينة في بث النصوص عليه ، ولا يقارع بها خصومه احتياطا على الإسلام ، واحتفاظا بريح المسلمين التي هي تكمن حقيقة في قوة المسلمين ، وغلبتهم على اعدائهم ، والنصر وبقاء الدولة الإسلامية ».

. « وهل كان له أن يعتذر عن سكوته؟ ».

ـ « وربما اعتذر عن سكوته وعدم مطالبته . في تلك الحالة . بحقه فيقول : لا يعاب المرء بتأخير حقه ، إنما يعاب من أخذ ما ليس له ».

. « أين وردت له هذا الكلام؟ ».

ـ « هذه الكلمة من كلمه القصير الخارج في غرضه الشريف وهي في نهج البلاغة ، فراجع ما ذكره علامة المعتزلة في شرحها ص ٣٢٤ من المجلد الرابع من شرح النهج ».

. « وهل كان له طرق خاصة في نشر النصوص؟ ».

. « نعم! فلقد كان له في نشر النصوص الدالة عليه ، طرق تجلت الحكمة فيها بأجلى المظاهر ».

. « هل يمكنك أن تستشهد لي بواحدة منها؟ ».

ـ « إلا تراه ما فعل يوم الرحبة إذ جمع الناس فيها أيام خلافته لذكرى يوم الغدير؟ فقال لهم :أنشد كم الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال ، إلا قام فشهد بما سمع ، ولا يقم إلا من رآه ، فقام ثلاثون من الصحابة فيهم اثنا عشر بدرياً ، فشهدوا بما سمعوه من نص الغدير ».

ثم أضفت الكلام :

. « وهذا غاية ما كان يتسنى له في تلك الظروف الحرجة ».

ـ « وكم قال : اللهم اني أستعينك على قريش ومن أعانهم ، فإنهم قطعوا رحمي ، وصغروا عظيم منزلتي ،وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي ، ثم قالوا : إلا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه ».

. « وكان قد قال له قائل، كما في الخطبة ١٦٧أيضاً : إنك على هذا الأمر يا بن أبي طالب لحريص؟! فقال : بل انتم والله لا حرص ،وإنما طلبت حقاً لي ،

وأنتم تحولون بيني وبينه ».

. « عجيب! ».

ولقد كنت أعلم أن تأثير فعل أو سريان فعل هذه الكلمة : عجيب ، ما كان ليستمر إلا قليلاً ، فقلت وأنا أردف كلامي :

ـ « وقال رضي الله عنه :فو الله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يوم الناس هذا ».

. « وقال رضي الله عنه في كتاب كتبه إلى أخيه عقيل ».

. « وهو الكتاب ٣٦ في ص ٦٧ من الجزء ٣ من النهج ».

. « ماذا يقول فيه؟ ».

. « فجزت قريشاً عني الجوازي ، فقد قطعوا رحمي ، وسلبوني سلطان ابن أمي ».

ـ « وكم قال رضي الله عنه : فنظرت فإذا ليس لي معي إلا أهل بيتي ، فظننت بهم عن الموت. واغضيت على القذى وشربت على الشجى ، وصبرت على أحد الكظم ، وعلى أمر من طعم العلقم ».

. « وسأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال : يا أخا بني أسد إنك لقلق الوضين ، ترسل في غير سدد ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة وقد استعلمت فاعلم ، أما الاستبداد علينا بهذا المقام ،ونحن الاعلون نسباً ، والاشدون برسول الله نوطاً ، فإنها كانت إثرة شحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين ، والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة ،ودع عنك نهباً صيح في حجراته ».

. « وقال رضي الله عنه كما في ص ٣٦ والتي بعدها من الجزء الثاني من النهج من

الكلام ١٤٠ : أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا؟ كذباً علينا وبغياً أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطى الهدى ، ويستجلى على سواهم ، ولا تصلح الولاة من غيرهم .. الخ ».

ـ « كما يمكنك أن تراجع قوله في بعض خطبه التي وردت في آخر ص ٤٨ والتي بعدها من الجزء الثاني من النهج في الخطبة ١٤٦ ».

. « ماذا يقول فيها؟ ».

. « إنه يقول : حتى إذا قبض رسول الله ﷺ ، رجع قوم على الاعقاب ، غايتهم السبل ، واتكلوا على الولائج ».

. « الولائج؟ ».

. « يعني : دخائل المكر والخديعة ».

. « أووه؟ ».

. « .. ووصلوا غير الرحم ، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته ، ونقلوا البناء عن رص أساسه ، فبنوه في غير مواضعه ، معادن كل خطيئة ، وأبواب كل ضارب في غمرة ، وقد ماروا في الحيرة ، وذهلوا في السكرة ، على سنة من آل فرعون ، من منقطع إلى الدنيا راكن ، أو مفارق للدين مباين ».

. « وقوله في خطبة خطبها بعد البيعة له ، وهي من جلائل خطب النهج ، ويمكنك أن تجدها في أول ص ٢٥ وهي آخر الخطبة ٢ من الجزء الأول من النهج ».

. « ترى ماذا يقول فيها؟ ».

. « إنه يقول : لا يقاس بآل محمد ﷺ ، من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى

بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، اليهم يفيء الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة ، الآن إذ رجع الحق إلى أهله ، ونقل إلى منتقله ».

. « إني لأسمع منطقه وكأني أصغي إلى آيات القرآن .. بيد أني ».

وكأنه خاف أن يعرب عن إعجابه بعلي ، فتزل قدمه ويميل إلى حب شيعته ، فعدل عن متابعة جملته واكتفى بالاستماع إلي ، مشيراً علي بمواصلة الحديث ، فقلت :

ـ « وقوله ﷺ من خطبة أخرى يعجب فيها من مخالفيه : فيا عجبي! ما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها ، لا يقتصون أثر نبي ، ولا يقتدون بعمل وصي ».

ـ « وحسبك الحوار الذي دار بين عمر وابن عباس إذ قال عمر (في حديث طويل دار بينهما) : يا بن عباس أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد ﷺ؟ (قال ابن عباس) : فكرهت أن أجيبه ، فقلت له : إن لم أكن أدري فان أمير المؤمنين يدري ، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتجحفوا على قومكم بجحا بجحا (أي تبجحا ، والبجح بالشيء : هو القرح به) ».

. « الفاروق يقول هذا؟ ».

. « نعم! ».

. « لا أصدق! ».

. « فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت ».

. «؟!».

. « (قال) : فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن تأذن لي في الكلام وتمط عني الغضب ، تكلمت ، قال : تكلم (قال ابن عباس) : فقلت أما قولك يا أمير المؤمنين : اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت ،فلو أن قريشاً أختارت لانفسها من حين اختار الله لها ، لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود ، وأما قولك : إنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة ، فإن الله عز وجل ،وصف قوماً بالكراهة ، فقال : ﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ فقال عمر : هيهات يا بن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء أكره أن أقرك عليها فتزيل منزلتك مني ، فقلت ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك ،وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه ، فقال عمر : بلغني أنك تقول إنما صرفوها عنا حسداً وبغياً وظلماً ، (قال) فقلت : أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم ،أما قولك حسداً فإن آدم حسد ونحن ولده المحسودون ، فقال عمر : هيهات هيهات ،أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً لا يزول. (قال) فقلت :مهلاً يا أمير المؤمنين ، لا تصف بهذا قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » [1].

. « استمع إلى هذا الخبر الآخر ، ولقد حاوره مرة أخرى ، فقال له في حديث آخر: كيف خلفت ابن عمك ، قال : فظننته يعني عبد الله بن جعفر ، قال : فقلت : خلفته مع أترابه ، قال : لم أعن ذلك إنما عنيت عظيمكم أهل البيت ، قال : قلت : خلفته يمتح بالغرب وهو يقرأ القرآن. قال : يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتنيها هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت :

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٢٤ حوادث سنة ٢٣.

نعم. قال : أيزعم أن رسول الله نص عليه؟ ».

وهنا وجدته قد فتح عينيه تشوفاً إلى سماع ما يقوله ابن الخطاب!

. « قال ابن عباس : قلت : وازيدك سألت أبي عما يدعى . من نص رسول الله عليه بالخلافة . فقال : صدق ، فقال عمر: كان من رسول الله في أمره ذرو ».

. « ذرو؟ ».

ـ « الذرو (بالكسر والضم) :المكان المرتفع والعلو مطلقاً ، والمعنىأنه كان من رسول الله في أمر على علو من القول في الثناء عليه ، وهذا أعتراف من عمر كما لا يخفى ».

. « تابع! ».

. « ذرو من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً ،ولقدكان يربع في أمره وقتاً ما ».

. « يربع؟ ».

. «هذا مأخود من قولهم ربع الرجل في هذا الحجر إذا رفعه بيده امتحاناً لقوته ، يريد أن النبي ﷺ كان في ثنائه على علي بتلك الكلمات البليغة ، يمتحن الأمة في أنها هل تقبله خليفة أم لا .. أكمل لك الحديث : ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعته من ذلك ».

وهنا صرخ نبيل ثانية :

. « لا أصدق .. لا أصدق .. هات الدليل وإلا فارقتك من دون رجعة ».

. « اصبر وتمهل ».

. « لا .. لا أصبر ».

ـ « وإذن ، فما عليك إلا أن تستمع وتصغي : فالحديث قد أخرجه الإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر في كتابه تاريخ بغداد بسنده المعتبر إلى ابن عباس ، أورده علامة المعتزلة في أحوال عمر من شرح نهج البلاغه ، ص ٩٧ من مجلده الثالث ».

سكت نبيل ، ولبث مكانه ، لا يريم ولا يحرك ساكناً .. كأن على رأسه الطير!

بينما عدت إلى القول منتهزاً الفرصة :

. « وتحاوروا مرة ثالثة ».

فلما لم يبد نبيل أيما ردود فعل سلبية ، واصلت الكلام وأنا أحدث قائلاً :

. « فقال :يابن عباس ما أرى صاحبك إلا مظلوماً ، فقلت : يا أمير المؤمنين فأردد إليه ظلامته. (قال) فانتزع يده من يدي ومضى يهمهم ساعة ، ثم وقف فلحقته ، فقال : يا بن عباس ما أظنهم منعهم عنه إلا أنه استصغره قومه ، قال : فقلت : له : والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك ، قال : فأعرض عني واسرع ، فرجعت عنه ».

الفصل الثلاثون

مازن ما بين افتقاده لمودة الصديق وافتقاده لآية المودة

أما مازن ، فإنه جاءني بعد عدة أيام ، وهو يلعن اليوم الذي تعرف فيه الى نبيل ، سألته :

. « لماذا؟ ».

قال :

. « إنه قد رحل ».

فانتفضت متعجباً :

. « رحل وسافر؟! ».

ـ « أجل ، لقد رحل وإنك لتعلم ..كيف لمثلنا أن ير حل! إلا أن ما الومه عليه هو إنه لم لم يخبرني ، أين ذهبت الصداقة؟ وأية أخوة هذه! وأية مودة؟ ».

فقلت له ، ومن بعد صمت طويل ، وبعد أن وجدته ، قد أفرغ كل ما كان في جعبته :

. « هذا مقصود كلامي ، بل مصداق حديثي .. ».

. « أي حديث؟ ».

. « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعضعدواً ».

. « ماذا تعني؟ ».

. « أعني .. ابن علاقتك مع الله وحده ، لأن الله حي لا يموت ، لأن الله ،

وحينما يعدل يفي بوعده ، وهو لا يكذب ، ولا يخون بالعهد ولا يلبسك الخزي أبداً طالما كنت معه تنصره! وهذا لا يعني أن لا تصادق ولكن حاول أن تصادق في الله ».

. « تقول مثل هذا ، .. لأن نبيل .. ».

قاطعته وأنا أقول :

. « لا .. ولكن نبيل، كان مصداقاً مصغراً لآية المودة .. فكما نعرض عن مودة من أمرنا الله بمودتهم ، فإنه ليضعنا وجهاً لوجه مع آثار هذه الأعمال ونتائجها السيئة .. وتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ».

ثم رجع ، و هو يتساءل :

. « أنت قلت : آية المودة؟ ».

. « أجل وهي : ﴿ **قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾. أما بقية الآية فهي : ﴿ **ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور** ﴾.

. « وما هي الآية التي تليها ».

. « وهي : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور** ﴾ ».

. « في أي سورة تقع؟ ».

. « إنها في سورة الشورى ، الآية ٢٣ . ٢٤ ».

. « إنك قد صرفتني عن موضوع كنا نتداوله؟ ».

. « نبيل! تقصد نبيل؟ ».

بعد دقائق كان مازن قد انصرف عني ، وأنا اسمعه يردد :

. « لا يمكنك أن تستغل مثل هذه الأوضاع ، لا يمكنك ..لا يمكنك أبداً

فتضرب ضربتك .. وتضغط على الوتر الحساس! أنا لا أدري مع من تكون .. فهل أنت شيعي أم سني .. وإن أنا سألتك ، قلت لي : إني أنا منصف .. لقد تأكد لي أنك لا تريد سوى ايذائي ، وجرح مشاعري ، أووه! .. لعلك أنت الذي اضطررت نبيل إلى المغادرة ، لأ نه لم يطق تحمل تكاليف الحياة الى جانبك ، وجانب أمثالك .. ثم طوى مسيره ، ولم يلتفت ،بل قفل عائداً من حيث أتي ، ولم أره بعد اليوم ، لأ نه هو الآخر ، كان قد قرر الرحيل من غير عودة .. إلى حيث لا أدري ».

في حين تداعت إلى ذهني ذكريات حب فاشل، كنت قد عشتها في أيام المدرسة الاعدادية ، حينما كنت أرفل بين مطاوي سنوات المراهقة الغضة .ولربما ما كان فاشلاً ، لأ نه كلما كان للإنسان أن يعب من تجارب الحياة، كلما كان له أن يكسب حظوظاً أعظم! لأ نه ليس للإنسان إلا ما سعى حتى ولو لم يحالفه النجاح ، فإن سعيه هو خير شاهد ودليل على عظيم عمله ..فعسى أن نحب شيئاً وهو شر لنا ،وعسى أن نكره شيئاً وهو خير لنا! .. فما كنت لأجد الله إلا حيث تستلفتني رغباتي حتى كنت أجد من المحتم عليه أن ينصرني ، ولا يدع الفرصة تذهب من يدي .. فأنال بغيتي واسعد بمن أحب وأهوى ، فأتزوجها! إلا أن الأوضاع المادية، كان لها أن تخونني حتى جاء اليوم الذي فصمت فيه اضراس الدهر عروة مثل هذه العلاقة المحرمة الشائكة. ولا أدري، كيف لي أن استذكر طعم تلك الأيام ، وأنا ما أزال اجتر مآسيها ، مع أني جعلت أنساها اليوم ، فلا أفكر فيها ،إلا كما أفكر بماض ذهب .. وأن يعد ،فإنه ما كان له أن يعود كما كان أبداً . ولا أمر عليها إلا كما أمر على ذكريات اليتم! وربما أضحت في بعض الأحيان ذكريات سعيدة! لأ نها تعود بي إلى الأمس

البعيد .. وهذا الأخير بوسعه أن يورثني مزيداً من الصحة والعافية . ربما ذقت مرارتها أخيراً ، فوجدتها الواناً من الكذب ، وذلك حالما فطنت إلى حقيقة مفادها أن الله لو ارجعني إلى مثل تلك الأيام ، فهل كنت سأشعر آنذاك بسعادة غامرة ، أو إني سأحسد نفسي على حظها غير العاثر ، أو إني سأطلب من الله أن يحملني ثانية إلى المستقبل .. وينتشلني من وهدات هذا الماضي البائس بأضوائه الخافتة والباهتة.

كما أن قاسماً ما كان ليتوانى في عقد تلك المناظرات التي كنا قد اتفقنا على عقدها والتي ما كانت لتتناول سوى ما كنت قد صادرت عليه مسبقاً .. وهذا هو نفسه كان قد أثار عقلية قاسم هو بالذات ، وهو الذي كان يجدني أكثر صرامة من غيري من إخواننا أهل السنة. بل إنه كان يتطلع الي، كما لو كان يتطلع إلى أحد الشيعة المخلصين! وفي ذات يوم ، ومن بعد أن أشعرني بأن العلاقة التي تربط بينه وبين خطيبته التي خلفها في أرض الوطن هناك .. ما زالت قائمة! إلا انه لا يطمح إلى سياسة الاستنزاف التي ربما استنزفت عمر الفتاة من دون أن تترك أيما طائل تحتها .. لذلك ، فإنه كان يجد في التفكير ، لاجل الخروج إلى صورة حل ترضي الله ورسوله .. سعى إلى الاقدام على العمل بها ، حالما تتوافر له الظروف المؤاتية .. كنت قد صرت إلى الحديث و .. فقلت له :

. « إني كنت قد تشيعت منذ زمان بعيد .. إلا أني ما كنت لاجسر على انتزاع هذا الجلد الذي يحيط بجسدي ، أو أن أخرج من شرنقتي ، فانسل منها دون أيما أذي ، أو ألم ربما أورثني في عقبه آلاماً مبرحة ، لا تنطوي معضلاتها مدى الأيام .. كمن لا يستأصل جسماً ما حتى يضحي بعضو منه .. وذلك كيما

يتيسر له اطلاقه من أسره! ولقد فضلت الأخرى ، وهي أن أنجو بنفسي ، بكل ذكرياتي ، وكامل أيامي ، وكافة لحظات عمري الماضية والقادمة ، فلا أضحي بأي منها حتى السقيم منها .. أدخرته ، كيما أوظفهلسعادة النهارات التي انتظرها في ساعات الغد. صدقني ما كنت لأجسر على التصريح بذلك حتى استيقظت في ذات يوم ، لاجدني كحال الذي شهد الجريمة ، وهو لا يرغب في الإدلاء بشهاته التي لها أن تنقذ بريئاً من حبل المشنقة. بل وجدتني كحال الذي ما كان يجد المتهم سوى أخيه أو أحد المقربين له من أهليه. فايهما يختار ، رضى الله ، أم رضى العبد المقرب ، أم ابتياع مودة الله ورسوله وأهل بيته ، أم مودة أهل بيته والمقربين من عشيرته .. حتى استفقت من كابوسي ، وأنا أردد : الله ورسوله أحق أن ترضوه!! شعرت عندها بأني أسمع أصوات وتغاريد الملائكة ، وهي تسبح لله ، وتطلب منه أن يكتب لي نفس ثواب تسابيحها وابتهالاتها! ».

عندها كنت أشعر بأن أوهام عمري كان لها أن تتقضى وبالتتابع وعلى شكل مراحل تمهيدية،كنت قد أحسست معها أن عمري قد جعل يصير ينشق عبيراً جديداً حتى بدا لي أن أنفاسه ما عادت تحكي لي إلا ما جعلت تنفثه في الهواء الطلق وهي تتنفس الصعداء :

. « وانقضت أوهام العمر! ».

تمت الرواية بعونه تعالى.

دليل الكتاب

مقدمة المركز 3

الاهداء 5

خلاصة كلمة المؤلف 7

الفصل الأول : مخاض البدايات 9

الفصل الثاني : أنا ونفسي ، وللحديث صلة 23

الفصل الثالث : نفسي وحصر الخلافة في أئمة العترة 33

الفصل الرابع : وللموضوع صلة 41

الفصل الخامس : وجاء اليوم الذي تعرفت فيه إلى طلال عبد الواحد 51

الفصل السادس : طلال واستقلالية العلم 71

الفصل السابع : وإذن! فقد أوصى الرسول بولاية علي بن أبي طالب 87

الفصل الثامن : الأخبار النبوية تعلن عن خلافة علي ومن دون منازع 99

الفصل التاسع : مخالفة الشيعة حتى ولو كان ذلك على حساب الشريعة 113

الفصل العاشر : قاسم وفنون وسياسة وضع الحديث 135

الفصل الحادي عشر : نفسي والسؤال الملح : لم لم يباهل الرسول بالخلفاء؟ 139

الفصل الثاني عشر : عبد الرزاق وتداعيات الأيام وذكرى الأنصهار في الإمامة 151

الفصل الثالث عشر : الحوادث المؤلمة 161

الفصل الرابع عشر : طاعة أولي الأمر ولفحات الحقيقة 171

الفصل الخامس عشر : الولاية والخلفاء 183

الفصل السادس عشر : فعلية وصف أولي الأمر 199
الفصل السابع عشر : الحنين ما بين فراق الأحبة وغربة الإمامة 211
الفصل الثامن عشر : المذهب الجعفري ما بين ضغوط السلطات وضروب المذاهب 221
الفصل التاسع عشر : أئمة المذاهب ما بين المرجعية والخلافة 239
الفصل العشرون : مذهب أهل البيت ما بيع القمع والنشر 249
الفصل الحادي والعشرون : هل أوصى الرسول أم لم يوص 271
الفصل الثاني والعشرون : المذهب الشيعي ما بين أدوار الانتشار وأوضاع الانزجار 293
الفصل الثالث والعشرون : هشام بن الحكم وإعجابي بنبل قريحته 305
الفصل الرابع والعشرون : أنا وسمير ، والأرض وضوء الشمس والقمر 315
الفصل الخامس والعشرون : ردود فعل نبيل ومازن حيال تشيع قاسم 335
الفصل السادس والعشرون : نبيل ومازن وما بين شكليات التحري المذهبي وآراء العلماء المفكرين 351
الفصل السابع والعشرون : الخلفاء في الميزان : عدم التعبد بالنصوص الصريحة 366
الفصل الثامن والعشرون : المذهب الشيعي ما بين المستوى والطموح 385
الفصل التاسع والعشرون : آلام الوصي 411
الفصل الثلاثون : مازن ما بين افتقاده لمودة الصديق وافتقاده لآية المودة 425